

15

ثورات مصر الشعبية

عمرو عبد العزيز منير



هذا الكتاب

لم تكن ثورة ٢٥ يناير ثورة فريدة فقط بل حركة شعبية واسعة ضمت الجيش المصرى أيضا دون تفرقة مؤسسية بين فئات الشعب. حركة شهد التاريخ المصرى مثلها من قبل وكان مفتاح السر فيها كلمتان حركتا التاريخ مرات ومرات. " ضيق الحال" هو ما حرك المصريون وما يزال يحركهم للثورة على أى وضع يرونه غير منسجم معهم ، دون الدخول فى تصنيفات ونظريات وجدل ، فالمصرى يشعر بمن يقف فى صفه ويأسو لحاله ويعمل من أجله مهما كانت عقيدته ورأيه وصفته. وهذا هو سر عظمة هذا الشعب الذى انتفض ونزل الى شوارع المحروسة يصرخ ضد الظلم فى ٢٥ يناير، وتشاء إرادة الله أن يصدر هذا الكتاب بينما تفصلنا أسابيع قليلة عن ثورة عظيمة هى ٣٠ يونيو، مشهد ملحمى لملايين المصريين ملأوا ميادين مصر كلها صارخين ضد الظلم والجهل، ضد ضياع الأمانة فقد رأوا جميعا كيف أوسد الأمر إلى غير أهله، فبدأ توزيع المناصب بشكل لم تشهده مصر فى أشد عصور ظلامها، وأصبح الهدف الأساسى والأسمى لمن فى الكرسى كيف يحافظ عليه دون احساس بمعاناة هذا الشعب ودون أدراك للتغير التاريخى الذى حدث له. تذكرت مع هذه المشاهد خلاصة ثورات مصر .. تذكرت أحمد عرابى وهو يعلنها فى عابدين.. لقد خلقنا الله أحرارا ولم يخلقنا تراثا او عقارا، تذكرت توكيلات المصريين لسعد زغلول وبيان ثورة يوليو وهبة الجماهير لرفض تنحى عبد الناصر وتكليفه بتحرير الأرض، تذكرت نصر أكتوبر وثورة يناير وأنا أرى مصر كلها تخرج وعن بكرة أبيها لتقول لا.. ضاق بنا الحال ولم يعد فى قوس الصبر منزع. هذه مصر العصية على كل ظالم الأبية دوما ولو كره الكارهون



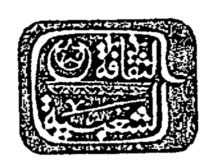
ISBN# 9789779100586



ثورات مصر الشعبية

منذ فجر التاريخ وحتى ٢٥ يناير

منير، عمرو عبد العزيز.
ثورات مصر الشعبية منذ فجر التاريخ وحتى
٢٥ يناير/ عمرو عبد العزيز منير. ـ القاهرة :
الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠١٤.
٣٥٢ ص؛ ٥, ٢٣ سم.
تدمك ٦ ٠٠٥٨ ٩١ ٩٧٧ ٩٧٨
١ ـ مصر ـ تاريخ ـ الثورات.
٢ ـ مصر ـ الأحوال السياسية.
أ ـ العنوان.
رقم الإيداع بدار الكتب ٢٢٨٣٣/ ٢٠١٤
I. S. B. N 978 - 977- 91- 0058 - 6
ديوى ٩٦٢



١٥

ثورات مصر الشعبية

منذ فجر التاريخ وحتى ٢٥ يناير

د. عمرو عبدالعزيز منير



الهيئة المصرية العامة للكتاب
٢٠١٥

سلسلة الثقافة الشعبية



رئيس مجلس الإدارة

د. أحمد مجاهد

رئيس التحرير

د. خالد أبو الليل

مدير التحرير

أحمد توفيق

تصميم الغلاف الفنان

محمد بغدادى

سكرتير التحرير

محمد شحاتة

الإخراج الفنى

مادلين أيوب

التنفيذ والطباعة



الهيئة المصرية العامة للكتاب

2015

«الثقافة الشعبية»

سلسلة تنشر الجديد في المأثورات الشعبية بكل أشكالها، العربية والمترجمة.

المحتويات

عتبة دخول	٧
مقدمة: مصروصناعة الثورة	٩
الفصل الأول: المصرى القديم ثائر	١٥
الفصل الثانى: الثورة فى العصر الوسيط	٥١
الفصل الثالث: مصر الثورة فى مواجهة الغزو الفرنسى	١٥٣
الفصل الرابع: ثورات العصر الحديث ضد الخيانة والاستعمار	١٨٧
الفصل الخامس: المصرى المسلم ثائر ومعه شريكه المسيحى	٢٢٩
الفصل السادس: التنفيس منذ الكتابة الساخرة وحتى الفيس	٢٨٧

عتبة دخول

ثورة الكلمة:

بدأت الثورة بالكلمة..كلمات من هنا وهناك تعبر عن نبض هذا الشعب الذى ظن البعض أنه مغلوب على أمره.. لا يجرؤ على الهمس وإذا ما جرأ على الكلام فإما بالشكوى أو بالرجاء ظانين أنه يكرر ملهاة الفلاح الفصيح الذى لم ترق مستوى آماله إلا لكتابة الشكاوى إلى الفرعون الواحدة تلو الأخرى.

صنع المصريون التاريخ كالعادة..كلمات قالها رئيس الوزراء الإيطالى ليلخص حقيقة أساسية..صنع التاريخ يبدأ بالكلمة، كلمات الحق والعدل التى تحولت إلى موجة من موجات القوة شملت الشعب المصرى بأكمله مسلميه وأقباطه.. شبابه وشيوخه.. رجاله ونساءه.

وكثير من الأحداث التى نعاصرها فى ثورتنا هذه لن نعرف كمصريين قدرها إلا بمرور الزمن..إنها أول ثورة شعبية ناجحة فى تاريخ مصر القديم والحديث.. ثورة أسقط الشعب فيها نظاماً بوليسياً ظن أنه حكم وتسيد واستعد لتوريث الملك الرئاسى ناسيا أو متناسيا عبارات خالدة أطلقها الزعيم أحمد عرابى "لقد خلقنا

الله أحرارا ولم يخلقنا تراثا أو عقارا..فو الله الذى لا إله إلا هو إننا سوف لا نورث ولا نستعبد بعد اليوم".

وفى هذا الكتاب الذى بين أيدينا كلمات ومواقف قيلت وصنعت على مدى التاريخ المصرى العريق الضارب فى جذور الحضارة الإنسانية. والشاهد على وجه مصر الذى يضحك وينزف، وعلى القامة التى لا تنحنى برغم مطارق الزمن، ووحشية الغزاة، وجبروت الطغاة، على المجاعات والطواعين وأكل الكلاب، والقطط فى "الشدة المستنصرية".. على "الكُبّة" و"الكوليرا".. على ثورات أبنائها.. وعلى الخيانة وجنون الحكام..على سجون العصور الوسطى المرعبة: المقشرة والحجرة وخزانة شمايل..عن نشر الناس كالأخشاب وسلخ جلودهم كالشياه لأنهم قالوا ما يعتقدون..على "أهل مصر" الذين قال عنهم ابن إياس:"إنهم لا يطاقون من ألسنتهم إذا أطلقوها فى حق الناس"... على المرأة التى وقفت أمام باب "قصر الزمرد" وصاحت بصوت بين الغضب والبكاء والانهيار:"يا أهل القاهرة، ادعوا بالنصر لأمير المؤمنين المستنصر بالله الذى أكلنا الرغيف فى أيامه بألف دينار[1].!!"... فلم أجد أثمن وأرقى من هذه المناسبة لكى أحاول نظم هذه الكلمات والمواقف فى كتاب ليكون رسالة من جيلنا لجيل يأتى بعدنا ليكملوا تسجيل كفاح الشعب المصرى على مر العصور متوجة بتاريخ سيذكره العالم طويلا ٢٥ يناير ٢٠١١م.

تحية احترام وتقدير وإعزاز لأرواح شهداء هذه الثورة ولدماء كل شهداء الحرية الذين صنعوا المجد والتاريخ... تحية لكم والسلامة لمصر.

---

(١) صلاح عيسى: حكايات من مصر (الوطن العربى، بيروت ١٩٧٣م)، ص١١.

مقدمة

مصر وصناعة الثورة

مصر بلد عريق، قديم قدم الحضارة نفسها، ومصر أولى خطوات التاريخ، ومحور الحكايات والأساطير، أعجوبة الدنيا وعجيبة الزمان، ورد اسمها فى كل الكتب المقدسة من التوراة إلى القرآن الكريم ؛ تغنى بها الإغريق والرومان، وأحبها من سكنها، وطمع فيها كل الغزاة.. من الهكسوس حتى الإنجليز. وبقيت مصر بوتقة تنصهر فيها الثقافات، وتلتقى فيها الأعراق، ظلت دُرة الدنيا، ورمزاً لفجر الإنسان، وما تزال تعجب الناس من أرجاء العالم حتى الآن.

والمصرى حكامه لم ينصفوه فالحكم مفسدة للقريب والغريب، من أجل هذا زهد المصريون فى الحكم واعتزوا بالسلطات الحقيقية: السلطة الروحية أو السلطة الأدبية والفنية نظروا إلى الحاكمين نظرة الشاعر فى أعماقه بقيمته وحضارته وتراثه ووراثاته إلى البرابرة الذين لا يملكون إلا العضلات. فكان همه كله

أن يحافظ على ذاتيته على قيمته وحضارته وتراثه ووراثاته باتقاء شرهم أو اعتزالهم لاسيما إذا اتقوا ظلمه[٢]..

فقالوا أن مصر تعاقب عليها الغزاة وقصدوا بهذا أن يرموا الشعب المصرى بالاستكانة والخضوع - بل حاول الطغاة تعميق هذا المعنى فى نفس الشعب حتى يستسلم لقدره فيه. ولكن مصر لم تعرف ولم يعرف تاريخها حائط المبكى، أو البكاء على أطلالها، وإنما كان المصرى دائما يبحث عن الحى فى الأمة فى عالم أفكارها وحياتها وفاعلياتها ويبحث عن ضرورات الإحياء، ومساراته فيها ملتزماً بأصول ذاكرتها الحضارية الحافزة الدافعة الرافعة،رغبة منه لإحياء كل ما يعينها على البقاء والحياة والشهود.

وما نشهده اليوم من إرادة التغيير والثورة شاهد لا يخيب على إرادة الحياة الكامنة فى النفس المصرية بل التحدى للقهر والألم والصعب العثرات، وبالاطلاع على السجلات التاريخية واستقرائها، فإن مصر عبر عصورها التاريخية عرفت أنواعاً من الثورات أخذت أشكالاً متعددة: التمرد، والعصيان، والرفض، الاحتجاج، والانتفاضات، الهَبَّات، وما يُماثل ذلك للتعبير عمّا يجيش بالصدور من ضيق ومعاناة وآلام.

والواقع فإن ما يحتاج إلى مزيد من البحث والتدقيق هو الحالات التى تؤدى إلى الثورة. متى يتحرك الشعب؟ وإذا تحرك فما الذى يحوّل الاحتجاج أو الانتفاض الشعبى إلى ثورة تستهدف مجمل النظام السياسى؟ وهذه أسئلة لا نعتقد أنها تؤدى إلى نظرية فى الثورة.

---

(٢) نعمات أحمد فؤاد: أعيدوا كتابة التاريخ، (ط١، دار الشروق، القاهرة ١٩٧٤م)، ص ٧٦؛ قاسم عبده قاسم: مقدمة الأساطير المتعلقة بمصر، (عين، القاهرة ٢٠٠٩م)، ص ٧.

شملت مفهوم الثورة محاولات يصعب أن ترقى إلى مستوى التعريف العلمى. فالكلمة دارجةٌ فى الاستخدام اليومى للغة، وحتى فى الكتابة التاريخية أطلقت كتسمية على عدد كبيرٍ من الظواهر المختلفة فى شدّتها والتى تمتد من أىّ تحركٍ مسلّحٍ، أو حتى غير مسلّحٍ، ضد نظامٍ ما، إلى التحركات التى تطرح إسقاط النظام واستبداله، الأمر الذى يصعّب عملية تدقيق المصطلح. وفى الإنتاج التراثى نفسه استخدم التعبير لوصف تحركاتٍ شعبيةٍ من أنواعٍ عدة مثل "ثورة الزنج" و"ثورة القرامطة"، مثلما استخدمها عرب القرن العشرين المتأثرون بثورات عصرهم لفهم الماضى بمفاهيم الحاضر، وأما المؤرّخون العرب القدماء فلم يستخدموا كلمة "ثورة" بل كلمات مثل "خروج" و"فتنة".

غير أن أقرب كلمة إلى مفهوم الثورة المعاصرة هى "الخروج"، بمعنى الخروج لطلب الحق. فالخروج هنا بدايةً ليس خروجا على الجماعة، ولا حتى على السلطان بل هو خروج إلى الناس طلبا للحق. إنه خروج إلى المجال العام، وفى هذه الحالة طلبا لإحقاق حق أو دفع ظلم.

إن مفهوم المؤرّخين العرب لما يصفه المؤرخون المعاصرون بـ "الثورة" خاضع للسياق الذى حكم إنتاجه، وهو اعتبار الخروج على الجماعة تقويضاً للعمران. والخروج على الجماعة أو الأمة هو الأصل فى ذم الخوارج، أما الخروج على السلطان الغاشم فقد اختلف فى شأنه، فالبعض اعتبره خروجا على الجماعة، والبعض الآخر اعتبره أمرا مشروعا، بل واجبا فى بعض الحالات.

يطرح عبد الله العروى فى "مجمل تاريخ المغرب" تساؤلات عن حركة عبد الكريم الخطابى كونها ثورة ريفية فى إطار تقليدى على

الرغم مما فيها من سمات عصرية. وهى تساؤلات فى محلها وما يقوله ينطبق على كثير مما يسمى ثورات فى القرن العشرين بإلصاق المعنى الحديث المفهومى للثورة، فى حين أنها كانت أقرب إلى معناها الحرفى اللغوى (الهوجة) فى ذلك الحين.

فالمقصود بالثورة إذاً، هو تحرك شعبى واسع خارج البنية الدستورية القائمة، أو خارج الشرعية، يتمثّل هدفه فى تغيير نظام الحكم القائم فى الدولة. والثورة بهذا المعنى هى حركة تغييرٍ لشرعيةٍ سياسيةٍ قائمةٍ لا تعترف بها وتستبدلها بشرعيةٍ جديدةٍ. والضرورة هنا تقتضى التعميم لاستحالة الوصول إلى صيغة عملية تحدد مراحل الثورة، لأن الثورة هى صيرورة يصعب الإشارة إلى نقطة بداية ونهاية لها، وهى تنطلق من حاجات يمكن تحديدها، ولكنها أثناء اندلاعها قد تنتج حاجات وسلاسل مطلبية لا علاقة لها بالشرارة الأولى الذى أنتجها وضع يتسم بـ"القابلية الثورية".

و"القابلية للثورة" هى الوعى بأن وضع المعاناة هو حالة من الظلم، أى الوعى بأن المعاناة ليست مبررة ولا هى حالة طبيعية معطاة، ووعى إمكانية الفعل ضده فى الوقت نفسه(٢).

والكتاب الذى فوق راحة اليد الآن يحاول أن يستقرأ ثورات مصر الحافل بالكثير مما يضئ جوهر الشخصية المصرية ويلقى الضوء على أبعادها التاريخية الثلاثة: الفرعونية والقبطية والإسلامية. وصولاً لواسطة عقد الثورات المصرية.. ثورة ٢٥ يناير ٢٠١١م.

---

(٢) عزمى بشارة: فى الثورة والقابلية للثورة (ورقة بحثية صادرة عن المركز العربى للأبحاث ودراسة السياسات، الدوحة ٢٠١١م).

وقد رأيت أن أتعرض فيه لمجمل تاريخ ثوراتنا المصرية لكل حقبة بلمحة تاريخية تضم أهم الثورات المؤثرة عليها ثم اتبعتها بفصل عن أشكال التنفيس عن الشعب المصرى منذ الكتابة الساخرة حتى الفيس بوك. والتى هى وثيقة الصلة بالعرض التاريخى لأنها قد تكون مؤثرات أو نتائج لتلك الثورات.

ولم يكن من اليسير إجمال أو تلخيص تاريخ الثورات المصرية كله على طوله فى هذه الصفحات وفى مجلد واحد ولكن ذلك اقتضى جهداً فى التحرى عن أهم الثورات التاريخية وعرضها فى تسلسل غير مخل بالمضمون مقسما الكتاب لستة فصول وخاتمة ؛ ليخدم القارئ الذى يود الاطلاع على لآلئ ثورات مصر الشعبية على مدى تاريخها فى جميع الحقب التاريخية جملة واحدة دون اللجوء إلى الكتب المتخصصة فى كل حقبة.

والله الموفق والمستعان

الفصل الأول

المصرى القديم ثائر

الشعب المصرى منذ الأزل شعب صبور، لكن إذا فاض الكيل وزاد عن حده تندلع فيه ثورة عارمة ولا يعود إلا بعد أن تعود إليه حقوقه.

فى أواخر عهد الدولة القديمة تصل إلينا إشارات تاريخية عن ضعف السلطة المركزية وظهور ثورات شعبية ذات طابع انفصالى فى بعض المناطق، فعلى ما يبدو أن الكثير من الأشراف ورجال الدين لم يرحبوا بسلطة الفرعون الاستبدادية، وأمام الاستياء الناشب اضطر الفراعنة إلى إعفاء بعض المعابد والمدن من الضرائب والواجبات الأخرى تجاه الدولة ولكن رغم ذلك تزداد الحركات الثورية الانفصالية.[٤]

حتى أيام الفراعنة جرا المصريون على الثورة

ولما انهارت السلطة المركزية فى مصر فى آخر الأسرة السادسة، اندلعت شرارة الثورة. حيث سادت مصر الفوضى

---

(٤) نعيم فرح: موجز تاريخ الشرق الأدنى القديم، السياسى والاجتماعى والاقتصادى والثقافى (دار الفكر، دمشق ١٩٧٢م). ص ٦٨.

السياسية والتدهور الاقتصادى والاجتماعى، وحدثتنا عن ذلك بردية إيبور، وكذلك بردية الفلاح الفصيح التى تظهر الظلم الذى تعرض له المواطنون من قبل الموظفين. ومن ملامح هذه الثورة ظهور نزعات فلسفية جديدة : ففى مجال الحياة اتجه الناس إلى الاستمتاع بالحياة إلى أقصى حد دون أن يحترموا أى وازع وكأن لسان حاله يقول "اللى يعرف أبويا يروح يقوله !". وفى المجال الدينى سقطت كافة الفروق الاجتماعية، ولم يعد من الممكن التفرقة بين مقابر الأفراد العاديين ومن هم أعلى منهم كما كان سابقاً. وفى مجال السياسة ازداد نفوذ حكام الأقاليم، وازداد اتجاههم نحو الانفصالية، ولم يعد الملك قادراً على عزلهم ونقلهم، بل إنهم ورّثوا أعمالهم، وهذا يعكس المدى الذى وصلت إليه السلطة المركزية، بل إن التنافس والتنازع ساد بين حكام الأقاليم. وقد وصلتنا بعض المصادر التاريخية التى تعود إلى زمن الأسرة التاسعة، ومنها نص محفوظ فى متحف الإرميتاج فى مدينة لينينغراد. فى هذا النص ينصح الملك أختوس (سيتى الأول) (أشهر ملوك الأسرة التاسعة) ابنه ووريثه أن يكون متسامحاً مع الأمراء ولايعاقبهم بالموت، ولكن عليه أن يقضى على تمردات الشعب البسيط دون رحمة أو شفقة(٥).

الشاهد فى الأمر أن الثورة بدأت نظرياً إبان بناء الأهرامات الكبرى، ثم ظهرت نذرها العملية غداة تمرد النبلاء على الحكم الملكى فى الأسرة الخامسة، بالتحالف مع عامة الشعب المعدمة، حتى تفجرت شعبياً تفجراً شاملاً فى عهد آخر ملوك الأسرة السادسة، واتخذ التمرد الشعبى مظهر اعتناق عقيدة تخالف

---

(٥) نعيم فرح: موجز تاريخ الشرق الأدنى القديم، ص ٧٠.

العقيدة الحكومية، لتصبح الأوزيرية هى التعبير الأيديولوجى عن الثورة الشعبية.

كان تمرد النبلاء اعتماداً على ثورة الشعب وعقيدته الأوزيرية، مجرد مرحلة انتقالية من الحكم الثيوقراطى المطلق، إلى التمرد الشعبى الشامل، فبعد أن استتب الأمر للنبلاء فى أقاليمهم بدأوا يمارسون الضغط على الناس والإثراء على حسابهم، بعسف وإرهاب تجاوز ما لحق بهم من قبل، فاشتعلت الثورة وتحولت إلى تدمير لا محدود، وفى الغالب ارتبط بهذه التطورات حدوث نقص فى النيل وعجز الفيضان، وما ترتب على ذلك من مجاعة وهلاك، ثم فوضى ضارية[٦].

فانطلقت الناس المطحونة تحطم بلا تمييز لتنال من النبلاء والملكية على حد سواء، أى ضد كافة أنواع السلطة، حتى قطعت الجماهير الجائعة الطرق على الأثرياء فى كل مكان، واقتحمت عصاباتهم المسلحة أقدس الأماكن، حتى الأهرام لم تمنعها قداستها من التمرد، فاقتحموا على الموت سكونه، وسلبوا الراقدين فى سبات الأبدية ثروات أصبح الأحياء الجياع أولى بها من أموات ماتوا تخمة وشبعاً، وشجع ذلك على ظهور اتجاهات وميول فكرية أخذت جانب التشكيك ثم التمرد فالهجر التام لكل المقدسات.

ومع تطور أحداث الثورة انهارت الحكومة بكل أجهزتها ودواوينها ومحاكمها ونهبت ما فيها من سجلات ووثائق، وديست مجموعات القوانين بالأقدام، أيضاً هاجمت الثورة رجال الإدارة وتعرضت مكاتبهم للتدمير والسلب، وأحرق القصر الملكى نفسه.

---

(٦) فوزى الاخناوى: مصر الفرعونية دراسة عن دور الدولة المركزية فى التكوين الاقتصادى والاجتماعى المصرى، (دار الثقافة الجديدة، ط١، القاهرة ١٩٩٣م)، ص١٠٨..

وعجزت الدولة عن حفظ النظام وتركت الأقاليم نهباً للصوص وقطاع الطرق، وهجمات بدو الصحراء، وهجرت أعمال الزراعة، وانهار.الوضع الاقتصادى، وتوقفت جباية الضرائب، وأفلست الخزينة العامة، ونهبت المخازن الملكية، وانتشرت المجاعة، وتثبت الحفائر الأثرية المتعلقة بهذه الفترة - التخلى عن الاهتمام بالمدافن والجبانات وشيوع السلب لها، بل ونهبت قبور الملوك وحطمت رموزهم وأشار المؤرخ مانتيون إلى أن الأسرة السابعة تكونت من سبعين ملكاً فى سبعين يوماً، ويفهم من ذلك أنه تتابع على رأس السلطة فى فترة وجيزة سلسلة من المغتصبين قصار العمر من المحرضين الشعبيين أو من قادة الأقاليم(٧).

لقد رفضت الثورة نظام الحكم ورموزه وهياكله وآلياته، التى شملت تسلط النبلاء والآلهة القديمة، وأثرت الثورة على المفاهيم الاجتماعية، ومناهج التفكير وأدبيات الفترة التالية وشاعت فى الناس موجة من الشك والإلحاد وعدم الخوف من الآلهة.

لكن لم تستطع الثورة التحول إلى نظام اجتماعى اقتصادى جديد، أو ترسى علاقات اجتماعية متقدمة تاريخياً، بل اقتصرت على هدم الجهاز الحاكم القديم، مما أدى بها إلى أكل نفسها.بعد أن قضت على كل شىء، ولم يبق أمامها ما تأكله، ورغم أن هذا الحدث الهائل زلزل أركان المجتمع المصرى القديم، وأسقط الحكومة المركزية فقد استطاع الهيكل الاقتصادى الاجتماعى بشكل عام أن يصمد ويستمر قرونا أخرى من الزمان، وأن تفرض حقائق الجغرافيا السياسية والاقتصادية فى البيئة المصرية نفسها فترات طويلة.

---

(٧) فوزى الاختاوى: مصر الفرعونية دراسة عن دور الدولة المركزية، ١٠٩.

ولكن يمكن القول أن الإرادة الشعبية انتصرت على المستوى العقائدى، بجلوس أوزير على عرش رع، وأصبح معيار الفضيلة هو مدى التعامل مع الجماهير وفق الحق والصدق والعدل وأصبح هذا هو مقياس الحصول على الخلود من عدمه.

ولعل ذلك هو أخطر وأهم ما انتهت إليه أحداث الثورة من نتائج إيجابية، فأصبح الجميع يقفون - نظرياً - على قدم المساواة أمام المحاكم الإلهية، ليثبت كل أحقيته للخلود.

وكان لتوافق الصعود الأوزيرى كأيديولوجيا مصاحبة للخطوات الثورية آثاراً بعيدة المدى، فقد بدأ رع يتراجع أمام زحف أوزير حتى باتت محاربة العقيدة الأوزيرية معركة خاسرة، فبدأت متون الأهرام خطتها لاحتوائه، بإدراج أوزير وأسرته فى المجتمع المقدس.

وانتشر الاعتقاد بعودة أوزير من السماء لتخليص البلاد من البلاء فى هيئة ملك عادل، وشخصية واعية كان متحداً على الأرض وأنه جاء من السماء ليخلص الناس ويحكمهم بالمحبة والسلام.

وكان تعرض مقابر الملك والنبلاء للسلب والنهب والتدمير هو السبب الخفى لفكرة حساب أفراد الشعب بعد موتهم عن خطاياهم فى حق الآلهة والموتى، كذلك فإن ما تعرضت له المقدسات من نهب هو سر ظهور فكرة الخطيئة، وما تستدعيه من حساب ثم جزاء فى الآخرة (٨).

والمهم أن الدولة وكهنتها تمكنت بهذا التخريج من احتواء الديانة الأوزورية، كما تمكنت فى مرحلة لاحقة من تصفية الإصلاح الدينى لإخناتون، ليبقى دين الدولة الرسمى هو المهيمن على الحياة الفكرية والروحية لجماهير الشعب.

---

(٨) فوزى الاخناوى: مرجع سابق، ص ١١٠.

يمكننا القول أيضا أن عصر الثورة الاجتماعية الأولى هو العصر الوحيد فى التاريخ المصرى القديم، الذى صور فيه "الملك الإله أو المؤله" على أنه إنسان - شأنه شأن غيره من بنى البشر - يخطئ ويصيب، وهو العصر الوحيد الذى تجرأ فيه رجل - من رعايا الفرعون - على التشهير به، فقد سمحت روح الديمقراطية فى ذلك العصر، بأن يتقدم رجل من عامة القوم، ليقول بملء فيه فى حضرة " الفرعون الإله " بأن حكمه كان نموذجاً للفناء.

وفى ذلك العصر كان مسموحاً لأقل الناس فى أن يتقدم ويطالب بحقه، كما رأينا فى "بردية القروى الفصيح" الذى وجه إلى كبير الحجاب أشنع التهم، مطالباً إياه بتحرى العدالة ونصرة المظلوم، وينتهى الأمر إلى أن يكتب له النجاح فى مسعاه، وأن ينال حقه كاملاً.

وفى ذلك العصر، استطاع المصريون أن يكتشفوا أن القيم الخلقية العليا يجب أن تحل محل القيم المادية المحطمة، وهنا - كما يقول المؤرخ (جون ويلسون) يجب علينا أن نكيل المديح لمصر ؛ لأنها اقتربت كثيراً جداً من المستوى الأخلاقى الأعلى، بدلاً من التحسر على أنها لم تحقق "قدسية الفرد"، وبدلاً من أن نتباكى على أنها لم تصل إلى شىء يشبه ما نسميه "الديمقراطية " يجب أن نصفق لما حققته من نفع عام، لعدد أكبر من الناس، فقد وصلت مصر - أو كادت - إلى المناداة بأن لكل فرد حقه الشخصى فى معاملة عادلة، وذلك عام ٢٠٠٠ ميلاد المسيح عليه السلام، وقبل أن يولد الأنبياء "موسى" (حوالى القرن الثالث عشر قبل الميلاد "، ويوشع (يشوع) بقرون كثيرة وأجيال طويلة.

كان ذلك العصر (عصر الطريق إلى الديمقراطية) فالناس فى مصر فى هذا العصر - متساوون فى الواجبات، فالإله خلق كل إنسان مثل أخيه الإنسان، وجعل الهواء مشاعاً بينهم، كما جعل للفقير ما للغنى، من حق فى مياه الفيضان العظيمة.

وقد نادت أدبيات الثورة الاجتماعية الأولى فى مصر (حوالى القرن الثانى والعشرين قبل الميلاد) بأن الناس خلقوا متساوون بالفطرة، ومن ثم يجب أن يطبق "مبدأ تكافؤ الفرص" تطبيقاً عملياً، وأن يفتح الباب أمام كل المواطنين فى جميع المجالات، ومن هنا رأينا الملك الإهناسى - من ملوك عصر الثورة - ينصح ولده وخليفته على عرشه من بعده، بقوله:"لا تفرق بين ابن الرجل النبيل، وبين غير ابن النبيل، بل اتخذ لنفسك الرجل من أجل كفاءته".

الشباب والطريق للنهضة

وقد اهتم عصر الثورة الاجتماعية بالشباب، فهم الطليعة التى ستتولى أمر البلاد وتحمل المسئولية فى المستقبل، ومن هنا نرى الملك الإهناسى ينصح ولده بأن يهتم بالجيل الجديد، وأن يحسن تربيتهم، وأن يزيد من أتباعه منهم، ثم يوجه نظر ولده إلى أن بلاده مليئة بالشباب الغض فى سن العشرين، وأن هذا الشباب يمكن - إن أحسنت قيادته وتربيته - أن يكون درعاً يحمى حكمه، على أن يتم اختيارهم على أساس من كفاءتهم الشخصية وعلى أن يزودهم بحاجتهم من الأملاك والحقول والماشية، وهنا سوف يقدم له ربّ كل أسرة أبناءه، فيستطيع أن يكون منهم جيشاً، يسنده فى الخطوب

الجسام، فهم جيل لم تلوثه أدران الماضى، وفى استطاعته أن يستغل ضمائرهم النقية فى خدمة البلاد[٩]..

استمرت توابع هذه الثورة التى قلبت كل شىء رأساً على عقب حتى ظهر حاكم قوى فى طيبة وآخر فى أهناسيا، وجرى الصراع بينهما. كانت الغلبة لحاكم طيبة، الذى أسس الأسرة العاشرة، وقضى على الفوضى فى البلاد وأعاد للسلطة المركزية احترامها. ومرة أخرى يحدث ذلك بعد انتهاء الأسرة الثانية عشرة، ولاشك أن مرجعه الأساسى هو ضعف الحكومة المركزية، أضف إلى ذلك ظهور أعداء لمصر فى الشرق والجنوب. ولم يأخذ حكام العاصمة بتجهيز ما استطاعوا من قوة بل قاوموهم بالسحر والشعوذة، بينما كانت هجرات القبائل الأسيوية تزحف إلى مصر دون أن يدرى ملوك وحكام الحكومة المركزية[١٠]!.

وكان عهد حكم الأسرتين الثالثة عشرة والرابعة عشرة من العهود المظلمة فى مصر، فقد نشبت المنازعات الداخلية بين أمراء الأقاليم من جهة وبينهم وبين السلطة المركزية من جهة أخرى، فاضطرب الأمن واختل النظام ونشبت ثورة شعبية هزت مصر، جاء ذكرها فى نص أدبى تحت عنوان " نصائح إيبو صير". وإيبو صير هو أمير مصرى يظهر فى كلامه التحيز ضد الجماهير الشعبية (النص مكتوب على ملف من ورق البردى ومحفوظ فى هولندة، يعود إلى عهد الأسرة التاسعة عشرة من الدولة الحديثة، ولكنه منقول عن أصل سابق).

---

(٩) محمد بيومى مهران: الثورة الاجتماعية الأولى فى مصر الفراعنة (دار المعرفة الاجتماعية، القاهرة ١٩٩٩م) ص، ١٨.

(١٠) المرجع السابق، ص١١١.

يتحدث الأمير إيبو صير قائلاً: "إن العبيد والفقراء قد ثاروا ضد الأمراء والأغنياء، وراحوا يقتلون أولادهم أو يفجون رؤوسهم بالحجارة، ويتابع قائلاً: إن الذين لم يملكوا فى السابق الثيران للفلاحة، أو بيوتاً للسكن، أو قارباً للنقل، قد أصبحوا الآن يملكون قطيعاً وقصوراً، وأسطولاً. كذلك نهبت صالة المحكمة ووثائقها، وتبعثر الجهاز الإدارى، ومزقت قوائم الضرائب، وقتل الموظفون، وخطفت أوراقهم، وهوجم القصر الملكى".

ولكن الأخبار الواردة فى هذا النص الأدبى ليست منظمة، ولا تشير إلى مكان وزمان تلك الثورة الشعبية بالتحديد، ولا إلى اسم الفرعون الذى وقع فى أيدى المتمردين. غير أن هذا النص يترك انطباعاً أن الدولة تعرضت لهزة اجتماعية عميقة، ولكن الثورة الشعبية كانت عفوية، وغير منظمة وبالتالى لم تستطع أن تحقق انقلاباً اجتماعياً كاملاً[١١].

وفى عصر الدولة الحديثة التى استمرت أكثر من خمسة قرون (من ١٥٨٤إلى ١٠٧١ق. م) تميزت مصر بتحولات كبيرة فى جميع المجالات وهزات اجتماعية أثرت على صغار الفلاحين فيضطرون للحصول على القطيع والبذور من خزينة الدولة، ويتحدث مصدر تاريخى عن إلقاء القبض على أحد الفلاحين، وضربه بقضيب من قبل الموظف لأنه لم يستطع تقديم الحبوب المفروضة عليه بينما يهرب جيرانه خوفاً من أن يجبروا على تقديم الضريبة المفروضة على ذلك الفلاح، وهكذا تزداد الفروق الطبقية ويزداد معها ظاهرة المقاومة السلبية والهروب من الأرض[١٢]. و جاء حين من الدهر

---

(١١) نعيم فرح: موجز تاريخ الشرق الأدنى، مرجع سابق. ص ٧٥.
(١٢) نعيم فرح: موجز تاريخ الشرق الأدنى القديم، مرجع سابق، ص ٨٠.

اضطربت فيه أحوال مصر فى عصر الاضمحلال الثانى أو العصر الوسيط الثانى (من حوالى ١٧٨٥ق.م إلى ١٥٦٠ ق.م)، وكان من نتيجة هذا الاضطراب هو احتلال مصر عسكرياً عندما سال لعاب البدو الرعاة الذين كانوا يعيشون فى الصحارى والسهول الآسيوية بشرق البلاد ولهذا فقد ازدادت فى البداية أعداد الوافدين والمتسللين من هؤلاء الرعاة، ثم جاءت بعدهم جحافل وقبائل متعددة فرضت وجودها بالقوة العسكرية عام (ق.م)، وهى جماعات أطلق عليهم اسم (حقاو ـ خاسوت) بمعنى (حكام الأقاليم الأجنبية)، وذلك للمرة الأولى فى تاريخها، وهم الجماعات الذين اشتهروا فى التاريخ باسم (الهكسوس) أو (الرؤساء الأجانب) أو (الملوك الرعاة) طبقا للترجمة الحرفية لكلمة هكسوس. ليقيموا ما يقرب من ٢١٦سنة على أرض مصر[١٢].

مصر والهكسوس.. قضية مصير

وبدأ الناس الطيبون ـ أجدادنا ـ فى مصر يتهامسون وهم ينزوون فى أركان بيوتهم بعد أن رأوا جحافل العدو قد اقتحمت أمان ديارهم يمتطون أشياء جديدة جداً عليهم.. إنهم يخطفون البصر فوق مركباتهم التى تجرها الخيول.. ماذا؟ الخيول ؟.وما معنى الخيول ؟ إنه جمع حصان. وماذا يعنى الحصان؟ إنه حيوان أكبر وأرشق وأقوى وأسرع من الحمار.

فحتى هذه اللحظة لم يكن المصريون قد عرفوا الحصان. إنه شىء جديد فى حياتهم. ولم يكن الذعر تملك العامة من العربات الحربية السريعة جداً التى تشق صفوف محاربينا فحسب. وإنما

(١٢) ناصر الأنصارى: المجمل فى تاريخ مصر النظم السياسية والإدارية (دار الشروق، القاهرة ١٩٩٧م)، ص٣٥

كان أيضاً من الأسلحة الحديدية والبرونزية الجديدة. إننا حتى هذه اللحظة نعرف أسلحتنا النحاسية فقط. ولم تتوقف المفاجأة عند هذا الحد.. إنما تبعتها قسوة العدو وتعداده الضخم الذى أخذ يتسرب كالوباء، إن عدده أصبح ٢٤٠٠٠٠. ويا له من عدد زحف على أرضنا كالجراد. أهلك كل شئ.. لا يترك حرثاً ولا خضرة إلا أتى عليها.. يابساً إلا دمره.. حياً إلا حوله إلى شعلة من نار وعدم!!.

وبدأت العيون تتحدث. إن الهكسوس.. لم يقدروا على غزو الصعيد. فرضوا عليه الضرائب والجزية فقط. إنهم ركنوا إلى عاصمتهم الجديدة فى شرق الدلتا. ولها أكثر من اسم يذكره التاريخ. فهى "حت وعرت" أو "افاريس" التى حولها رمسيس الثانى وبنى هو والرعامسة من بعده على أنقاضها عاصمته "برعمس" ثم "تانيس" ونسميها الآن "صان الحجر" على بعد ٩٠ دقيقة من الزقازيق حيث تقع على مشارف شرقها الشمالى[١٤].

فبعد استقرار الهكسوس فى دلتا مصر لم يلبث المصريون الأقدمون الذين يجرى فى عروقهم الدم المصرى الذى لا تشوبه شائبة أجنبية أن رجعوا لأنفسهم يتهمونها بالجبن والتفريط فى حق الوطن مما أدى إلى سريان الحمية فى نفوسهم وإذكاء نار الحماسة فيهم فثاروا على الأجنبى المغتصب، لكن شتان بين الهكسوس الأجلاف المخشوشنين والمصريين المترفين، ومع هذا فقاتلهم المصريون حتى خانهم المجال فوطئتهم العربات الحربية - المصنوعة من الحديد والبرونز والتى تجرها الخيول - هذه النوعية من

(١٤) أندريه نورتون: صقر الحرية أول ثورة فى التاريخ ضد الاستعمار(ترجمة كمال الملاخ، مؤسسة سجل العرب، القاهرة ١٩٦٠م) ,ص١٢

التسليح لم تكن معروفة بعد فى مصر و التى جاء بها الهكسوس أول مرة فلم يتعود المصريون لقاءها فى حروبهم قبل ذلك.

ولما تم للهكسوس إخضاع مصر الثائرة بعد أن ابتلعوها، وظنوا أنهم قادرين على هضمها ألقوا السلاح جانباً وركنوا إلى حياة الدعة والترف ونشّأوا أبناءهم تنشئة غير تنشئتهم، فشبوا فى أحضان النعيم وبدأ الهكسوس يقلدون المصريين فى عاداتهم وطرق حياتهم، ويعتنقون الثقافة المصرية، بل ويؤمنون أيضا بالديانة المصرية حيث جعلوا عبادة الإله المصرى (ست) وهو إله الشر هى الديانة الرسمية للدولة التى أقاموها فى الدلتا والتى اختاروا لها أرض الشرقية لتكون مركزا للحكم،ومن ثم فقد فقدوا مع الترف كثيرا من صفات آبائهم العسكرية.أما المصريون الذين غلبوا على أمرهم وقد حرموا مما كانوا فيه ينعمون، فاخشوشنوا مضطرين وأتقنوا صنع العربات الحربية وتدربوا على الكر والفر، وبدأ المصريون يرفعون رؤوسهم بعد طول تنكيس، وتذكروا ملكهم المسلوب فاجمعوا أمرهم على طرد المغتصب الدخيل... وتمر الأسرة الخامسة عشر، كثيفة البال.. تحت سحب الهزيمة. ومن بعدها الأسرة السادسة عشر.. ويحكم القطاع الذى استعمروه ٣٢ من ملوكهم.. ووطأة الضرائب وخزى عار الانكسار يئن منهما كل مواطن مصرى حر شريف. وما أكثر الأحرار فى بلدى.. إنهم يبحثون عن بطل!.

تأتى الأسرة السابعة عشرة.. وكأنها الضربة الثالثة لمسرحية الأمل.. الأمل فى الانقضاض على العدو فى الجناح الشرقى. بدأ ظهور حكام مصريين يجرأون على أن يسموا أنفسهم ملوكاً.يضعون قبل أسمائهم ألقابهم الفراعنة. إذن هى بادرة القوة بدأت تتفتح...

ولكن حكام المستعمر كانوا يحكمون فى ذات الوقت الأرض التى انتزعوها بحد السيف وبالارتكان إلى الخيانة والضعف والتفكك. وقيل إن ملوكهم بلغوا ٤٣ حاكماً وقتها فى هذه الأسرة التى أصبح نصفها الثانى مسرحاً لمعركة التحرير.. وبدأ المصريون يزمجرون... وبدأت الثورة وحروب التحرير وطهر المصريون أرضهم من الاحتلال الأجنبى.

شمس مصر تغيب ولكن لا تموت

وتتكر الزمان لمصر الإمبراطورية فى أخريات الحكم الفرعونى؛ وأنفذ حكمه الثابت:"لابد لكل صعود من نهاية " وتهيأ قمبيز الفارسى لغزو مصر، وتحقق له ما أراد، ولكن المصرى الذى عرف معانى الحياة الأصيلة ظل ينظر إلى هؤلاء الغزاة فى حكمة وفهم: فهو يعرف أنهم زائلون، فإن تخلف عنهم أثر من حكم حاربه وثار ضده بأسلوبه وطريقته، فإن لم ينفع هذا الأسلوب، وقل أن يخفق - استعمل أسلوب الذين يقلون عنه حضارة؛ أسلوب السيف والمدفع، وعندها يبدو فى صورة المقاتل الذى لا يشق له غبار أو الثائر الذى كالأعاصير التى تقلب وتحطم(١٥) ولذلك تبدلت سياسة الفرس فى مصر من القسوة إلى اللين، فألغيت مصادرة إيرادات المعابد، وتم العمل بموجب القوانين المصرية، ولكن مهما يكن من أمر فإن المصريين لم يستكينوا للاحتلال الفارسى، خاصة بعد انهزام الجيش الفارسى فى معركة سهل الماراتون الشهيرة سنة ٤٩٠ ق.م. فنشبت ثورة شعبية كبرى ضد الوجود الأجنبى فى مصر سنة ٤٨٦ ق.م. ومات دارا بن قمبيز قبل أن يتمكن من القضاء عليها، ولكن

---

(١٥) فتحى رضوان وآخرون: كفاحنا ضد الغزاة (مكتبة النهضة المصرية، القاهرة ١٩٥٧م)، ص ٤٠٤.

ابنه كزركسيس توجه إلى مصر وقضى على الثورة الشعبية فيها تحت وطأة الآلة العسكرية، وقد ساعده اليهود المقيمون هناك ضد المصريين.

ثم قامت ثورة أخرى فى مصر سنة ٤٦٠ ق.م. بقيادة أمير مصرى يدعى "أمون - حر"، وساعده اليونانيون بأسطول أرسلته أثينا، واستطاع "أمون - حر" طرد الفرس وتأسيس سلالة حاكمة هى الأسرة الثامنة والعشرون(١٦).

هذا فى عصر الفراعنة بينما كانت أول الثورات المصرية ضد البطالمة أثناء حكم بطليموس الثانى، حيث قام المزارعون بعمل اضطرابات وامتنعوا عن العمل وفروا واحتموا فى المعابد المصرية، وازدادت هذه الاضطرابات تدريجياً حتى وقعت أول ثورة مصرية فى عهد بطليموس الثالث. لكن المذكور الوارد عنها قليل محدود(١٧).

وفى عهد بطليموس الرابع حدث أن اضطرت مصر إلى مواجهة الخطر المحدق بها من الشرق فقام وزيره سوسيبيوس بجمع الأموال اللازمة للاستعداد لمحاربة أنطيوخوس الثالث، وذلك بأن رفع بعض الضرائب وإيجارات الأراضى الملكية بوجه خاص وفرض ضرائب جديدة، وترتب على ذلك أيضاً تقوية العنصر الإدارى وتنظيم العلاقات بين الموظفين المسئولين عن جمع الضرائب تنظيماً دقيقاً.

والاستعداد العسكرى واكب ذلك حيث إن الوقت ضيق وقليل ولابد من تكوين جيش قوى قادر على مواجهة أنطيوخوس الثالث.

---

(١٦) نعيم فرح: موجز تاريخ الشرق الأدنى القديم، ص٩٤ .

(١٧) محمد فهمى عبد الباقى وآخرون: المجتمع المصرى، أصل المصريين (مطبوعات كلية الآداب، جامعة القاهرة، القاهرة ٢٠٠٥م.)، ١٧٥.

فاضطر الوزير سوسيبيوس وبطليموس الرابع إلى تجنيد المصريين فى الجيش البطلمى لأول مرة، وأقبل جند مصر، وأخذوا مكانهم فى المعسكرات، وبدأ التدريب، فلم تمض أشهر حتى استقامت منهم فرقة تبلغ العشرين ألفاً، كانوا هم قلب الجيش المدافع وصخرته التى تتحطم عندها مطامع العدو.وفى الثانى والعشرين من يونيو سنة ٢١٧ قبل الميلاد، التقى جيشان فى ميدان فسيح جنوبى رفح، وبدأت المعركة وانقض أبناء مصر على خصوم مصر انقضاضة يعرفها التاريخ فيهم، وحمى الوطيس واشتد الطعن فإذا المقاتل اليونانى يولى طالباً النجاة، وإذا بهؤلاء المصريين الذين يضعون السيوف فى قفاه بين دهشة وإعجاب الدنيا كلها، وإذا بهؤلاء المصريين الذين أقبلوا من بيوتهم منذ قليل يهزمون سادة الميدان هؤلاء وكان لا ينازعهم فيه خلال هذه القرون كلها منازع[١٨].

ونجح بطليموس الرابع فيلوماتور فى كسب الحرب، كسبها على أكتاف المصريين وكان هذا الانتصار سبباً فى تحرك مشاعر الوطنيين المصريين وامتلأت نفوسهم ثقة وقوة حيث أثبتوا بانتصارهم أنهم أجدر وأقوى من الإغريق الذين بطشوا بهم وقللوا من قدرهم وأخذوا ينظرون إلى البطالمة ومن التف حولهم نظر العزيز المنتصر الذى كسب فى يوم واحد ما خسره فى عشرات السنين، وشعر البطالمة واليونان أن هذا شعب له خطره، وأن فيه من القوى ما هو جدير بأن يرفعه إلى المقام الأول بين الأمم. ولكن كيف ؟ كيف يمضى الجنود من غير قائد؟ وكيف ينهض الشعب من غير رائد؟. هذا فيلوماتور لا يكاد يدرك النصر حتى يعود سيرته

(١٨) حسين مؤنس: صور من البطولات العربية والأجنبية. (دار الرشاد، ط١ القاهرة ١٩٩٣م.) ص ٨٢.

الأولى: خمر وعبث، وهذا وزيره سوسيبيوس يتخوف نهضة هؤلاء المصريين ويتوقع قيامهم فى وجهه كلما أراد أن يعود إلى سيرته الأولى فيهم، فهو يهملهم ويتوقاهم كأنهم عدوّ يُتَّقى[19].!. فاندلعت ثورتهم من بعد انتصار رفح مباشرة فى عام ٢١٦ ق.م. بدأت الثورة فى الدلتا وامتدت إلى مصر، ومصر العليا، ولم يستطع البطالمة القضاء عليها إلا عام ١٨٤ / ١٨٣ ق.م. عندما وقعت سايس فى قبضة بطليموس الخامس الذى مثل بالزعماء المصريين أفظع تمثيل بعد أن أمنهم على حياتهم ليشجعهم على التسليم، ولا شك أن هذه الثورة هزت الحكم البطلمى، وكشفت عن طابعه، حيث إن المصريين جميعهم اشتركوا فيها فيما عدا القليل منهم وكل المعابد، فيما عدا قليلاً، ساهمت فى الثورة ولم يرحم الثوار كل من لم يساهم ويشترك فى الثورة والمتعاونين مع البطالمة ويظهر ذلك من البردى وحجر رشيد[20].. وتحدثنا الوثائق البردية بأن المصريين الثائرين لم يكتفوا بتحطيم ممتلكات الأجانب، وإنما اعتدوا أيضاً على منازل بعض الوطنيين وعلى بعض المعابد وأعملوا فيها التخريب، وفسر بعض المؤرخين الغربيين هذه التصرفات من جانب الثوار واعتدائهم على إخوانهم المصريين، وفى هجومهم على الكهنة الوطنيين وعلى المعابد ؛ دليلاً على أن الدوافع إلى قيام هذه الثورة لم تكن دوافع قومية، تستهدف الاستقلال بالبلاد وطرد ملوكها الأجانب وإلا اشترك فيها المصريون جميعاً وفى مقدمتهم رجال الدين، ويعتقدون أنها ثورة اقتصادية اجتماعية لتخفيف القيود الاقتصادية الصارمة أو انها أقرب ما تكون لثورة جياع.

(١٩) حسين مؤنس: مرجع سابق، ص ٨٣.
(٢٠) محمد فهمى عبد الباقى وآخرون: المجتمع المصرى، أصل المصريين، ص ١٧٧.

ولكن هؤلاء المؤرخين الأجانب تجاهلوا أن الثورات القومية فى كل زمان ومكان لا تسلم من أصحاب النفوس المريضة المتعيشة والمنتفعة من الأنظمة الفاسدة، فيصبحون من دعاته، وينسون مصالح أوطانهم فى سبيل مصالحهم الذاتية الزائلة.[٢١] ولا نستبعد أن هؤلاء المصريين الذين هاجمهم الثوار كانوا من هذا الطراز الآثم فى حق مصر، فتنكبوا طريق الحق، وتخلفوا عن مسايرة ركب الثورة، ومن ثم نالوا جزاءهم على أيدى مواطنيهم الثوار. ويبدو أن الثورة الشعبية كانت أعنف ما تكون فى صعيد مصر وفى منطقة طيبة بالذات، فقد عثر هناك على وثائق مؤرخة باسم ملكين نوبيين حكما منطقة طيبة بين عامى ٢٠٦، ١٨٦ق.م. مما يشير إلى أن هذا الإقليم المصرى الكبير قد استقطع من أملاك البطالمة، واستقل به ملوك قدموا إليه من الجنوب، ويؤيد ذلك أيضاً أننا لا نجد وثائق ما يدل على أن الحكومة البطلمية كانت تجبى الضرائب من منطقة طيبة بعد العام السادس من حكم الملك بطليموس الرابع (٢٠٦ ق.م)[٢٢].

وقد راجت فى أثناء هذه الثورة تكهنات كثيرة تبشر بقرب انتهاء حكم الأجانب المقدونيين وعودة البلاد إلى أبنائها الوطنيين، ومن أشهرها تكهن صانع الفخار الذى يكشف عن بغض عظيم لمدينة الإسكندرية - معقل البطالمة - ومقت شديد للأجانب عامة، ويحدثنا بأن مصرياً وطنياً سوف يحكم البلاد ويحررها من مغتصبيها الأجانب ويعيد العاصمة إلى منف كما كانت فى أيام المصريين القدماء[٢٣].

---

(٢١) محمد عواد حسين وآخرون: كفاحنا ضد الغزاة (منشورات وزارة الإرشاد القومى، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة ١٩٥٧م)، ص ١٠٠.

(٢٢) محمد عواد حسين وآخرون: المرجع السابق، ص ١٠١ .

(٢٣) كفاحنا، مرجع سابق، ص ١٠١.

وقاوم بطليموس الرابع هذه الثورة العارمة بكل قواته العسكرية حتى استطاع آخر الأمر أن يخمدها بعد أن كابد خسائر فادحة فى الرجال والأموال، ولكنه عجز عنْ إخماد روح الوعى والمقاومة المتأججة فى صدور الثوار المصريين أنفسهم.

إن الثورات المتكررة فى المجتمع المصرى طوال تلك الحقبة الباحثة عن كرامة إنسانية بعثرها مستبدّون كبار وصغار كانت ستحدث حتى فى ظلّ غياب اتفاق مسبق، لأن حالة الوعى الجمعى التى تحقّقت فى عهد البطالمة بعد انتصار رفح والتى تمكّنت من رؤية أهدافها بوضوح كانت ستبتكر فى استخدام أيّة وسيلة متاحة. إنّ هذا الوعى الجمعى المتحرّك الذى يدفع إلى تحديد الأهداف وإيجاد حالة من الإجماع عليها هو الذى يضمن تكرار حالة الثورة مهما بلغ ظلم الظالمين ومهما تعقّدت وسائل الاتّصال أو تيسّرت وهو ما نجده فى الثورات المصرية الشعبية التى تأججت بعد أن اعتلى بطليموس الخامس عرش مصر فالتفت بطانة فاسدة حوله وامتلاء البلاط بالدسائس والمؤامرات فكانت فرصة استثمرها المصريون لمواصلة ثوراتهم فى سبيل التحرر من الحكم الأجنبى البغيض الفاسد فاشتعلت الثورة فى الإسكندرية نفسها وهى عاصمة البطالمة عصر ذاك وترنحت الحكومة المركزية وفقدت توازنها وجاءت قراراتها القمعية بنتائج عكسية ولم يلبث لهيب الثورة أن امتد إلى أنحاء الدلتا حيث ضاق المصريون بضروب الفساد والقمع والعسف والاضطهاد التى أثقلت كواهلهم، أما فى أعالى الصعيد فقد بقى إقليم طيبة مستقلاً عن البطالمة يحكمه ملك نوبى يدعى (عنخماخيس)

ومع ذلك، فإنّ ثورات مصر فى تلك الحقبة المبكرة من تاريخها القديم عرفت نوعا من "القيادة الغائبة"، التى تتشكل من تجمّع غير متماسك من الثوار وكان الهدف الأوّلى الذى وحّدهم يكمن فى الرّغبة العارمة فى الحرية، وفى رفع مستوى الحياة - بمعناه الأوسع - للأغلبية العظمى من المصريّين. وكان القاسم المشترك بين هؤلاء الثوار أيضاً مستوى الانضباط والمثابرة والمقدرة على إرساء أشكال تنظيم عصرى بهدف تحقيق مطالبهم، فكانوا متحرّرين من الانقسام العقائدى والأنانيّة. وقد ارتضى هؤلاء القادة الشعبيين المساومة حالما تطلّبت المتغيّرات على الأرض ذلك، فيما لم يغبْ أبداً عن أنظارهم هدفهم الرئيس.

وحاول بطليموس الخامس إصلاح الأمور واستمالة الثوار إليه، لعلهم يركنون إلى شىء من الهدوء، فأصدر قراراً ملكياً عفا بموجبه عن الثوار بوجه عام، وعن الجنود المصريين بوجه خاص، وأغدق على المعابد والأهالى كثيراً من المنح والهبات، فألغى بعض الضرائب، ونزل عما له من ديون متأخرة قبل السكان، وأطلق سراح مسجونى الرأى وأعطى الهاربين الأمان، وسمح لهم بالعودة إلى ممتلكاتهم.[٢٤] ولكن استمر المصريون فى ثورتهم العارمة، واتضح أن مدينة أبيدوس بصعيد مصر أصبحت مركزاً لها، فاضطر الملك إلى محاصرتها بقواته المقدونية والإغريقية فى العام السادس من حكمه واستبسل الثوار فى وجه جيش منظم يحمل أحدث الأسلحة وأمضاها فانتصروا عليه وردوه على أعقابه دون أن يتمكن من دخول المدينة الثائرة.

وكان لهذا النجاح الذى أحرزه أبناء الصعيد صدى قوى بين أبناء الدلتا، فاندلعت نيران الثورة الشعبية، لاسيما فى مدينة ليكوبوليس التى لاقت حصاراً مريراً من قوات بطليموس الخامس ولكنها رغم

---

(٢٤) المرجع السابق، ص ١٠٤

البطش ظلت مصدر قلق وما برح الثوار بتخريب المنشآت الحكومية مما أجبر بطليموس الخامس إلى اللجوء إلى أساليب اللين مرة أخرى عله يظفر من المصريين بالرضا، فأصدر أوامره إلى رجاله وموظفيه بضرورة حسن المعاملة مع المواطنين والتزام جانب العدالة مع المواطنين، وطلب مثول الموظفين المتهمين بالفساد والعسف أمامه مباشرة، ولكن هذه المحاولة ذهبت هى الأخرى أدراج الرياح فقد اشتدت المقاومة السلبية عنفاً وتمخض ذلك كله عن تدهور سياسى واقتصادى فى كيان الدولة البطلمية [٢٥].

وهذه دولة البطالمة كلها فى انحدار، ولن يلبث البيت البطلمى نفسه أن يتفرق، وفى عهد بطليموس السادس حاول المصرى "ديونيسيوس بتوسيرابيس" (الذى كان يشغل فى القصر منصباً رفيعاً هيأ له فرصة الوقوف على كثير من خفايا القصر وأسراره). أن يستغل الشقاق الموجود فى القصر الملكى، وقاد ديونيسيوس بتوسيرابيس المصريين عام١٦٤ / ١٦٥ ق.م. حيث كان له خبرة حربية متقدمة نظراً لاشتراكه فى الحرب ضد أنطيوخوس، وخبيراً بنفسية المصريين، حيث استغل فرصة النزاع بين بطليموس السادس فيلومتور باستثارة السكندريين ضد بطليموس الصغير، فخيب فيلومتور آماله، وأفسد خطته، فهرب إلى ضاحية قريبة من الإسكندرية وهى اليوسيس (الحدرة) والتف حوله جند مصريون فى أغلبهم وانهزم ديونسيوس وانسحب ولم يجد سبيلاً إلى التراجع إلا بالسباحة عبر فرع النيل الكانوبى (فرع رشيد) عارى الجسد على حد قول المؤرخ الصقلى ديودور[٢٦]. وقاد بطليموس فيلومتور حملة

(٢٥) كفاحنا ضد الغزاة، مرجع سابق، ص ١٠٦.

(٢٦) محمد عواد حسين وآخرون: مرجع السابق، ص ١١٢

ضخمة تمكن رشيد بها من إخماد الثورة فى طيبة وقاومته ببسالة مدينة بانوبوليس المصرية (إخميم). التى حولها الثوار إلى قلعة اعتصموا بداخلها، وظلوا يناضلون قوات الملك المهاجمة فى بسالة منقطعة النظير، ولم تستطع هذه القوات اقتحام المدينة إلا بعد أن ذاقت الأهوال على أيدى الثوار المصريين.

نتيجة هذه الثورات انعكست على الزراعة حيث قلت الأيدى العاملة بها وقلت الماشية فتأثرت الزراعة إلى حد كبير وخرجت المرأة المصرية لتقوم بمهام الرجل فى رعاية الأرض، وتأثرت الصناعة والتجارة، ولتخرج الحكومة من هذه الأزمة حاولت تحميس المتيسرين على الزراعة لكنها لم تجد بداً من أن تجبر الجميع على المساهمة فى زراعة الأراضى المهجورة وكان الإجبار سلاحاً خطيراً يخافه الأهالى وتعمل الحكومة على التخفيف من آثاره ونجحت الحكومة إلى حد ما فى التقليل من الأراضى المهجورة أحياناً فى مقابل ملء نفوس الأهالى بالكراهية والتذمر من القائمين بالأمر[٢٧].

وترتب على ذلك بالتالى نقص الضرائب فضغطت الحكومة على الملتزمين الذين بدورهم ضغطوا على دافعى الضرائب واستخدموا كل الوسائل المشروعة وغير المشروعة، الشريفة والقذرة، فى امتصاص دماء الناس وحاول دافعو الضرائب رفع الظلم عنهم بالاتصال برجال الإدارة المحلية، فلم تنفع فرفعوا شكواهم إلى أعلى سلطات الملك ووزير المالية، ورغم ذلك لم يفعلا شيئاً - كعادة الملوك قبلهم وبعدهم ! - لأن الضغط منهما لاحتياجهم إلى المال.

---

(٢٧) محمد فهمى عبد الباقى وآخرون: المرجع نفسه، ص ١٧٨.

هكذا تدهورت الحالة الاقتصادية والدليل على ذلك ازدياد قيمة العملة الفضية وقلة تداولها بين الناس فأصبحت النسبة بين قيمة العملة الفضية والعملة البرونزية ١ : ٥٠٠، وترتب على ذلك ارتفاع أسعار المواد الغذائية والمصنوعات والأجور ومع ذلك استمرت الحكومة تدفع التزاماتها بالعملة المنخفضة وبمعدل لا يتناسب وقيمتها الحقيقية.

وفى عام ١٣٢ / ١٣١ ق.م. انقسم البيت المالك بين كليوباترة الثانية وبطليموس السابع، وانقسم الناس فريقين ؛ فريق يؤيد كليوباترة الثانية، وهم مواطنو الإسكندرية، أو جزء من إغريقها على الأقل واليهود، وجزء من الجيش والباقى وقف مع بطليموس السابع، واندلعت ثورة أصبحت مزيجاً من الحرب الأهلية بين الفريقين المتصارعين والشعب، وأخذت ثورة المصريين فى الوجه البحرى ومصر الوسطى شكل الإضراب العام عن العمل والاعتصام بالمعابد وهجر المزارع والمصانع، على حين كانت فى الصعيد قتالاً سافراً تجلت فيه روح المقاومة الشعبية ضد الحكم البطلمى. ولم تتوقف الثورة حتى بعد صلح كليوباترة الثانية وأخيها سنة ١٢٤ق.م.؛ لأن المصريين لم يثوروا انتصاراً للملك الهارب أو لأخته المتربعة على العرش، إنما ثاروا من أجل حريتهم وكرامتهم التى سعى البطالمة إلى القضاء عليها.

وتدل الوثائق التاريخية على أن بطليموس السابع استعمل العنف فى إنهاء الثورة والعصيان المدنى الذى قاده ثوار مصر ثم استعمل السياسة واللين أيضاً حيث أصدر سلسلة من قرارات العفو فى عام ١١٨ ق.م. لعلاج أسباب الثورة والقضاء على الثورة وأسبابها[٢٨].

(٢٨) محمد فهمى عبدالباقى واخرون: مرجع سابق، ص ١٧٩.

وقد تجددت الثورة فى عهد بطليموس الإسكندر (التاسع) بسبب الصراع على التوريث بعد وفاة بطليموس السابع لأنه لم يحسم أمر وراثة العرش، وامتلأ البلاط بالدسائس والوشايات فما لبثت أن اشتعل لهيب الثورة الشعبية فى قرى الفيوم حيث هاجموا دور الحكومة واعتدوا على الموظفين المحليين، كما تحدثنا الوثائق البردية عن وقوع ثورة عارمة وعنيفة ويبدو أن "طيبة" كانت مركزها وكانت معقلاً للحركات الشعبية الثورية لبعدها عن مقر السلطة الحاكمة، ولبقاء التقاليد المصرية القديمة فيها قوية وسليمة بعيدة عن كل أثر أجنبى[٢٩]، حيث رأى بطليموس سوتير الثانى (الثامن) أن الطريقة المُثلى للقضاء على الثورة هو تخريب مدينة طيبة تخريباً تاماً وخطيراً، لأنها كانت مركز الثورات وذلك بعد ثلاث سنوات من الحرب بين الطرفين.

ولم يؤد تخريب مدينة طيبة الهدف المطلوب منه وهو القضاء على ثورات المصريين كليةً. حقيقة تخريبها قلل من الثورة المصرية لكنه لم يقض على ثورات المصريين، فقد تجددت الاضطرابات والمشاغبات فى أعوام ٧٩ / ٧٨ ق.م. وفى أعوام ٦٤ / ٦٣ ق.م. وأخيراً فى عام ٥٨ ق.م..

ولم يحقق المصريون ما كانوا يهدفون إليه من ثوراتهم من طرد الإغريق وأن يكون حاكمهم مصرياً وطنياً مخلصاً. والسبب فى ذلك يعود إلى أن القوات البطلمية امتازت عليهم بالنظام والعُدد والأموال. ولقد ثبت فى حالة الثورات المصرية أن من الصعب الاستيلاء على الحكم من دون انشقاق الطبقة الحاكمة، أو انضمام الجيش أو قسم منه على الأقل إلى الثوار. وحيث لم يحصل ذلك

---

(٢٩) محمد عواد حسين وآخرون:المرجع السابق، ص ١٢١.

ظلت السلطة قلعة حصينة مسلحة وعصية على الاختراق، مهما غادرها بعض موظفيها ومسؤوليها، وأدى ذلك إلى تحول الثورة إلى حركة مسلحة والاستعانة بالتدخل الخارجى خاصة أن المصريين لم يكونوا موحدى الاتجاه فكان فريق منهم متعاوناً مع البطالمة بإخلاص سعياً وراء تحقيق مصالحهم الشخصية، ولكن نجح المصريون فى إرغام البطالمة على النزول من عليائهم وصلفهم، وأجبروهم على النظر إليهم نظرة جديدة فى العصر البطلمى الثانى[٣٠]. وأخذت دولة البطالمة تتهاوى سريعاً بعد ذلك، فقد قوضت دعائمها تلك الثورات الشعبية المتصلة، وأنهكت قواها الغزوات الخارجية المتلاحقة، فضلاً عن التدخل الرومانى الذى أخذ يتزايد بصورة واضحة حتى غدا الملوك البطالمة مجرد أدوات فى أيدى الساسة الرومان ومجلس الشيوخ الرومانى.، لاسيما الملك بطليموس "الزمار" الذى لم يستطع الاحتفاظ بعرشه إلا مستنداً ومستقوياً بالقوة العسكرية لروما. ليغيبه الموت ويترك العرش لأبنه بطليموس الثانى عشر مشتركاً مع أخته كليوباترة التى حاولت بكل السبل أن تعيد إلى دولة البطالمة سابق مجدها فباءت بالفشل واضطرت إلى الانتحار لتجنب نفسها مرارة الوقوع فى أسر الرومان لتصبح مصر كسائر أقطار البحر المتوسط ولاية رومانية فى أغسطس ٣٠ق.م.

رغم ذلك لم يفقد المصريون طيلة ثلاثة قرون من الحكم البطلمى إحساسهم القومى وقدرتهم على الثورة والرفض: ثورة ٢١٣ ق.م، ١٨٩ـ ١٨٤ ق.م، ثورة طيبة ٨٥ق.م التى لم تخمد إلا بعد أن خرب البطالمة المدينة العتيدة ذات المائة باب.

---

(٣٠) نفسه، ص ١٨٠

وبوجه عام كانت سيطرة البطالسة سيطرة سياسية فى المحل الأول، وظل المصريون طيلة ذلك العصر يعيشون كما كان يعيش أجدادهم، محتفظين بعاداتهم وتقاليدهم ولغتهم وآلهتهم، ويخضعون لقوانينهم، ولم يحدث انفصام عن تاريخهم، واستمر ظهور الزعامات المصرية الوطنية التى تقود نضالهم، وفى الاقتصاد لم يحدث تغيير فى نمط الإنتاج، وظل المشترك القروى المصرى هو المصدر الأساسى للفائض الاقتصادى، وعندما انفصل المصريون عن كنيسة القسطنطينية، وكونوا كنيسة مصرية هى الكنيسة القبطية ومقرها الإسكندرية، استبدلوا اليونانية التى كانت لغة الثقافة ولغة الكنيسة أيضاً باللغة القبطية[٢١].

الرومان فى مصر

ومن العصر الرومانى يصل إلينا منشور أصدره الوالى أفيليوس فلاكوس فى عام ٣٥/٣٤ محرماً فيه على الأهالى حمل الأسلحة أو إحرازها، وهدد فيه المخالفين بعقوبة الموت. هذا المنشور يشير إلى توقع حدوث اضطرابات فى ذلك الحين، ولا مراء فى أن هذا المنشور صلة وثيقة بما ورد عند فيلون، الكاتب اليهودى، الذى يذهب إلى أن فلاكوس كان متحاملاً على اليهود فأمر فى عام ٣٧/ ٣٨ بتفتيش منازلهم ومصادرة الأسلحة المخفاة فيها، ولكنه لم يعثر فيها على شئ، بينما عثر قبل ذلك بفترة غير طويلة على أكداس منها مخبأة فى بيوت المصريين "الذين كثيراً ما ثاروا على السلطات التى ارتابت فى أنهم يدبرون ثورة جديدة". ولعل المصريين بدأوا

(٢١) فوزى الاخناوى: مصر الفرعونية بين الماضى والحاضر، ص ١٥٨.

يضيقون ذرعاً بتعسف السلطات المحلية ووطأة الاحتلال الرومانى، ومن المؤكد أن موجة التذمر بدأت تسرى فى الإسكندرية أيضاً[٣٢].

ويذكر التاريخ كيف أن الإمبراطور أغسطس اتخذ من التدابير ما يكفل رد الإسكندريين إلى صوابهم إذا ما خطر لهم أن يقوموا بالثورة فى وجه الرومان، وأنه وضع فرقة عسكرية كاملة عند ضاحية نيقوبوليس تحذيراً لهم، غير أن هذه التدابير الصارمة لم تثن مواطنى المدينة عن مناصبة روما العداء والثورة [٣٣].

ولكن لم تكد تمضى فترة وجيزة حتى قامت بالاسكندرية فى عام ٢٩ق.م. مظاهرة ضخمة فى جموع غفيرة من الإسكندريين هاجمت الحاكم الرومانى الجديد "بترونيوس" بوابل من الحجارة، فقتل بعض، وألقى القبض على الآخر.ولئن كان المؤرخ أسطرابون لا يوضح لنا سبب هذه المظاهرة لا نستبعد أنها كانت فاتحة الاشتباكات العنيفة المتكررة التى وقعت بين أهل الإسكندرية والحكومة الرومانية[٣٤]. واستمرت روح الثورة فى نفوس أهل مصر فقاموا بثورات واضطرابات متكررة ومنها ما وصل إلينا أخبارها على شكل قصاصات بردية تنتمى إلى مجموعة طريفة يسميها العلماء بـ "أعمال الشهداء الإسكندريين" لما بينها وبين "أعمال الشهداء المسيحيين" من تشابه وهى محاضر جلسات لمحاكمة زعماء الإسكندرية أمام المجلس الإمبراطولاى فى روما، وكتبت من وجهة

(٣٢) عبد اللطيف أحمد على: مصر والإمبراطورية الرومانية فى ضوء الأوراق البردية (دار النهضة العربية، القاهرة ١٩٨٨م)، ص ٨٢.

(٣٣) المرجع السابق، ص ٨٣ .

(٣٤) عبد اللطيف أحمد على وآخرون: كفاحنا ضد الغزاة (منشورات وزارة الإرشاد القومى، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة ١٩٥٧م)، ص ١٦٢ .

نظر الإسكندريين، واتسمت بطابع خيالى روائى. حتى أصبحت بمثابة أدب شعبى أحرز رواجاً واسعاً بين الناس[٣٥].

وفى عام ١٢٢م. قام المصريون بثورة أثناء الاحتفال بعجل أبيس الجديد، وبلغ الإمبراطور نبأ الاضطرابات فى أثناء زيارته لبلاد الغال (فرنسا) فكاد يقطع رحلته ويعود لولا أن نائبه فى مصر استطاع تصفية الثورة عسكرياً، ووردت إلينا إشارات تاريخية لثورة أخرى بالإسكندرية فى عهد الإمبراطور "أنطونينوس بيوس" قُتل فيها الحاكم الرومانى نفسه "إمادينارخوس" (أواخر ١٤٢ - أوائل ١٤٤م.) وهو أمر يدلنا على أن الثورة كانت عنيفة.

ولم يكف شعب مصر بعد هذا التاريخ عن مناوأة الحكم الرومانى بشتى الوسائل، واتخذت المقاومة مظهراً آخر، وهو تأييد قواد الجيوش المرابطة فى الشرق الذين كانوا يتمردون على السلطات الشرعية، وينادون بأنفسهم أباطرة مثل تأييد "بسكنيوس نيجر" قائد القوات الرومانية المرابطة عند أسوان ثم تولى قيادة الفرق المرابطة فى سوريا حيث نودى به إمبراطوراً[٣٦].

بل صدح المصريون بالشكوى والثورة ضد المفسدين من الولاة حتى وصل الأمر إلى محاكمة أحد الولاة يدعى "فيبيوس مكسيموس" أن يحاكم فى روما بتهمة الابتزاز، وكال له المصريون فوقها تهماً أخرى كالتريح والربا واستغلال النفوذ وإفساد الحياة السياسية وإفساد الفتى الوسيم، وقضى المجلس الإمبراطورى بإدانته، وقام الإمبراطور تراجان بعزله من منصبه لشناعة جريمته،

---

(٣٥) عبد اللطيف أحمد على: مصر والإمبراطورية الرومانية فى ضوء الأوراق البردية، ص ١١٠، ١٢٧.

(٣٦) عبد اللطيف أحمد على وآخرون: كفاحنا ضد الغزاة، ص، ١٨٤، ١٨٥.

وقد وصلتنا وثائق تؤيد ذلك، فقد وجدنا اسم هذا الوالى، جايوس فيبيوس مكسيموس، مطموساً فى بعض النقوش، وهو إجراء كان يتبع فى حالة المحكوم عليهم بالموت لإدانتهم بجريمة ضد الدولة كالخيانة العظمى، فيتقرر وصم سمعتهم ومحو ذكراهم، ولم يسلم بعض الأباطرة الطغاة من هذه اللعنة فقرر السناتور الرومانى بعد وفاتهم إزالة أسمائهم من جميع الوثائق والسجلات الرسمية فى الدولة(٣٧).

وفى العصر الرومانى ساد الهدوء العلاقة بين المصريين والرومان خلال مدة طويلة من الزمن حتى تولى الإمبراطور ماركوس أوريليوس (١٦١ -١٨٠م) ولا شك أن الظروف الاقتصادية بلغت درجة من السوء دفعتهم إلى الثورة على الرغم من أنهم لم يثوروا من قبل، ربما يعود إلى اهتمام الرومان بوسائل الإنتاج والرى والصرف، مما أوجد توازناً بين ما يطلب من المصريين من أموال وبين ما تغله الأرض ومصاريف الحياة، لكنهم الآن يجدون العكس مطالبة بكثرة من الأموال تثير الأسى والحنق يقابله إهمال فى وسائل الرى والصرف وغير ذلك، بل إن ثورة اليهود نتج عنها فساد لكثير من المرافق الزراعية، وتدمير للقنوات والبيوت والقرى وهروب المصريين أو لأنهم انضموا إلى الفرق العسكرية عصرذاك. وقد نتج عن ازدياد عدد الهاربين من الأراضى الزراعية فهجروا الريف والزراعة إلى المدن الكبرى للتسكع أو القيام بأعمال حقيرة شريفة أو غير شريفة، وربما كان اهتمام الرومان بالمدن الكبرى دون القرى عاملاً مهماً فى جذب الفلاحين من أراضيهم، وقد حاول

---

(٣٧) عبد اللطيف أحمد على: مصر والإمبراطورية الرومانية فى ضوء الأوراق البردية، ص ١٨٤ ، ١٨٥.

الإمبراطور "هادريان" من قبل تخفيف الأعباء المالية على المصريين وإصلاح نظام الرى، إلا أنه لم يعالج المشكلة من أساسها. كل ذلك أدى إلى اندلاع ثورة المصريين فى عهد الإمبراطور "ماركوس أوريليوس". وعرفت هذه الثورة باسم ثورة "البوكليا" "Bucolia" أى "المراعى" لأنها نشبت فى أغوار الدلتا والمستنقعات، وكان قائدها كاهناً مصرياً يدعى "اسيودوروس" الذى جمع عدداً غفيراً من الشباب الثائر، وسلحهم بأسلحة بدائية ليقوموا بحرب هى أشبه بحرب العصابات اليوم.

وتقول الروايات أن زعيم الثورة "اسيودوروس" تخفى وبعض أعوانه من الشباب فى ثياب نساء آتين لدفع الضرائب، ودخلوا على قائد فرقة المائة الرومانى، فلما اقتربوا منه هجموا عليه وقتلوه وقتلوا رفاقه وشربوا من دمائهم ثم أقسموا يمين الولاء للثورة ضد الرمان، ونجح الثوار باستخدامهم أسلوب حرب العصابات فى عدم تمكين القوات الرومانية من الانتصار عليهم، بل أن الثوار سيطروا على معظم الدلتا وعملوا على الاستيلاء على الإسكندرية والمؤسسات والدوائر الحكومية، وكان الجيش الرومانى فى مصر تنقصه الفرقة المعروفة بفرقة تراجان الثانية التى أرسلت إلى حرب الجرمان ضد الدانوب، وهنا اضطر الإمبراطور أن يرسل أوامره إلى "أفيدوس كاسيوس" بأن يقدم التعزيزات للقضاء على الثورة عام (١٧٥م)، لكن "أفيدوس كاسيوس" رغب فى أن يستثمر الفرصة لتقوية نفوذه فى الشرق ومصر خصوصاً، وحسب أن الأمر سهلاً ميسوراً لكنه واجه صعوبة بالغة؛ لأن طريقة المقاومة المصرية تعتمد

على الكر والفر والضرب والهرب، إى إرهاق العدو وإقلاقه، بعدها اتجه "أفيديوس كاسيوس" إلى أسلوب المكر والخديعة بأسلوب (فرّق تسود) وتقليب الثوار بعضهم على بعض، فانقلب الثوار ضد بعضهم وأصبحوا فريسة سهلة "لأفيديوس كاسيوس" الذى قضى عليهم وعلى الثورة وعاد منتصراً إلى سوريا وعين "مايكيانوس" نائباً عنه فى الإسكندرية.

وعاد "أفيديوس كاسيوس" ليدبر شائعة تقول أن الإمبراطور مات ويعلن نفسه إمبراطوراً بديلاً، ويبدو أن ولاة مصر وسوريا اعترفوا به إمبراطوراً ولما علم ماركوس أوريليوس ذلك أوقف القتال فى الدانوب وعاد مسرعاً إلى الشرق ليواجه مؤامرة "افيديوس كاسيوس" الذى أعد هو الآخر العدة لمواجهة الإمبراطور، لكن اغتاله أحد ضباطه واضطرت القوات الرومانية فى الشرق أن تعلن تأييدها للإمبراطور "ماركوس أوريليوس"، الذى قام بزيارة مصر عام ١٧٦م. وأقام فى الإسكندرية حيث تفقد المكتبة وتقابل مع الأساتذة. ولم ينزل ماركوس أوريليوس أى عقاب بمصر أو الإسكندرية ولم يقتل الوالى المتعاون مع افيديوس كاسيوس. بل عزله (وهو جايوس كالفيسيوس ستانيانوس)، وكل ما عمله معه هو تقريعه ونفيه من مصر، ولم يمس أسرة أفيديوس بأى مكروه.

كان "ماركوس أوريليوس" يميل إلى الهدوء والوداعة والسلم وعدم الانتقام، وحاول أن يغرس ذلك فى ابنه وخليفته "كومودوس"، الذى ارتقى العرش بعد وفاة أبيه عام ١٨٠ م. واستمر حتى ١٩٢م.، ولكنه رفض نقض سياسة الصفح والعفو وسار على سياسة الانتقام. كان أول عمل انتقامى هو اغتيال أسرة "أفيديوس

كاسيوس" فى جريمة مدبرة بشعة، واستدعى زعماء الإسكندرية إلى روما وحاكمهم بتهم ملفقة ؛ الهدف منها الانتقام منهم لوقوفهم ضد أبيه مع الثائر "أفيديوس كاسيوس" واغتيل "كومودوس"، لتبدأ الإمبراطورية عصراً من الاضمحلال والضعف يبدأ فى عام ١٩٣م. حتى عام ٢٨٤م.

وأهم ما يميز هذه الفترة القلقة المضطربة هو ضعف حكومة الإمبراطورية فى روما لضعف الأباطرة بسبب خضوعهم للجيوش، وكذلك تدخل الحرس الإمبراطورى فى اختيار الأباطرة وتعيينهم وعزلهم أو قتلهم. وبدأ يظهر فى هذه الفترة التاريخية العنصر الشرقى فى حكم الإمبراطورية وابتعد العنصر الرومانى الأصيل[٣٨].

ومع بزوغ فجر المسيحية فى مصر والتى بدأت تنتشر بين الناس فى منتصف القرن الثانى،بدأت معها المقاومة الروحية حيث قامت السلطات الرومانية فى مصر بعدة محاولات لمنع انتشار المسيحية فى القرن الثانى أهمها محاولة فى عهد الإمبراطور دكيوس (٢٤٩-٢٥١م.) عندما أصدرت الحكومة الرومانية مرسوماً يقضى بأن يقدم جميع السكان شهادات رسمية تثبت أنهم ذبحوا القرابين، وسكبوا الخمر، وتذوقوها إظهاراً لتقواهم للآلهة الوثنية، وولائهم للحكومة الرومانية. وتشير الدلائل أن الكثير من المصريين قد تغلبوا على هذه التعليمات بتقديم شهادات زائفة أو قدموها وهم يظهرون غير ما يبطنون[٣٩]!.

---

(٣٨) فوزى مكاوى: الشرق الأدنى فى العصرين الهلينستى والرومانى (المكتب المصرى لتوزيع المطبوعات، القاهرة ١٩٩٩م.)، ص ٣٢٧.

(٣٩) عبد اللطيف أحمد على وآخرون: مرجع سابق، ص ١٩٥.

المجد للشهداء فى الأعالى وعلى الأرض الثورة

وقد بلغ الاضطهاد مداه فى عصر "دقلديانوس" من سنة (٢٨٤ - ٣٠٥م). حين اعتلى عرش بيزنطة، فأقسم برأس آلهته الوثنية أن يؤدب المصريين أدباً يجعلهم عبرة لكل متمرد وثائر جسور، وجاء بنفسه إلى مصر شاهراً سيفاً، ظل يعمله فى رقاب المصريين المسيحيين، حتى سالت دماؤهم أنهاراً، وبر بالوعد والوعيد الذى قطعه على نفسه، بأن تغوص سنابك خيله فى بحر دمائهم، ولقد تحمل المصريون هذه المجزرة الرهيبة بما فطروا عليه من صبر على المكاره، وثبات فى الشدة، حتى إذا انجلت المحنة كان حرياً بالمصريين الأقباط أن يجعلوا من سنة ارتقاء هذا الإمبراطور الطاغية عرش بيزنطة بداية للتقويم المصرى القبطى، وأن يجعلوا من ذكرى دماء الشهداء التى أريقت بداية لحلقة جديدة من التاريخ المصرى المجيد، وهى الحلقة المعروفة بعصر الشهداء.

ولكن الثابت أن جميع هذه الاضطهادات التى تعرض لها المصريون من جانب السلطات الرومانية لم تزدهم إلا إيمانا وتشبثاً بعقيدتهم الجديدة التى أمدتهم بقوة روحية على احتمال الاستبداد والفساد السياسى ووجدوا فيها متنفساً لما يعانونه من ضيق اقتصادى، وزودتهم بالأمل فى الخلاص فى الحياة الأخرى، وما لبث الإمبراطور "قسطنطين" حتى اعترف بها كديانة رسمية من سنة (٣٢٣ - ٣٣٧م)[٤٠].

من رحم ذلك العصر الوثنى الكئيب، كان المصريون ينكفون على ذواتهم فيجدون نفحات الإيمان تسرى فى أوصالهم، منذ عرفوا

---

(٤٠) عبد اللطيف أحمد على، وآخرون: كفاحنا، مرجع سابق، ص١٩٦.

عقيدة التوحيد قبل قرون من ظهور نجم روما وبيزنطة، فلما ظهرت النصرانية ديناً إلهياً يدعو إلى عبادة الإله الواحد الصمد، ونبذ عبادة البشر، لاذ المصريون واعتنقوه، وأصبحت مصر مصدر قوة وإشعاع للدين الجديد.

وكما فر المصريون أيام الوثنية إلى مواطن أخرى من عنت السلطات، فروا أيضاً أيام المسيحية إلى الصحراء تخلصاً من الاضطهاد الدينى أو الضيق الاقتصادى أو استجابة لوحى مقدس أو حباً فى العزلة، واهبين أنفسهم للتعبد والتنسك، منقطعين لخدمة الإله، واتخذوا من مصر نقطة ارتكاز لخروج قوافل التبشير، ومن صحاريها الصامتة تقام صلوات وصوامع يذكر فيها اسم الله، لتظهر الرهبانية احتجاجاً عملياً على السلطة الوثنية التى ترغمهم على ما يكرهون، وهج الرهبان إلى فجاج الصحراء فراراً بدينهم من طغيان دولة لا يضمرون لها سوى البغض والاحتقار، ولا تضمر لهم سوى المهانة والإذلال. ليواجه الرهبان بذلك قوى الشر مجتمعة ؛ فلم تكن الرهبنة مجرد صراع روحى ضد شهوات الجسد ووساوس النفس الأمارة بالسوء، بل كانت أيضاً صراعاً ضد شياطين مجسدة ملموسة حيث كانت الصحراء تعتبر من قديم الزمن مأوى الأرواح الشريرة ومملكة الإله "ست" إله الشر عند المصريين القدماء. كما كانوا يصلون دون ملل من أجل الثوار ومن أجل مصر، فكانت صلواتهم سلاحاً فتاكاً فى المعركة التى خاضها المصريون ضد قوى الشر والظلم والطغيان[٤١].

ولتصبح الكنيسة المصرية منذ نشأتها حصناً للوطنية، ورمزاً للصلابة والصمود فى وجه السيطرة الأجنبية الدخيلة، ومقاومة

(٤١) المرجع نفسه، ص ١٩٩ .

العقائد الوثنية الفاسدة، على امتداد عهود القهر الرومانى، التى استطالت سبعة قرون إلا ربع قرن، كان المصريون يلوذون بكنيستهم كلما أوجعتهم ضربات الرومان، فيجدون فى رحابها طمأنينة الإيمان واستقلال الرأى والضمير، ورفض الذل والمهانة، والتمرد على جبروت الحاكم مهما كانت فظاعة البطش والتنكيل[٤٢].

ولا بد أن نشير هنا إلى أن ممارسة المصرى لحياته فى إطار الإيمان تتخذ سمات تدعو هى الأخرى للتأمل، ولعل هذه الشحنة الإيمانية هى التى تملأ نفس المصرى بالسكينة وتعطيه ما يسمى بالاستقرار النفسى، وهى التى تمده بالقدرة الهائلة على الصبر والتحمل عند الشدائد، وبالقدرة الهائلة أيضاً على التحدى وصنع المعجزات. ونتصور أن عمق مصر الحضارى هو الذى ألهمها ذلك[٤٣].

وفى خلال تلك الفترات تدهورت حالة مصر اقتصادياً فانكمشت القرى المصرية بعد هروب سكانها، وحاول "دقلديانوس" إرجاع مصر إلى سابق عهدها ولم يفلح ثم نجد أن مصر تهددت بالإفلاس وتفشى المجاعات وطمع الأعداء فيها من الخارج[٤٤].

وهكذا نرى أن مصر قاومت الطغاة والبغاة بكل ما تيسر لها من أسلحة: قاومتهم بالعتاد الحربى، واستماتت فى الدفاع حتى إذا ما

---

(٤٢) جمال بدوى: حكايات مصرية، (سلسلة مكتبة الأسرة، القاهرة ١٩٩٧م.)، ص

(٤٣) أمين بسيونى: مصر الدور، (سلسلة مصر الحضارة العدد ١، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٨٦م.)، ص ١٤

(٤٤) محمد فهمى عبد الباقى وآخرون: مرجع سابق ص ١٨١ص ١٨٢ وانظر محمد فهمى عبد الباقى: تاريخ مصر فى عصر الرومان، القاهرة ٢٠٠١م، ص ٤٠ ضريبة الرأس فى مصر الرومانية (رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الآداب، جامعة القاهرة ١٩٧٩م)، صفحات متنوعة .

غلبت على أمرها قاومتهم بالثورات التى جعلت من وادى النيل جحيماً لا يطاق،فإذا ما أخمدت الثورات لجأت إلى حرب العصابات، فإذا أعوزها السلاح لجأ شبابها وشعبها إلى العصيان، أو الاعتصام أو الإضراب، أو الفرار من الأرض والاختفاء عن الأنظار فى الأدغال، أو المستنقعات أو مجاهل الصحراء.

فإذا ما أعيتها الحيل لجأت إلى سلاح آخر بتار: لجأت إلى المقاومة السلبية والسخرية، فبذرت بذور الكراهية للطغاة والبغاة عن طريق المنشورات السياسية والتكهنات العدائية، أو رفضت التعاون مع الغاصبين، واستقوت بتراثها وكبريائها .فأخضعت لسحرها جبروت الطغاة والبغاة، وجعلت من المغلوب غالباً[٤٥]. حتى إذا أوشكت شمس الإمبراطورية الرومانية على المغيب، كان الخلاص منها قد أصبح حلماً يساور زعماء الكنيسة الوطنية، وساد الناس شعور واحد، وهو شعورهم بالغضب الإلهى على هذه الدولة الظالمة، وانتصار الجزاء العادل من الله، فلما تقدم المسلمون لحرب الروم، شاع فى المشرق كله أن هزيمتها حق، وأن غلبة المسلمين عليها عدل، وأن القضاء الإلهى ينفذ فى مستحقيه بما قدمت أيديهم من ظلم ومعصية[٤٦].

---

(٤٥) عبد اللطيف أحمد على، وآخرون: كفاحنا، مرجع سابق، ص ٢٠٠ -٢٠١.
(٤٦) جمال بدوى: حكايات مصرية، ص ١٧٠.

الفصل الثانى

الثورة فى العصر الوسيط

«أصبح القبط بعد الإسلام فى مأمن من الخوف وعادت الحياة إلى مذهب القبط فى الجو الجديد - جو الحرية الدينية»

«من كتاب الفريد. ج. بتلر: فتح العرب لمصر»

فى السابع من إبريل عام ١٩٩٨م. الموافق العاشر من ذى الحجة فى العام ١٤١٨هـ يكون قد مضى أربعة عشر قرنا كاملة على الفتح الإسلامى لمصر وقد توافق هذا الحدث المهم فى تاريخ العالم مع حلول عيد الأضحى المبارك فى العاشر من ذى الحجة من عام١٨ هـ٦٣٩/م.، فاحتفل العرب بالمناسبتين معاً فى العريش[٤٧].

وواصل عمرو بن العاص مسيرته إلى منطقة الصالحية[٤٨]

(٤٧) انظر / بتلر (الفرد ج): فتح العرب لمصر، ترجمة محمد فريد أبو حديد، ط ٢، القاهرة، ١٩٤٦ الجزء الأول، ص١٧٥.

(٤٨) الصالحية: أسسها الملك الصالح نجم الدين أيوب بالشرقية، وأنشأ بها قصراً وجامعاً وسوقاً سنة ٦٤٤هـ (المقريزى، الخطط، الجزء الأول، ص). ١٨٤.

ملتزمين جانب الصحراء ومخالفين فى ذلك أكثر من عداهم من فاتحى مصر مثل قمبيز الذى سار من الفرما متجهاً نحو الغرب إلى سنهور وتانيس (صان الحجر بالشرقية) ومن ثم إلى بوباستيس (بالزقازيق)[٤٩]، وواصل عمرو بن العاص مسيرته حتى بلغ بلبيس، وواجه المسلمون حامية بيزنطية وجرى بينهما قتال حوالى الشهر، وانقض الروم على جيش العرب، ولكن دارت عليهم الدوائر وطاش سهمهم وتمزق جيشهم على أرض مصر شر ممزق.

وبعد أن أمضى العرب فى بلبيس قرابة شهر، هبطوا منها إلى (أم دنين) لاستكمال الفتح حتى تم لهم ما أرادوا وأصبحت مصر قطراً عربياً إسلامياً جزءاً هاماً من الوطن الإسلامى الكبير، يجرى عليها ما يجرى على غيرها من أحكامه وظروفه، وتستشعر أن لها مسئولية خاصة فى الدفاع عن كل ديار العروبة والإسلام فى فترات التحدى الحاسمة، ونجد ذلك فى تأملنا لموجتين استعماريتين من أخطر الموجات التى تعرض لها العالم العربى المسلم وهما الموجة الصليبية وموجة التتار[٥٠].

وأصبحت مصر ولاية عربية، واستقرت أحوال مصر على يد عمرو بن العاص واستتبت أمورها، فأقام المسلمون فيها حكومة عادلة عاملت المصريين معاملة مبنية على العدل والتسامح حتى

---

(٤٩) بتلر (الفرد - ج): فتح العرب، مرجع سابق، ص ١٨٩، ١٩٠.

(٥٠) عمرو عبد العزيز منير: العمران فى مصر فى القرنين السادس والسابع الهجريين دراسة مقارنة فى كتابات الرحالة، رسالة ماجستير غير منشورة، آداب الزقازيق، ٢٠٠٤ ، ص ٦٨ عمرو عبد العزيز منير: الأساطير المتعلقة بمصر فى كتابات المؤرخين المسلمين، دار عين للدراسات، القاهرة ٢٠٠٨م، ص١٤.

شعر المصريون بالفارق الكبير بين حكام الرومان وحكام المسلمين الذين امتاز أغلبهم برعاية قبط مصر والحدب عليهم(٥١) فكان العدل يومئذ لا يلتوى ولا ينحنى حتى أمام قرابة المقربين، أو بعد البعيدين. لقد قال عمرو بن العاص وهو يتذكر الخليفة عمر بن الخطاب: "ما رأيت أحداً بعد نبى الله صلى الله عليه وسلم وأبى بكر أخوف لله من عمر. لا يبالى على من وقع الحق على ولد أو والد"... ولعل عمراً كان يتذكر قصة ابنه مع المصرى الذى اشتكى على ابن عمرو لأنه ضربه بالسوط بسبب السباق. فأمر عمراً بالحضور وإحضار ابنه معه وقال للمصرى: "خذ السوط فاضرب. فجعل يضربه بالسوط، ويقول عمر: اضرب ابن الأكرمين".. ثم قال لعمرو كلمته المشهورة: "متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً(٥٢).

ولم يشذ من هؤلاء الحكام سوى نفر قليل، ولكننا نجد أن المصريين على طول تاريخهم الضارب بجذوره فى فجر الضمير الإنسانى كانوا بالمرصاد لكل الطغاة الذين فرضوا سطوتهم عليهم إما بالثورة الشعبية أو بالسخرية والتهكم والهجاء والتى كانت من أهم الأسلحة التى استخدموها بمهارة فائقة فى هذا المجال خاصة إذا كانت شخصية الحاكم نفسه تدعو لذلك، وكان مظهر هذا جلياً فى مصر.

---

(٥١) حسن إبراهيم حسن: تاريخ الإسلام، الجزء الأول، ط ١٢ النهضة المصرية، القاهرة ١٩٩١ ص.١٩٢

(٥٢) محمد عرب: الإشراق خلافة الإنسان فى الأرض (منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق ٢٠٠١م)، ص ١٩٠.

وحيث إن مصر قد أشْرِبَتْ نفوس أهلها شجاعة حقة بما وقر فيها من مظاهر البسالة الرائعة ولامتزاج الأهلين بالعرب الوافدين عليها، وقد توالت وفودهم على مصر واستوطنوها وصاهروا أهلها وارتبطوا بهم بوسائل مختلفة حتى زالت من نفوس الكثيرين منهم النعرة العربية إلا قليلاً من القبائل حافظت على صبغتها العربية فى المصاهرة والعادات دون اللغة وأسباب النفع والحضارة[٥٣] وتجلى مظهر الشجاعة فيهم حين هب أبناء مصر بأول ثورة شعبية فى العهد الأموى بعدما استشرى الفساد لبعض الولاة والحكام الذى وصل إلى حد قبول الرشاوى مثلما حدث فى عام ٨٧ (هـ) حين ارتشى عبد الله بن عبد الملك (والى مصر) بأخذ الأموال لنفسه من الخراج، وفى ولاية الحر بن يوسف انتفضت عامة مصر عام (١٠٧هـ / ٧٢٥م) فأخضع الحر بن يوسف الثورة الشعبية بعد قتل عدد كبير من الثائرين[٥٤]. كانت هذه الثورة بداية دور جديد للمصريين، فهذه أول مرة يتركون سبيل المقاومة السلبية إزاء ثقل الأعباء المالية عليهم، ويقاومون الحاكم مقاومة ايجابية، والباع الأكبر فى ذلك يعود لشبابها الذين قاموا بتلك الانتفاضات، غير أنهم تحملوا فى سبيل ذلك الكثير من الآلام، ولكن الثورة الشعبية فى مصر سرعان ما أنبتت شجرتها وامتدت فروعها خارجها وصار (الحوف الشرقى)[٥٥] من حينئذ مركزاً دائماً للثورة طوال العهدين الأموى والعباسى[٥٦].

---

(٥٣) إبراهيم والى: مجلة مدرسة الزقازيق الثانوية سنة ١٩٤٠ ص١١٥وصفحات متنوعة.

(٥٤) المقريزى: الخطط، ج ١ ص ٣٠٢ الكندى: الولاة، ص. ٧٤

(٥٥) اصطلاح جغرافى يقصد به الجزء الشرقى من الدلتا)

(٥٦) انظر / سيدة إسماعيل الكاشف: مصر فى فجر الإسلام (سلسلة مكتبة الأسرة، القاهرة ١٩٩٩م)، ص٢٣٤ .

ولعل أول ما نبحث عنه فى سطور التاريخ صدى وقع الثورات التى قامت فى بلاد الخلافة الإسلامية شرق مصر على المصريين، وأولها الثورة الكبرى أيام عثمان وهى ثورة معروفة الأحداث مشهورة الأسباب والنتائج ودور المصريين فيها دور القائم بنصيب لا يقل عن نصيب أى شريك آخر، وإن لم يفقه [٥٧] وكانت لهم كلمتهم المسموعة لدى عثمان (رضى الله عنه) عادلا معها، ليس على داره باب[٥٨]. فلما ولى عثمان الخلافة أقر عَمرا على مصر فى صدر إمارته، يدير أمورها، ويسوس شؤونها، وكان عمرو يُحكم قبضته عليها، بالشدة فى بعض الأحيان مما دفع بعض المصريين الأحرار أن يشكوه إلى عثمان، ولم يكن عثمان يعزل أحدا إلا عن شكاية أو استعفاء مِن غير شكاية؛ فنقل منه خراجَ مصر، وولى عليه عبد الله بن سعد بن أبى السرح لمؤهلاته[٥٩] الشخصية.

ولم يكتف هؤلاء الثوار بذلك حتى استمروا فى تحدى سلطة عمرو بن العاص فبلغ ذلك عثمانَ فعزل عَمْرًا وجعل مصر كلها لابن

---

(٥٧) حسين نصار: الثورات الشعبية فى مصر الإسلامية (سلسلة الدراسات الشعبية، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة ٢٠٠٢م.)، ص٩ .

(٥٨) الطبرى: تاريخ الطبرى، ج١ ، ص٦١٠ و ما بعدها. وابن كثير:البداية والنهاية، ج ٧ ص١٥١. والبخارى: الصحيح ط٣ بيروت، دار ابن كثير،١٩٨٧.

(٥٩) عبد الله بن سعد عبد الله بن سعد ابن أبى سرح بن الحارث، الأمير، قائد الجيوش، أبو يحيى القرشى العامرى، من عامر بن لؤى بن غالب. هو أخو عثمان من الرضاعة، له صحبة ورواية حديث، كان عبد الله بن سعد واليا لعمر على الصعيد، ثم ولاه عثمان مصر كلها، وكان محمودا. وكان عمرو بن العاص على مصر لعثمان، فعزله عن الخراج وأقره على الصلاة والجند. واستعمل عبد الله بن أبى سرح على الخراج، فتداعيا. فكتب ابن أبى سرح إلى عثمان: إن عمرا كسر الخراج على. وكتب عمرو: إن ابن سعد كسر على مكيدة الحرب. فعزل عمرا، وأضاف الخراج إلى ابن أبى سرح. وروى ابن لهيعة، عن يزيد بن أبى حبيب، قال: أقام عبد الله بن سعد بعسقلان، بعد قتل عثمان، وكره أن يكون مع معاوية، وقال: لم أكن لأجامع رجلا قد عرفته، إن كان ليهوى قتل عثمان. قال: فكان بها حتى مات :للمزيد انظر / على بن نايف الشحود: الفتنة فى عهد الخلفاء الراشدين رضى الله عنهم برؤية موضوعية، (القاهرة ٢٠١٠م)، ص ٩٢.

أبى السرح، وقدم عمرو المدينة مُغضبًا. وبذلك نجحت ثورتهم فى عزل عمرو عن مصر، و رُوى أن عثمان رضى الله عنه - كان يطلب من ولاته المجىء إليه فى كل موسم حج، ليطلعوه على أحوال الدولة، و يستمع إلى ردودهم على شكاوى الناس منهم(٦٠). و عندما طالبه - أى طالبوا عثمان - المصريون (سنة ٣٥ هـ) بعزل واليه على مصر: عبد الله بن سعد بن أبى سرح، لبى طلبهم و خيّرهم فيمن يوليه عليهم، فاختاروا محمد بن أبى بكر فولاه عليهم(٦١).

وكان المصريون هم الذين أحرقوا باب دار عثمان، واقتحموها، وأسهموا فى قتله، وقتل بعض المدافعين عنه، حتى قال المؤرخ الطبرى عن محمد بن اسحاق: "كانوا أشد أهل الأمصار عليه" ورجع المصريون إلى بلدهم، وقد حققوا ما أرادوا: إنهاء خلافة عثمان، وتنصيب على(٦٢).

ولم تهدأ الأحوال فى مصر بل انقسمت إلى فريقين: فريق يؤيد على بن أبى طالب، وعلى رأسه محمد بن أبى حذيفة، وفريق يؤيد عثمان ويطالب بالثأر لدمه بزعامة معاوية بن حديج. واستمر السجال بينهما إلى أن هدأت الأحوال مدة إلى أن ولى "محمد بن أبى بكر الصديق" فكتب إلى معاوية بن حديج والخارجين معه يدعوهم إلى بيعته فلم يجيبوه فهدم دورهم ونهب أموالهم وسجن ذراريهم فبلغهم ذلك فاستعدوا لقتاله، وهموا بالمسير إليه، فلما علم أنه لا قوة له بهم، أمسك عنهم وصالحهم على أن يتركهم يلحقون

---

(٦٠) الطبرى: نفس المصدر، ج٢ ص ٦٤٨، ٦٧٩.

(٦١) الطبرى: نفس المصدر، ج٢ ص: ٦٥٨. و ابن كثير: المصدر السابق ج٧ ص ١٧٥ و ما بعدها

(٦٢) حسين نصار: المرجع السابق، ص ١٣.

بمعاوية. وكان معاوية: "يهاب أهل مصر لقربهم منه وشدتهم على من كان على رأى عثمان، وكان يرجو أنه إذا ظهر عليها ظهر على حرب على لعظم خراجها ". ولم يكسر شوكتهم إلا عمرو بن العاص حيث رأى أن يضرب المصريين بالمصريين بالمسناة وبلغ عنف القتال يومئذ أن قال عمرو بن العاص: "شهدت أربعة وعشرين زحفاً فلم أر يوماً كيوم المسناة ولم أر الأبطال إلا يومئذ". وكانت تلك الموقعة فى صفر ٣٨هـ. وكان فيها القضاء المبرم على الثائرين من أنصار على بن أبى طالب[٦٣].

و ظلت مصر أرضاً خصبة للكثير من القلاقل والاضطرابات التى وصلت إلى حد الثورة ضد ولاة مصر وعمال خراجها حتى أن بعضهم لم يتمكن من دخول الفسطاط مقر الولاية وعادوا أدراجهم من حيث أتوا، فقد كانت مصر بؤرة ساخنة للتمرد، لهذا كانت لها أهميتها واعتبارها بالنسبة لولاة الأمر فيها، وكانت مواقف مصر متباينة فرحبت ببعضهم وتشددت مع الآخرين منهم، مثال ذلك الوالى عبد الرحمن بن أم الحكم الذى ولاه معاوية بن أبى سفيان على الكوفة عام (٥٨هـ) وطرده أهلها لسوء سيرته، فولاه على مصر، لكن سيرته سبقته إلى مصر فخرج إليه معاوية بن حديج على مرحلتين من الفسطاط[٦٤]، وقال له: " ارجع إلى خالك فلا تسر فينا سيرتك فى أهل الكوفة، فرجع إلى معاوية.. "[٦٥].

وقد تتابعت ثورات أهل مصر من الأقباط، فثار المصريون الأقباط فى الصعيد وحاربوا عمال الحكومة فى سنة ١٢١هـ، فبعث

---

(٦٣) حسين نصار: الثورات الشعبية، ص ١٥.

(٦٤) أحمد شحاتة سرحان: نفس المرجع السابق، ص١٢٥ وصفحات متنوعة بتصرف

(٦٥) ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة، ج١ ص ١٥٠ ، ١٥١.

إليهم حنظلة بن صفوان والى مصر (١١٩ ت - ١٢٤هـ) جيشاً لمحاربتهم، فانتصر عليهم وقتل عدداً كبيراً، وفى سمنود يخرج المصرى يحنس ثائراً على طغيان الجباة فبعث إليه عبد الملك بن مروان بن موسى بن نصير، والى مصر إذ ذاك جيشاً لمحاربته، وكان ذلك فى سنة ١٣٢هـ، فقتل يحنس مع كثير من الثائرين المصريين وتم التمثيل بهم لإخافة كل من يجرؤ على الخروج عن طاعة الحاكم[٦٦]. ليتخذ تطبيق الحدود الإسلامية شكلا ساخراً يعبر عن تحكم القوة لا حكم الدين وليس لنا أن نندهش لأفاعيل السلطة وشهوتها فى التقوى والأتقياء. فهذا الملقب بـ"حمامة المسجد" عبد الملك بن مروان لكثرة مكوثه فى المسجد وطول قراءاته للقرآن وتهجده ليل نهار، يأتيه خبر أنه قد أصبح الخليفة فيغلق القرآن ويقول له: "هذا آخر العهد بك"، ثم يقف فى الناس خطيبا فيقول: "والله لا يأمرنى أحد بتقوى الله بعد مقامى هذا وإلا ضربت عنقه".[٦٧]

فالسلطة السياسية أو «الحكم» مرتبط على طول تاريخنا الإسلامى بالقوة لا بالعدل، إذا استثنينا الفترة الراشدية الأولى من

(٦٦) سيدة إسماعيل، مصر فى فجر الإسلام، مرجع سابق، ص ٢٣٥ .

(٦٧) يروى السيوطى أن عبد الملك بن مروان "كان عابدا زاهدا ناسكا فى المدينة قبل الخلافة. وقال نافع: لقد رأيت المدينة وما بها شاب أشد تشميرا ولا أفقه ولا أنسك، ولا أقرأ لكتاب الله من عبد الملك بن مروان". وقال عبدالملك الجندى من جيش أرسله يزيد بن معاوية لقتال عبد الله بن الزبير، حين قابله فى المسجد النبوى: "أتدرى إلى من تسير؟ إلى أول مولود فى الإسلام، وإلى ابن حوارى رسول الله، وإلى ابن ذات النطاقين (أسماء بن أبى بكر الصديق)، وإلى من حنكه رسول الله. ثكلتك أمك، أما لو أن أهل الأرض أطبقوا على قتله لأكبهم الله جميعا فى النار". وكان عبدالملك يقرأ القرآن، حين بلغه أنه بويع، فأطبق المصحف، وقال: "هذا آخر عهدنا بك"، وفى العام الثانى لولايته، ألقى خطبته قائلا: "أما بعد، فلست بالخليفة المستضعف (عثمان)، ولا بالخليفة المداهن (معاوية)، ولا=

تـاريخ الإسـلام، وومـضـات هـنـا وهـنـاك مـرّت سـريـعـا فى تـاريخ المسلمين، فمنذ الأمويين كان الحكم لقوة السـيف لا لمنطق العقل ولا لرعاية العدل ذلك أنهم كانوا أولى نزعة بدوية صريحة، فكانوا لا يبالون بما يقول الفقهاء وأهل الدين، جل اهتمامهم كان منصرفا إلى تدعيم ملكهم بحدّ السيف على الطريقة البدوية القديمة «كما يشير على الوردى فى كتابه وعاظ السلاطين.

وعلى ذلك فقس بقية التاريخ، العباسيون انتصروا بالقوة، والمماليك فعلوا الشىء ذاته، والعثمانيون ساروا على الطريق نفسه، وبقية التفصيلات التاريخية تشير بشكل أو بآخر لذات المعنى الذى أشرنا له سابقا(٦٨).

نعم لقد كان العدل قيمة أساسية فى «الوحى» و «النص الدينى» فى بداية الإسلام، كما كان تطبيقا وممارسة، ولكن ذلك كله فقد قيمته تاريخيا، وحلّت القوة والسطوة محل العدل والرحمة، والأخطر أن ذلك كله تمّ باسم الله وبتأصيل العلماء وتنظيرات الفقهاء التى لا تقترب من شهوات السلطة والسيطرة إلا بقدر ما تبتعد عن الشرع والدين.

لئن كان الظلم والاستبداد طاغيا فى حياة البشرية جمعاء، فإن له فى تاريخنا حضوره الذى لا ينكر، ومعه تحس بالمقابل بغضب

= الأمة إلا بالسيف حتى تستقيم لى قناتكم. والله لا يأمرنى أحد بتقوى الله بعد مقامى هذا إلا ضربت عنقه". ولم يبال بقوله القديم بحق عبدالله بن الزبير، وجهز له جيشا يقوده الحجاج بن يوسف، وحاصره بمكة شهرا، ثم ظفر به، وقتله وصلبه.

(٦٨) عبدالله بن بجاد العتيبى: المستبدون فى الأرض، (الرياض ٢٠٠٥ /٤/٦).

دفين على بشر ومجتمعات بلغ بها الضعف والخور والخضوع هذا المبلغ المتدن فى بعض الأحيان وتجد نفسك تتساءل لماذا لا يثور هؤلاء؟ أم أنه السيف والحذاء؟!.

ثار المصريون أيضاً فى رشيد سنة ١٣٢هـ فكان السياف لهم بالمرصاد ؛ وأرسل إليهم مروان بن محمد جيشاً لمحاربتهم، وذلك حينما دخل مصر فاراً من بنى العباس فهزمهم هذا الجيش، كذلك ثار ضده أهل البشرود ولكنه لم يستطع القضاء على ثورتهم، إذ سرعان ما هاجمه العباسيون وقضوا عليها(٦٩).

ورغم ذلك التهبت الثورات الشعبية لأهل مصر مع زوال الدولة الأموية، وكان لهم دور مؤثر فى مساندة العباسيين خاصة بعدما أُشيع عن اتجاه مروان بن محمد (آخر خلفاء بنى أمية) الذى فر إلى مصر بعد هزيمته فى واقعة الزاب الأكبر بإحراق بعض القرى المصرية ويبدو أن تأييد الكثير من أهل مصر وقبائلها للعباسيين وللمناوئين لمروان بن محمد قد أثار حنقه وغضبه، فأمر بإحراق مدن الحوف الشرقى وقراه وتم بالفعل إحراق بعض المدن والقرى، كما عاثت قواته فساداً فى الأرض لتحرق الحقول والأعلاف والغلال، غير أن قوات العباسيين لحقت بها حيث تمكنت منها وأسروا بعض تلك القوات وقدموا بها إلى الفسطاط لتنتهى حياة مروان بن محمد على أرض مصر سنة (١٣٢م/ ٧٥٠ م) حيث دفنت مع رفاته راية العهد الأموى بمصر وصارت مصر ولاية عباسية تابعة للخلافة العباسية تبعية مباشرة.

---

(٦٩) المرجع السابق، ص ٢٣٦

العباسيون وتاريخ التعذيب

ولكن ما إن وصل العباسيون إلى السلطة حتى بدأوا حملة تطهير واسعة، ولما استقام لهم الأمر استمروا على النهج الأموى فى ظلم العباد وقهر آدمية الإنسان، وهو ما كان يدفع إلى ثورات، تنتهى بشى الثوار على نيران هادئة، أو بمواجهتهم للضوارى فى احتفالات رومانية الطابع.

وهكذا كان الإنسان سواء مواطنا عادياً كان، أم كان فى جيوش السلطان، فى مقتطفات سريعة موجزة مكثفة من تاريخنا السعيد وزماننا الغابر. وهكذا قُدِّرَ لمصر أن ترفع راية السواد (شعار العباسيين) وتخلع راية البياض شعار الأمويين، ورغم ذلك لم يكن العهد العباسى عصراً للوئام والوفاق الدائم بين الحكومة العباسية والكثير من أهل مصر لنجد اشتعالاً للثورات الشعبية على الشاذين من ولاة مصر خاصة ممن أثقلوا على كواهلهم فداحة الجزية والأعباء المالية الملقاة خاصة على المصريين الأقباط فثاروا بسمنود فى سنة ١٣٥هـ. فى ولاية أبى عون الأولى على مصر (١٣٣-١٣٦هـ) فبعث إليهم أبو عون جيشاً لمحاربتهم فهزموا وقتل أبو مينا زعيم تلك الثورة.

ثم ثار المصريون القبط فى سخا سنة ١٥٠ هـ فى ولاية يزيد بن حاتم بن قبيسة على مصر (١٤٤ -١٥٢هـ) وانضم إليهم أهل الشرود وبعض جهات الوجه البحرى، ولكن العرب انهزموا أمام القبط هذه المرة، ثم خرج القبط فى سنة ١٥٦ هـ. فى ولاية موسى ابن عُلَىّ بن رباح اللخمى (١٥٥-١٦١هـ) فأرسل إليهم الوالى جيشاً فهزمهم[٧٠].

---

(٧٠) سيدة إسماعيل الكاشف: مرجع سابق، ص ٢٣٦- ٢٣٧.

ففى عهد الخليفة العباسى المهدى ثار أهل مصر بمن فيهم القبائل العربية القيسية واليمنية لقتال والِى مصر موسى بن مصعب (١٦٧ – ١٦٨) الذى تشدد فى جباية الخراج وفرض خراجاً على الدواب والأسواق حتى قال الشاعر:

لو يعلم المهدى ماذا الذى يفعله موسى وأيوب
بأرض مصر حين خلا بها لم يتهم فى النصح يعقوب[٧١]

وقد ثار أهل الحوف الشرقى من أجل ذلك وطردوا عمال الوالى، وقتلوا عامل المهدى فندب لقتالهم والى مصر الجديد الفضل بن صالح بن على العباسى الذى تولاها من قبل الخليفة المهدى فى عام (١٦٩ هـ)، ولكنه وصل إلى مصر بعد وفاة المهدى وانشغل بالقضاء على ثورة شبت فى الصعيد أيضا[٧٢].

ولم تخب ثورة أهل الدلتا فى عهد هارون الرشيد، فتذكر المصادر التاريخية أن والى مصر مسيلمة بن يحيى (١٧٢– ١٧٣هـ) الذى قدم إلى مصر بصحبة عشرة آلاف جندى فى عهد الخليفة العباسى هارون الرشيد امتلأت فترته بالثورات والاضطرابات، وتكرر الأمر فى عهد والى مصر عبد الله بن المسيب (١٧٧ – ١٧٦ هـ) وفى ولاية إسحاق بن سليمان العباسى (١٧٨ – ١٧٧ هـ) ثار أهل الشرقية بعد قيام الوالى بزيادة الخراج زيادة كبيرة أجحفت بهم وثار أهل الحوف الشرقى[٧٣] وقاتلوا الوالى مما استدعى الوالى إلى طلب المعونة من بغداد، فأرسل هارون الرشيد جيش قوامه عشرة آلاف جندى حتى استطاع قائد الجيش

---

(٧١) المرجع نفسه، ص ٢٥٤.

(٧٢) المقريزى: الخطط المقريزية، ج ١– ص ٣٠٨ وما بعدها.

(٧٣) مصطلح يطلق على كافة المدن والقرى الواقعة شرق الدلتا.

(هرثمة بن أعين) إخماد الثورة، وتولى الليث ابن الفضل (١٨٧ –١٨٢هـ) واستخدم العنف والقهر فى جمع الخراج، وتمكن الليث من قتل الكثير من أبناء مصر من العرب فى بلدة غيتة بالقرب من بلبيس، وبرغم ذلك لم يذعن المصريون لاستبداد الوالى إلى أن تحمل محفوظ بن سليمان عبء جمع الخراج دون عنف وعمل على مهادنة المصريين باللين والملاطفة، وانتهت الثورة بخلع الليث بن الفضل عن مصر وولى مكانه أحمد بن إسماعيل الذى توجه مع محفوظ إلى مصر فدخلاها فى ٢٥ جمادى الآخرة عام ١٨٧هـ[٧٤]. وثورات الأقباط تلك كثيراً ما تضامن معهم أهل الوجه البحرى كله سواء العرب أو القبط أو أهل البشمور أو البشرود حيث كانوا يعيشون فى المنطقة الرملية على ساحل الدلتا بين فرعى رشيد ودمياط وكانت تحيط بها المستنقعات والأوحال التى تعيق حركة الجند. وكانت معظم تلك الثورات بسبب كثرة الخراج الواقع على كاهلهم والقسوة التى كانت تستعمل فى جبايته[٧٥].

تلك الثورات ترصد لنا ملامح النسيج الواحد للأمة المصرية الممتد والمستمر عبر العصور من منطلق أن المسلمين والمسيحيين ينتمون إلى عنصر واحد بالمعنى العرقى ولم يشكل الوافدون (سواء من المسلمين ذوى الأصول العربية أو المسيحيين ذوى الأصول الرومية) سوى نسبة ضئيلة من السكان سرعان ما ذابت فى النسيج الواحد لمصر ؛ لأن أغلبية المصريين اعتنقوا الإسلام، وظلت النسبة

---

(٧٤) المقريزى: الخطط، ج ١، صفحات متنوعة

(٧٥) انظر / السيد محمد أحمد عطا: تاريخ الغربية وأعمالها فى العصر الإسلامى (سلسلة تاريخ المصريين العدد ٢٠٥، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة ٢٠٠٢م)، ص ١٠٣.

الباقية على ديانتهم المسيحية بيد أن هذا الرصد لا يعنى فى أى حال من الأحوال أن الأقباط المسيحيين عاشوا كجماعة معزولة داخل المجتمع، أو أن همومهم لا تتقاطع مع هموم بقية المصريين. ولكن الإدعاء كذلك بأنهم لا يختلفون عن الأغلبية، وبالتالى فلا مشكلات خاصة بهم، لا يخلو من الصحة كذلك، الأمر الذى يستدعى استنهاض همة الدولة للوفاء بتطلعات المصريين جميعا ومن بينهم الأقباط. وقد تخلصت الدولة للتو من نظام كان من بين آفاته إنكار وجود المشكلات والاستخفاف، وقصر النظر والتخلى عن مسؤولياته تجاه الوطن والمواطنين، والفرصة الآن مواتية، لتأسيس ديمقراطية حقيقية عمادها توحيد العناصر الثقافية المتنوعة وصهرها، ومواجهة موجات التطرف والمغالاة، ما يقف حائلاً دون تجدد حوادث الفتن والعنف الطائفى، أملا فى استعادة الوحدة الوطنية ما فاخر المصريون برسوخها.

تتابعت ثورات أبناء مصر: أقباط ومسلمين، الواحدة تلى الأخرى حتى وصل الأمر بأحد الثائرين إلى منابذة الخلافة العباسية وقطع الطرق، وتولى (الحسين بن جميل) (١٩٢ — ١٩٠ هـ) ولاية مصر من لدن الرشيد وتشدد فى جباية الخراج مما دفع أبو الندى مولى قبيلة بلى فى حوالى ألف رجل وأخذ يقطع الطريق وانضم إليه نفر من جذام، فأرسل الخليفة العباسى بـ (يحيى بن معاذ) على رأس جيش كبير من بغداد للقضاء على تلك الثورة، وتوجه (يحيى بن معاذ) إلى بلبيس فى (١١من شوال١٩١ هـ). وأخمد الثورة وجمع الخراج وكان يحيى بن معاذ هذا هو صاحب الخديعة التى تمكن بها

من الإيقاع برؤساء القبائل القيسية واليمانية بالحوف الشرقى والقبض عليهم، وتقييدهم فى السلاسل وخرج بهم إلى العراق فى منتصف رجب عام (١٩٢هـ)[٧٦] ولما ولى حاتم بن هرثمة مصر عام (١٩٤هـ) قدم فى ألف رجل ونزل بلبيس فصالحه أهل الحوف على أداء الخراج ولكنهم ما لبثوا أن نقضوا صلحهم وثاروا عليه فبعث إليهم جيشا قاتلهم وأخمد ثورتهم وأسر مائه من الرهائن من أهل الحوف الشرقى.

وعلى أثر وفاة الرشيد ونشوب الخلاف بين ولديه الأمين والمأمون عادت ثورات أهالى الحوف الشرقى القديمة لأن الأمين قد تحبب إليهم بأن عهد ببعض الوظائف الكبرى إلى رؤسائهم فضمن بذلك ولاءهم له حتى ثاروا فى وجه نائب المأمون عليهم وتغلبوا عليه وقتلوه، ولما استتب الأمر للمأمون عين عبدالله بن طاهر والياً على مصر وكان عظيم الهيبة حسن المذهب شجاعاً يعدل بين الرعية، واستطاع أن يوقف ثورات المصريين عامة ويعيد الهدوء إلى ربوع مصر[٧٧]، وعندما نقل عبد الله بن طاهر إلى خراسان عاد أبناء مصر إلى ثوراتهم حين تعسف صاحب الخراج صالح بن شيرزاد وظلم الناس وزاد عليهم فى خراجهم.

ووصل الأمر إلى أن جاء الوالى الجديد المعتصم (أخى الخليفة) ومعه قرابة أربعة آلاف من جنوده الأتراك وهاجم الشرقية، ولكن أهلها استطاعوا حرق أمتعته واختبئوا وراء جدران الفسطاط فاستطاع المعتصم أن يفتك بكثير من زعماء الثورة ونجح فى

---

(٧٦) المقريزى: الخطط، ج ١، ص ٨٠، ٣٠٩، ٣١٠.

(٧٧) مجلة مدرسة الزقازيق الثانوية،العدد السنوى ١٩٣٩م ،مرجع سابق، ص ٨١. وصفحات متنوعة

تفريقهم والقبض على "عبد الله بن حليس" زعيم القيسية و"عبد السلام الجذامى" زعيم اليمانية بالشرقية وتم للمعتصم ما أراد وقبض عليهما فى بداية رمضان، فقيدهما وسجنهما ثم قتلهما فيما بعد، ودخل المعتصم إلى الفسطاط منتصراً على الثوار فى (٨ رمضان عام ٢١٤هـ) وأقام بالفسطاط حتى تم له ما أراد، ثم خرج عائداً إلى بغداد، برفقة جنوده الأتراك، وجمع عدداً من أسرى الثورة أخذهم معه فى مسيره إلى العراق مشاة حفاة أمام خيالته[٧٨].

برغم ذلك لم تهدأ الثورة الشعبية على النظام الحاكم، فبعد مرور أربعة أشهر فقط من ولاية عيسى بن منصور (٢١٦- ٢١٧هـ) على مصر ثار عليه جميع أهالى مصر السفلى من القبائل العربية مسلمون وأقباط بسبب فساد السلطة فى مصر وبطشها بالأهالى واستخفاف النظام بالناس فى مصر حتى قرر الخليفة المأمون أن يحضر بنفسه إلى مصر ليقمع الثورات المتأججة التى لم تكن لتقف عند حد[٧٩].

والملاحظ أن الخليفة المأمون تفهم دوافع الأهالى ومعاناتهم فوجه اللوم للوالى وأخيه صاحب إقطاع مصر قائلاً: "لم يكن هذا الحدث العظيم إلا عن فعلك وفعل عمالك حملتم الناس ما لا يطيقون وكتمتمونى الخبر حتى تفاقم الأمر واضطربت البلد[٨٠]"

(٧٨) المقريزى: الخطط، ج١ ص ٨١، ٣١١.
(٧٩) راجع / سيدة إسماعيل كاشف، مصر فى فجر الإسلام، مرجع سابق، ٢٣٧.
(٨٠) المصدر السابق، ذات الصفحات.

وبرغم أن المأمون قتل الكثير والكثير من ثوار مصر، فلم تذهب أرواح الشهداء من أهل مصر فى مهب الرياح بل أتت ثورتهم ثمارها بعزل الوالى وعماله وولى آخرين.

كان من نتيجة هذه المعاناة التى عاشها المصريون فى ظل سياسة العباسيين فى استغلال موارد مصر أن أصبح المصريون يتوقون إلى وضع اقتصادى أفضل، خاصة وأن السياسة الضريبية كانت عاملاً مهماً فى كراهيتهم للحكومات الأجنبية التى حكمتهم قبل العرب مثل الفرس والإغريق والرومان الذين اعتبروا مصر بقرة حلوباً تدر الرخاء لهم فى أثينا وروما والقسطنطينية بينما يتضور المصريون جوعاً، فلما جاء الإسلام إليهم أحسوا بعدالته خاصة فى السياسة الضريبية التى اتبعها الولاة فى عهد الراشدين، لكن سرعان ما انقلبت الأمور وبدأ بعض الولاة فى التشدد فى الأمور المالية مما أثار حفيظة المصريين بعدما أصبح الخلفاء يعتبرون مصر سلة للخبز[81].

الطولونيون فى مصر

وفى غضون القرن الثالث الهجرى انقطع ما بين مصر ودولة بنى العباس لنمو الأفكار الاستقلالية، وتربع على عرش مصر آنذاك أحمد بن طولون (٨٦٨م - ٢٥٤هـ) الذى أنشا فى مصر دولة دانت لها الشام وبعض أقطار أخرى، وقد أدرك الطولونيون أن المنطقة الشرقية هى صمام الأمان لحكمهم واستقلالهم بمصر حين أدركوا أن الخطر المحدق بهم سوف يكون شرقى الهبوب وبصفة خاصة بعد أن ظهر تصدى الموفق - ولى عهد الخليفة المعتمد -

---

(٨١) أحمد سرحان: الحوف الشرقى، مرجع سابق، ص ١٧٠

لنزعتهم الاستقلالية فى مصر وجهوده المضنية فى سبيل تقويض دعائم هذا الاستقلال، لذلك كان على الطولونيين تأمين المدخل الشرقى لمصر، فقام خمارويه بن أحمد بن طولون بضم مجموعة جديدة من أبناء مصر دعم بهم قواته الثائرة واستعان بأبناء القبائل العربية فى منطقة الحوف الشرقى وأسماهم (المختارة).

وبعد وفاة خمارويه (٨٩٥م - ٢٨٢هـ) ولىَّ أمرُ مصر ابنه أبو العساكر فى (السابع عشر من ذى القعدة ٢٨٢هـ) فرأى فيه فقهاء مصر وقضاتهم سفاكاً للدماء لاستحلاله دم عمه (مضر بن احمد بن طولون) فأفتوا بعزله وخلفه شقيقه (هارون بن خمارويه) فى (العاشر من جمادى الثانى٢٨٣هـ) ولم يكن هارون هو رجل الساعة فطمع القرامطة فى بلاد الشام، وحاصروها (٩٠٣م -٢٩٠هـ) مما يدل على مدى الضعف الذى آلت إليه حال مصر(حيث كانت الشام تحت الحكم المصرى آنذاك) على يد أحفاد أحمد بن طولون ووقف الخليفة العباسى المكتفى فى بغداد على جلية الأمر فى مصر فأرسل أسطولاً ليعيد مصر إلى حظيرة الدولة العباسية ويظفر الأسطول العباسى بنصر ساحق على الأسطول المصرى عند تنيس (التى كانت مدينة عامرة أمر الملك الكامل محمد بهدمها وتخريبها سنة ٦٢٤هـ حتى لا ينزل الصليبيون بها وبذلك زالت من الوجود مدينة كانت من أكبر المدن الصناعية فى مصر الإسلامية). وزالت الدولة الطولونية بعد أن حكمت مصر ثمانية وثلاثين عاماً عادت بعدها إلى مكانها القديم من الدولة العباسية.

ولما بلغ أمر الهزائم الطولونية مسامع الأمير الطولونى " هارون بن خمارويه " فر هارباً إلى بلدة العباسة بالشرقية حيث لقى حتفه على يد عماه (عدى وشيبان) اللذان اتفقا على قتله لاستمراره فى لهوه

وسكره فتم ذلك فى ليلة (٢٠ من صفر سنة ٩٢٩هـ)[٨٢] ولقد جاء هروب الأمير الطولونى (هارون) إلى بلدة العباسة دليلاً على ما كان لتلك البلدة من منزلة فى نفوس أحفاد ابن طولون حتى فى أيام محنتهم ومن هناك أخذ يكاتب العمال والقادة مذكراً إياهم بجده أحمد ووالده خمارويه، طالباً وقوفهم معه، ولكن عبثا ما حاول.

وأثارت أعمال التخريب والتدمير والحرائق التى أشعلها محمد ابن سليمان الذى ولاه الخليفة العباسى مهمة القضاء على الطولونيين حفيظة الشعب المصرى وامتلأت صفحات الكتب بالأشعار التى ترثى الدولة الطولونية وأعمالها وتحسر الشعراء على أيامها الغابرة[٨٣] ولم يمض وقت طويل حتى وجدت الأشعار الشعبية صدى فى نفوس المصريين فحاول بعضهم أن يعمل على عودة الروح فى أوصال الدولة الطولونية.

فقامت ثورة شعبية قادها أحد أبناء مصر ويدعى (ابن الخليج) الذى ما لبث أن وجدت دعوته كثيراً من الأنصار المصريين وتوجه نحو الشرقية قاصداً العباسة[٨٤] واستمر (ابن الخليج) على عرش مصر سبعة أشهر واثنين وعشرين يوماً[٨٥]. ولا يمكن أن تفسر هذه الانتصارات السريعة والمتلاحقة لثائر مصرى صغير مثل (ابن الخليج) ومن قبله أحمد بن طولون إلا بدعم الشعب المصرى له وتحمسه لفكرة الثورة التى أعلنها ضد الدولة العباسية التى قضت على دولة لها فى مصر طابع قومى بدعم شعبى[٨٦].

---

(٨٢) المقريزى: الخطط، مصدر سابق، نفس الصفحة.

(٨٣) الكندى: مصدر سابق، ص ٢٥٠.

(٨٤) أحمد شحاتة: مرجع سابق، ص ١٨٢.

(٨٥) أحمد حسين: موسوعة تاريخ مصر، ج ٢ ، ص ٤٩٨ .

(٨٦) حسن محمد و سيدة كاشف: مصر فى عصر الطولونيين والإخشيديين،طبعة الأنجلو المصرية، ١٩٦٠، ص ١٢٧ ، ١٢٨وانظر احمد شحاتة: مرجع سابق، ص ١٨٣.

وبعد أن أُقصِى (ابن الخليج) عن حكم مصر، اختلف عليها ولاة من قبل العباسيين استبد بهم الجند وأصحاب الخراج وضاع سلطان أولئك الولاة بين جشع الجند فى طلب المال وضن عمال الخراج به على الولاة، فلا عجب أن تكون مصر أثناء هذه الفترة نسياً منسياً تغط فى سبات عميق إلا من الدسائس التى يدبرها الجند وأعوانهم فيقع فى حبائلها الولاة الذين ظلت أمورهم معلقة بيد رجال الجيش إلى أن ولى مصر من قبل الخليفة العباسى "الراضى" محمد بن طغج الإخشيد والذى بدأت علاقة مصر بالإخشيديين فى أثناء تولى محمد الإخشيد حكم الحوف الشرقى مضافاً إليه الحوف الغربى (اصطلاح جغرافى للأراضى الواقعة إلى الغرب من فرع رشيد)، ولقد أصبح والياً للحوفين فى عهد والى مصر تكين[87].

الإخشيديون فى مصر

وبعد أن آل أمر مصر للإخشيديين أنشأ "محمد الإخشيد" حكومة مستقلة قوية مهيبة الجانب يخشى الخليفة بأسها لدرجة أثارت حفيظته وغضبه على الإخشيدى فعين له منافساً بمصر وهو (محمد بن رائق) الذى وهب له الخليفة مصر على الرغم من وجود الإخشيد بها، وبينما يهم ابن رائق بالحضور إلى مصر لتسلمها خف الإخشيد لملاقاته واتخذ لنفسه ولجيشه من الشرقية قاعدة انطلاق نحو العريش حيث هزم ابن رائق ومن التف حوله.

وبعد وفاة الإخشيد تولى بعده ابنه (أنوجور) ولما كان لا يزال صغير السن صار أستاذه (كافور) مدبر مملكته والذى ما لبث أن

---

(87) ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، مصدر سابق، ج ٣، ص ٢٣٧.

أصبح حاكم مصر الفعلى بعد موت آخر أبناء محمد الإخشيد، وقلده الخليفة العباسى حكم مصر (بلقب أستاذ مصر وممتلكاتها) وما هى إلا سنوات قلة ويموت كافور سنة (٩٦٨ م) ومصر آنذاك تمر بطور من أحلك أيام تاريخها بسبب انخفاض النيل واستمرار القحط واشتداد الغلاء وكثرة الموتى وشيوع الفوضى فقد تعرضت مصر فى أواخر العهد الإخشيدى إلى الكثير من الضائقات الاقتصادية، فقد وقع الغلاء فى سنوات (٣٣٨هـ، ٣٤١هـ، ٣٤٣هـ،) ثم أصاب البلاد الغلاء الشديد الذى استمر تسع سنوات ابتداء من عام (٣٥٢هـ) بسبب نقص فيضان النيل وأدى ذلك إلى القحط والجدب واختفاء القمح واضطربت الأحوال وكثرت الاحتجاجات الشعبية ونهبت الضياع. وقد أهملت مصر التى كانت تنتهكها الفتن والاضطرابات الداخلية والثورات الشعبية التى عصفت بالأسرة الإخشيدية وأركان الدولة فى أواخر عهدهم والتى رافقتها الشدة الاقتصادية التى كانت سببا فى ضعفها والتعجيل بسقوطها.

مصر.. خلافة فاطمية

وأحكم التاريخ خطته وفرض حكمه فاستولى الفاطميون على مصر[٨٨]. إذ كان من آثار ما حل بالعلويين من اضطهاد بعد قيام الدولة العباسية أن لجأ بعضهم إلى بلاد المغرب لبعدها عن مركز الخلافة وتتجه أنظارهم فيما بعد إلى مصر بعد أن استقام أمرهم فى المغرب الأقصى.

---

(٨٨) سعيد عاشور و عبد الرحمن الرافعى: مصر فى العصور الوسطى، ط١، القاهرة ١٩٧٠، ص١٩١، ١٩٠.

وهكذا بدأ الحكم الفاطمى لمصر (سنة ٩٥٩ / ٣٥٨ م)، وما لبث الفاطميون فى مصر ينافسون العباسيين فى بغداد أبهة وثراء حتى نمت القاهرة وذاع صيتها كما شهدت أحداثاً مهمة فى تاريخ الدولة الفاطمية ولعل منها هجوم القرامطة على مصر بعد سنة ٣٦٠هـ / ٩٧١م. مما شجع أهالى الفرما وتنيس على الثورة على الفاطميين، فغيروا دعوتهم ولبسوا السواد - شعار العباسيين - ولم يرجع الهدوء الدائم إلى هذه الأقاليم إطلاقاً بين سنتى ٣٦٠ / ٩٧١ ٣٦٣ / ٩٧٤ ، حتى تمكن جيشاً بقيادة "أبو محمد بن عمار" كانت تحت إمرته أكثر من عشرة آلاف رجل من القيام بسلسلة من عمليات الردع العنيف لسكان هذه المناطق[٨٩]. ويروى لنا التاريخ فى سنة ٤٥٧هـ (١٠٦٤م) - فى خلافة المستنصر الفاطمى - قصّر النيل فى فيضانه، فقلت المحصولات واختفت الأقوات - وخاصة القمح والخبز - من الأسواق، واستغل التجار المحتكرون الجشعون الفرصة كالعادة واختزنوا الغلال والدقيق ليبيعوهما فى السوق السوداء، ويطلبون بذلك الثراء الحرام الفاحش على حساب أرزاق الناس.

ثورة جياع أم ثورة سباع؟!

وظل النيل على قصوره حتى اختفى الخبز تماماً من أسواق القاهرة والفسطاط، وطلب الناس الرغيف الواحد بخمسة عشر ديناراً، فما وجدوه، ويروى التاريخ أن سيدة ثرية من نساء القاهرة آلمها صياح الأطفال من الجوع فاشترت كيساً من الدقيق مقابل

(٨٩) أيمن فؤاد سيد أحمد: الدولة الفاطمية فى مصر، تفسير جديد (الدار المصرية اللبنانية، ط ١ القاهرة ١٩٩٢م)، ص ٧٨.

عقداً ثمينا من اللؤلؤ قيمته ألف دينار، واستأجرت بعض الرجال يحملون لها الكيس حتى تصل إلى بيتها، ولكنها لم تكد تخطو بعض خطوات حتى هاجمها الجياع من كل ناحية، فاغتصبوا الكيس وما فيه ولم يتبق لها سوى حفنة دقيق، فخبزتها ثم أخفتها فى ملابسها وخرجت إلى الشارع وفى عنقها طبلة كبيرة تدقها وهى تنادى: "الجوع.. الجوع.. الخبز.. الخبز.." والتف حولها الرجال والنساء والأطفال وقادت بهم مظاهرة سلمية حتى قصر الحكم،ووقفت تصيح فى الناس وهى ترفع قرص الخبز فى يدها :"أيها الناس: فلتعلموا أن هذه القرصة تقومت علىَّ بألف دينار، فادعوا معى لمولاى السلطان!" فكانت تلك المظاهرة هى بداية لاتخاذ السلطة الحاكمة إجراءات أكثر صرامة لمنع الاحتكار فى الأسواق وفى ساعات قليلة امتلأت الأسواق بالقمح ووقف الباعة أمام حوانيتهم ينادون على الخبز كل رطلين بدرهم وطعم الشعب وفرح. وخرجت سيدة الأمس العظيمة فقادت مظاهرة أخرى تهزج أهازيج الفرح وتنشد أناشيد الشكر للخليفة أمير المؤمنين.

بذلك قادت تلك المرأة المصرية المجهولة أول مظاهرة للنساء فى القاهرة قبل مظاهرة النساء فى باريس بسبعة قرون حين قامت إحدى نساء باريس فى ٥ أكتوبر سنة ١٧٨٩م بمظاهرة من باريس إلى فرساى، وهى تحمل فى عنقها طبلة تدقها منادية: "الخبز..الخبز.."(٩٠).

---

(٩٠) جمال الدين الشيال: دراسات فى التاريخ الإسلامى (مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة ٢٠٠٠م.)، ص ٥٣.

وإذا كانت أزمة الخبز قد حُلت فى عهد المستنصر فإن مصر تخلصت للتو من نظام اختار أن يتجاهل تلك المشكلات وأخذ يتباهى بمعدلات التنمية الاقتصادية الزائفة وصم أذنيه عن صيحات الشعب التى توالت: "يا وزراء طفوا التكييف..مش لاقيين حق الرغيف". وكان فى رأى النظام الذى تنكر لأية مسؤولية عليه أن الأزمة تكمن فى الناس أنفسهم لأنهم "بيزيدوا "[٩١] ويستخدمون الخبز المدعم لإطعام الطيور والمواشى، والغريب أن تستمر حكومة الرئيس السابق مبارك آنذاك فى هذا الزعم رغم أن تفشى مرض أنفلونزا الطيور كاد أن يقضى على تربية الدواجن فى مختلف بيوت الريف والحضر.

كما تبين من تحقيقات وتقارير صحف مصرية حكومية ومعارضة ومستقلة فى الفترة الأخيرة من عهد مبارك أن الفلاح المصرى بعد الارتفاع الرهيب فى أسعار الأعلاف والبرسيم والدقيق والقمح والأرز والذرة، لم يعد يطعم ماشيته سوى قش الأرز والذرة، مما يضعف صحة الحيوان نفسه.

وزعمت حكومة النظام أيضا أن الارتفاع فى الأسعار العالمية للحبوب من قمح وذرة وأرز وراء قرارها بتقليص حاد فى الكميات التى تدعمها من القمح والدقيق أو الطحين مما نتج عنه توفر كميات قليلة من الطحين الموجه للخبز الأسمر المدعم ورفع الدعم عن الدقيق الفاخر.

وهذا يعنى أن الأزمة كانت أزمة نظام مبارك نفسه. أزمة الفساد والاستبداد وهدر الموارد وأزمة اختيار سياسى يصب فى خانة

(٩١) بيزيدوا "من أشهر العبارات المستفزة للرئيس المصرى السابق " مبارك" فى رده على حلول كل الأزمات الاقتصادية.

الانحياز التام للأغنياء والأثرياء الجُدد، حيث كان نظام مبارك ومن قبله نظام السادات انتهج سياسة تستهدف خلق شريحة ضيقة اجتماعيا تحتل قمة الهرم الاجتماعى لكسب ولاء هذه الشريحة للنظام ودعم استبداده السلطوى سياسيا وحكمه الفاسد ماليا واقتصاديا وإدارياً.

الأمر الذى جعل الغالبية الساحقة من المصريين تعانى يوميا من جراء نقص الخبز المدعم وتنفق هذه الغالبية وقتا طويلا يبدأ بعد صلاة الفجر مباشرة وقد يستمر حتى إغلاق المخابز عند الثالثة بعد الظهر. حيث كان يتناوب أفراد الأسرة الواحدة الوقوف فى الطوابير للحصول على ٢٠ رغيفا فى أقصى حد للفرد، وهذا الانتظار فسره الكثيرون بأنه أسلوب آخر من أساليب النظام المصرى الأمنية فى الأساس لإهدار طاقة وصحة الناس فى طوابير جديدة ومتجددة.

فمن طوابير انتظار عبوة (جركن) المياه المتجددة كل صيف فى بلد يجرى فيه نهر النيل بموارده الوفيرة، إلى طوابير الازدحام أمام وسائل النقل العام والخاص، إلى تكدس المرور، إلى طوابير تبدأ من الفجر أيضا لاستخراج الشهادات اللازمة لإعادة بطاقات التموين المدعم.

وذلك حتى لا يكون لدى المصريين أى وقت للتفكير فى استبداد النظام وفساده المُركب المنظم الأخطبوطى، والمتداخل بين نخبة الدولة ونخبة ضيقة للغاية من كبار رجال الأعمال ممن احتكروا معظم مصادر الثروة والقروض وتهريب الأموال للخارج(٩٢).

---

(٩٢) للمزيد عن تفاصيل أزمة الخبز فى عهد النظام الرخو لمبارك راجع / احمد ثابت: أزمة الخبز المصرى بين فساد الحكم وتحيزه للأثرياء الجدد. نقلاً عن:

htt:/www.aljazeera.net/NR/exeres/89092D30-1708DA-B03C-SA94049724A3.htm

وكان عدم نجاح النظام السابق فى احتواء الظاهرة وعدم اقتلاعها من جذورها " إعلانا صريحا بفشل الأجهزة المعنية فى مواجهة مسؤولياتها,وشرعية استمرارها فى سدنة الحكم ".

كان طبيعياً أن تؤثر هذه المجاعات والأزمات والكوارث على مجريات الحياة فى المجتمع المصرى بل وعلى الحياة داخل حدود المجتمع المصرى حديثاً,وهو بعينه نفس المشهد التاريخى قديماً فى دولة الخلافة الفاطمية المترامية الأطراف بين إفريقيا وآسيا وأوربا، طالما كان المجتمع يتبادل التأثير والتأثر بين كل أجزائه، فما أن يصيب أحد جوانب الحياة متغير حتى تتأثر الجوانب الأخرى بهذا المتغير[٩٣].

وإذا كان تأثير المجاعات قد امتد لشمل جوانب الحياة المختلفة، سواء كانت اقتصادية أو سياسية أو اجتماعية، فإن درجات التغيير التى أصابت هذه الجوانب تراوحت عمقاً من جانب لآخر ومن مجاعة إلى أخرى، ومن الصعوبة بمكان رصد هذه المظاهرات والاحتجاجات الشعبية باعتبارها ردود فعل آلية، تحدث فجأة وبلا مقدمات، إذ هى أقرب إلى التفاعل الكيماوى بين مجموعة من المواد المختلفة (الحوادث التاريخية) التى تخرج لنا بمادة جديدة رغم أنها فى الأصل مزيج من مواد قديمة، وبمعنى آخر فإن توالى أحداث المجاعات من الممكن أن يحدث تغيرات كمية ضئيلة فى كل مرة وتتراكم هذه التغيرات الكمية حتى تصل إلى مرحلة تاريخية معينة، تتحول فيها إلى تغير كيفى ملموس هذا بالإضافة إلى ما كانت فيه المجاعات كعامل دفع ساعدعلى تطور أوضاع بعينها إلى منتهاها[٩٤].

---

(٩٣) أحمد السيد الصاوى: مجاعات مصر الفاطمية، أسباب ونتائج، (دار التضامن للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت ١٩٨٨م)، ص ٧٥.
(٩٤) أحمد السيد الصاوى: مجاعات مصر الفاطمية، ص ٧٥.

إذ دفعت المجاعة المروعة - فى عهد المستنصر - بالجائعين إلى الطرقات يقطعونها وخرج العامة واستغاثوا إلى متولى شرطة الفسطاط بعد أن نهبهم العامة الذين يسكنون بكوم دينار، فسار معهم إلى مساكنهم وتسلم منهم ما وجدوه وسلمه إلى أصحابه واعتقل الجناة، وعاشت البلاد حالة من الفوران والفوضى أثناء الشدة المستنصرية وأعمل الجند السلب والنهب ونشط الأشرار وقطاع الطرق والبدو وأصبحت السبل وطرق المواصلات البرية والنيلية غير آمنة بسبب تعرض المسافرين لنهب اللصوص واعتداء الجند، واشتد خوف الناس بمصر سنة ٤٦١ هـ / ٦٨ - ١٠٦٩م. وكثر الخطف والقتل فى الطرقات ليلاً ونهاراً، فأصبحت الطرق غير آمنة إلا بالخفارة الكبيرة، وصار مجرد السير مغامرة غير مأمونة العواقب[٩٥].

وتنكر الزمان لخلفاء الدولة الفاطمية فى النصف الأخير من حياة دولتهم فضعف سلطانهم وأصبحت نهباً لمن ولى الوزارة ممن قست قلوبهم وأصبحت الوزارة شبه وراثية يتوارثها الأبناء عن الآباء، وجرت هذه الظاهرة الغريبة فى أذيالها كثيراً من الدسائس والمؤامرات والثورات والفوضى فى مصر[٩٦].

لحن الختام.. الحزين

واستمرت أحوال مصر كذلك حتى الفصل الأخير من الرواية الذى أُسدل بعده الستار على عهد الفاطميين، وتألق نجم صلاح الدين بعد ذلك على مسرح السياسة المصرية، وإنما نقصد بالفصل

---

(٩٥) المرجع السابق، ص ١٠٥.

(٩٦) أحمد حسين: موسوعة تاريخ مصر ,مرجع سابق، ص ٥٩١ .

الأخير من الرواية التى مثلت الفوضى والاضطراب ذلك النزاع بين الوزيرين المصريين شاور وضرغام الذى أمتد لظاه خارج حدود مصر إذ عول كل منهما - إمعاناً فى الكيد لخصمه - على إن يستعين بجيوش غير مصرية للفتك بمنافسيه، وما هم فى الواقع إلا عشيرته وذوى قرباه وبنى جلدته ووطنه متناسياً كل مصريته ضارباً بكل ما أمامه عرض الحائط سوى كرسى الوزارة والحكم حتى دفع كل منهما - ثمناً لذلك العقوق - حياته رخيصة على سيوف من طلب العون منهم، وتنهار الخلافة الفاطمية لتصبح مصر نقطة تحول محورية فى حياة قائد من الأكراد يُدعى: صلاح الدين الأيوبى ليؤكد التاريخ أن مصر قد صنعت لهؤلاء الحكام جميعاً أكثر مما صنعوا لها وأن هؤلاء الذين أتوا من الخارج لم يصنعوا تاريخ مصر كما يقال بل مصر صنعت تاريخها وصنعتهم هم أيضا .وقد رأينا كيف دخل (عمرو بن العاص) مصر قائداً عادياً وخرج منها من بناة الدول ومصر جعلت من الكثير منهم من صناع التاريخ وماذا صنع أحمد بن طولون - مثلاً - لمصر؟ وماذا كان يستطيع محمد بن طغج الإخشيد أن يصنع لها بدونها؟ وصلاح الدين الأيوبى من كان يسمع به قبل أن يدخل مصر؟ ويخرج منها قائداً يخشى بأسه العالم !!

الناصر صلاح الدين[٩٧] فى مصر

بينما مصر ترسف تحت نير الشهوات الشخصية، وبينما حكام مصر فى ضلالهم يعمهون، إذ بشبح الحروب الصليبية الذى كان قد لاح فى الشرق يتهدد مصر وينذر بالويل والثبور ويرى فى مناجزة

(٩٧) الناصر صلاح الدين فى مصر (٥٧١ - ٦٤٨هـ / ١١٧٥ - ١٢٥٠م).

الوزيرين شاور وضرغام خير فرصة لأن يدمغ انتصارات الفرنجة فى الشرق بوضع أغلالهم فى أعناق مصر، فيؤكدون بذلك نجاح أغراضهم فى تسويغ قتلنا.

ولولا أن للكنانة رباً يحميها لأدى ذلك النزاع بين وزراء مصر إلى أسوء العواقب، ولتغير وجه التاريخ فى مصر والمنطقة العربية، لذا يجب أن نسهب بعض الإسهاب فى هذا الدور من تاريخ مصر لأهمية النتائج التى ترتبت عليه من جهة، ولأنه من جهة أخرى يلمس بشدة الموضوع الذى نحن بصدده فى كثير من نواحيه.

كانت دولة عماد الدين زنكى التى ارتكزت على محور الموصل، حلب هى السابقة التاريخية، أو التجربة الأولى فى صياغة الدولة العسكرية الموحدة تحت راية قائد واحد يقود جيشه بنفسه فى ميدان الحرب[٩٨]، ثم ابنه "نور الدين محمود " فأخذ الواحد منهما يسدد ما فى جعبته من سهام إلى صدر الصليبيين حتى ذهب ريح الحملة الصليبية الثانية، وهنا اشرأبت الأعناق إلى مصر: كنانة الله فى أرضه. لا سيما أن حبل الأمور فيها قد اضطرب فى يد الخليفة العاضد آخر خليفة فاطمى بين نزاع الوزراء على تولى الوزارة.

وما لبث أن شهدت الشرقية صراعاً حاداً بين عمورى الأول (ملك بيت المقدس الذى تولى سنة ١١٦٢م) والدولة النورية (دولة نور الدين محمود) حيث كانت مصر قد وصلت إلى حالة من الفوضى السياسية بعد أن سيطر الوزراء على الحكم بها فمهد ضرغام (الوزير المصرى الفاطمى) للصليبيين طريق الاتجاه إلى مصر بأن طلب إليهم الحضور إليها ليضمنوا له الوزارة دون (شاور) غريمه الذى استعان بدوره بسلطان حلب "نور الدين محمود " لنفس

---

(٩٨) المرجع السابق، ص١٧٨

الأمر، فما هى إلا عشية أو ضحاها حتى كانت جيوش نور الدين بقيادة أسد الدين شيركوه وصلاح الدين الأيوبى على أبواب مصر تحارب جيوش ضرغام عند بلبيس[٩٩].

ولم يلبث ضرغام أن قُتل فى آخر جمادى الآخرة من نفس العام، وفاز شاور بما كان يبغى ولكنه بدأ يتنكر لحلفائه وناصريه ولم يف بما تعهد لهم به من الاضطلاع بنفقات حملة " نور الدين " وتخصيص ثلث إيراد مصر لسلطان حلب كجزية سنوية وتناسى وعوده المعسولة لنور الدين ورفض أن يدفع المال المتفق عليه لشيركوه، بل طلب منه سرعة الخروج من مصر[١٠٠]، ويا ليته اكتفى بهذا الموقف السلبى بل إنه مد يده إلى الصليبيين واتخذ من أعدائه بالأمس أصدقاء ضد شيركوه الذى كان قد احتل بلبيس رداً على موقف شاور الناكر للجميل، واستمر شيركوه فى فتح باقى البلدان المجاورة، وأرسل صلاح الدين نائبا عنه فى تلك البلاد؛ يجمع منها الخراج النقدى والعينى، وتمكن صلاح الدين من السيطرة على الحوف الشرقى " إقليم الشرقية "، بينما ظل شيركوه محاصراً للقاهرة وشاور بها. وبهذا تعتبر الشرقية أول إمارة نورية تابعة لإمارة نور الدين محمود تأخذ بالمذهب السنى، فى حين أن باقى الإقليم المصرى كان لا يزال على المذهب الشيعى الفاطمى[١٠١].

---

(٩٩) على السيد على بالاشتراك: الأيوبيون والمماليك، التاريخ السياسى والعسكرى، (عين للدراسات)، الطبعة الثانية ١٩٩٦ص٢٣.

(١٠٠) المرجع السابق، ص ٢٥.

(١٠١) محمد فتحى الشاعر، الشرقية فى عصرى السلاطين الأيوبيين والمماليك، دار المعارف، ط١٩٩٧ ص ص ٢٧، ٢٦. وللمزيد انظر: نظير حسان سعداوى، نظام البريد فى الدولة الاسلامية (القاهرة،١٩٥٣م)، ص١٤١ وما بعدها.

تقدم عمورى ملك بيت المقدس نحو بلبيس أواخر شعبان وأوائل رمضان (سنة ٥٥٩هـ)، وضيق الخناق على شيركوه فى بلبيس، حيث أخذ شيركوه يقوى دفاعاته عن مدينة بلبيس، وساعده عرب كنانة - الضاربون بالحوف الشرقى - مساعدة كبيرة بالأموال والسلاح، وانضموا لصفوف قواته ثائرين على الوزير الخائن[١٠٢].

وتمكنت قوات الصليبيين من محاصرة شيركوه داخل بلبيس لمدة ثلاثة أشهر، ولم يرفع الحصار إلا بعد أن جاءته الأنباء بأن نور الدين أخذ يهوى بجنوده على أملاك الصليبيين فى الشام، فصمم عمورى على العودة سريعا، وفاوض شيركوه فى الصلح - ولم يكن يدرى أنباء انتصارات نور الدين - فقبل واتفقا على أن تغادر جيوش الطرفين مصر. (وفى أكتوبر سنة ١١٦٤م - ٥٥٩هـ) غادر جيش شيركوه وتلاه جيش عمورى.

ولقد تحدث المقريزى عن مقتل عدد كبير من بنى كنانة بالشرقية الذين ساعدوا شيركوه فى صد حصار عمورى له، وهذا يدل على المعاناة والآلام التى لقيها سكان الحوف الشرقى وعاصمته بلبيس[١٠٣]. ولم تقف مطامع الصليبيين والدولة النورية عند هذا الحد نحو مصر بل نرى الرواية لم تتم فصولها، فقد عول نور الدين على أن يرسل جيشه هذه المرة غازيا بعد أن، تكشفت أمام رجاله مواطن الضعف فى مصر، كما طلب شاور (وقد خاف مغبة مجئ قوات نور الدين محمود) من الصليبيين أن يرسلوا حملة إلى مصر لتمنع هجمات جيوش نور الدين، ولم يلبث الجيشان السلجوقى

---

(١٠٢) على السيد على، الأيوبيون والمماليك، مرجع سابق، ص٢٥.

(١٠٣) أحمد شحاته سرحان، دراسات فى تاريخ مصر الإسلامية من الفتح العربى حتى نهاية الدولة الفاطمية، ط جامعة الزقازيق،١٩٩٨/١٩٩٩ م، ص٢٧١.

(جيش نور الدين) والصليبيين أن هبطا مصر معا فى وقت واحد وعاد شيركوه إلى بلبيس وأخذ يقوى دفاعاته استعداداً للمقاومة ضد الخطر الصليبى المحدق بها وساعده أهل الشرقية مساعدة كبيرة بالأموال والسلاح، فضلاً عن انضمامهم إلى صفوف قواته.

وبينما كانت قوات الحملة الصليبية بقيادة عمورى، تحث الخطى فى أراضى الشرقية حتى وصلت إلى فاقوس فى نفس الوقت كان شاور قد خرج بقواته إلى بلبيس حين علم أن عمورى وقواته قاربوا المدينة، والتقت القوتان على أبواب بلبيس فى مواجهة شيركوه وبرغم ذلك فقد صمد شيركوه فى الدفاع عن بلبيس مدة الثلاثة أشهر فى قتال دائم صباح مساء وهناك دخل اليأس نفس عمورى وبدأت المفاوضات بينهما وانتهى الأمر بأن تصالح الطرفان على إخلاء مصر منهما معا، واتفقا على عدم التدخل فى شئون مصر أو الاعتداء عليها(١٠٤). وعاد الفرنجة إلى فلسطين أشد ما تكون نفوسهم تحرقا إلى مصر وخيراتها، وعاد شيركوه إلى الشام، ولم يمض عام واحد على الهدنة حتى نقض عمورى عهوده ليغزو مصر من جديد ناسيا ما أبرمه من مواثيق بحجة أن لا عهد عليه لكافر(يقصد أسد الدين شيركوه). وغادر عمورى عسقلان فى (٣٠ من يناير سنة ١١٦٧م ٥٦ ٢هـ) بقواته، متوجها إلى الشرقية ومصر للمرة الرابعة، وفى أيام قلائل كانت جيوش الصليبيين عند بلبيس حيث استراح عمورى بها شهراً وحمل إليه شاور الأموال والهدايا ثم غادرها فى طريقه إلى القاهرة حيث نزل حولها ويبدو أن شيركوه قد اتخذ طريقه نحو الجيزة ثم توالت الأحداث حتى وصل إلى

---

(١٠٤) المرجع السابق، ص ٢٧٤. وللمزيد: انظر/أحمد السيد: الحوف الشرقى، رسالة دكتوراه، آداب الزقازيق ،١٩٩٥ ص: ص١٤٥- ١١١.

الإسكندرية ليجد العون والمساندة ومرة أخرى ينتهى الأمر بعقد اتفاق على أن يغادر الطرفان مصر فى وقت واحد.

وفى جولة الصراع الأخير بين عمورى وقوات نور الدين للاستيلاء على مصر خرج عمورى الأول (ملك بيت المقدس) وأسد الدين شيركوه (قائد قوات نور الدين محمود صاحب دمشق) وكلاهما يمنى النفس بالاستيلاء عليهما ولكن أسد الدين شيركوه كان أكثر تحرقاً إلى مصر لما رآه من تعاون شاور مع أعداء الأمة وهنا يضرب (الكامل) ابن الوزير شاور المصرى المثل والقدوة للشاب العربى المصرى الذى يقف ضد مطامع والده ـ ليس عقوقاً له ـ بل لصالح الأمة الإسلامية والعربية وجاهر والده بذلك حين عزم شاور على قتل شيركوه مدعياً أنه إن لم يقتله فسوف يقتلهم شيركوه. فقال لوالده:"لئن نقتل ونحن مسلمون والبلاد بيد المسلمين، خير من أن نقتل وقد ملكتها الفرنج" وهذا ابلغ دليل على أن هذا الشاب المصرى (الكامل بن شاور) كان مدركاً للخطر الصليبى المحدق بالمنطقة وببلاد الإسلام.

وفى (منتصف المحرم سنة ٥٦٤هـ) اتجه عمورى إلى الشرقية ووصل إلى أطراف بلبيس فى أول صفر، غير أن عمورى لاحظ تغييراً فى موقف المصريين من أهل الشرقية منه، فقد أغلق الأهالى المدينة وثاروا ضده، ولكنه استطاع فتح بلبيس بالقوة وأمعن فى أهلها فتكاً وقتلاً ولم يفرق بين مسلم ومسيحى ويهودى[١٠٥].

وقد ذكر المؤرخ أبو شامة: أن عمورى قد قسم أسرى بلبيس إلى فرقتين بعد إخراجهم إلى ظاهر المدينة، وأخذ نصفهم لنفسه

---

(١٠٥) نفسه، ص ٣٧٨.مع صفحات متنوعة

وأطلق النصف الباقى لجنوده، وقيل إن عدد الأسرى الذين خرج بهم عمورى من مصر أثناء عودته بلغ اثنى عشر ألف أسير، وقد ورد أن أسرى بلبيس هؤلاء ظلوا فى أسر الصليبيين طوال أربعين عاما، وأن أكثرهم مات فى الأسر، وحيث تولى صلاح الدين مصر أوقف موارد بلبيس والشرقية على افتداء أسراها، كما سامح أهالى بلبيس من دفع الخراج المقرر عليهم حتى آخر أيامه. وهذا يدل على مدى تقدير صلاح الدين لدور أهالى بلبيس واستبسالهم فى التصدى للهجمات الصليبية الشرسة(١٠٦).

ويبدو أن عمورى حين سار بقواته البرية نحو مصر قادما من عسقلان أرسل قوة بحرية قوامها ثلاثون مركبا حربيا، للمعاونة فى الاستيلاء على مصر وأن هذا الأسطول انحدر إلى بحيرة تنيس(وهى مدينة مندثرة)(١٠٧) واستولى على المدينة ونهبوها، ثم استمر انحداره فى النيل باتجاه القاهرة، لكنه لم يتمكن من التقدم أكثر مما وصل إليه بالقرب من ناحية " منية زفتى "مقابل" منية غمر " الواقعة على الشاطئ الشرقى لفرع دمياط وذلك بسبب العراقيل التى وضعها المصريون من المصريين فى مجرى النهر وتمكنوا بذلك من إجبار الأسطول الصليبى على العودة بمراكبه فرارا، وقد أكد ذلك المؤرخ وليم الصورى(١٠٨).

---

(١٠٦) أحمد سرحان، دراسات فى تاريخ مصر، ص ص ٣٧٩، ٣٨٠

(١٠٧) كانت تنيس كورة الشرقية فى العصر الإسلامى من أكثر كور مصر السفلى ازدهاراً من الناحية الصناعية فقد مورست الصناعات فيها خلال هذا العصر فى أربعة مراكز هامة هى تنيس وتونة وبلبيس والفرما. انظر:عاصم محمد رزق: مراكز الصناعة فى مصر الإسلامية من الفتح العربى حتى مجئ الحملة الفرنسية. (سلسلة الألف كتاب الثانى ,العدد ٦٨، القاهرة ١٩٨٩م)، ص١٦٢

(١٠٨) نقلاً عن: أحمد شحاتة سرحان: الحوف الشرقى، ص ٢٨٢.

وهكذا أثبت المصريون تحديهم لجحافل الصليبيين حيثما حلوا- فى البر أو البحر- وكان من نتيجة ذلك أن نصب الصليبيون لهم المذابح حيث تمكنوا منهم كما سبق ذكرنا. وحين دخل شيركوه القاهرة وقابله المصريون بالترحيب إلا شاور الذى عاوده مكره القديم ففكر فى أن يبيت النية لجيش المسلمين، ولكن الله رد كيده فى نحره فقبض عليه صلاح الدين وأسره. ولما أحاط الخليفة العاضد بالأمر علما أرسل من يطلب رأس شاور ثم تابع الرسل خشية أن يفر " وجىء برأسه إلى الخليفة الفاطمى العاضد الذى جن فرحا للتخلص من غدار أثيم فى (أواخر ربيع الآخر سنة ٥٦٤هـ/يناير ١١٦٩م).

وعهد العاضد بعد ذلك بالوزارة إلى شيركوه، ومن بعد شيركوه تولى صلاح الدين الوزارة الذى قاد انقلاباً سياسياً فى (عام٥٦٧هـ١١٧١/م) للقضاء على الخلافة الفاطمية ذات المذهب الشيعى وأعاد الخطبة للخلافة العباسية فى بغداد، وأمر الخطباء بالدعوة للخليفة العباسى "المستضئ" فى السابع من المحرم وأعاد ارتداء السواد شعار العباسيين وخطب لصلاح الدين على المنابر بعد الخليفة العباسى ونور الدين وتوفى الخليفة الفاطمى "العاضد" بعد هذا الانقلاب بثلاثة أيام دون أن يسمع بزوال ملكه وسقوط دولته.

الأيوبيون.. والتاريخ المسكوت عنه

لقد كان لدولة الفاطميين فى نفوس بعض المصريين من أتباع الفاطميين وخاصة طائفة الإسماعيلية مكانة كبيرة حيث كانت تعنى بالنسبة لهم مصر المستقلة القوية، والتى كانت تناوئ فى عهد قوتها خلافة العباسيين، والتى كانت تعتمد عليهم فى دواوينها بالإضافة إلى أن أيامها كانت فى مصر أعياداً متصلة ولم يعرف لها مثيل من

قبل للمسلمين وللمسيحيين عل حد سواء[١٠٩] وكانت تعرف لدى بعض المؤرخين بدولة المصريين[١١٠] وقد عبر بعض المؤرخين عن وفائهم لتلك الدولة، وحزنهم وجزعهم على زوالها من خلال رثائهم لوفاة الخليفة الفاطمى العاضد[١١١].

وكان لسقوط الخلافة يعنى لدى بعض المصريين ؛ ضعف مركزهم الإقليمى وعودة تبعية بلادهم لخلافة عباسية تتهاوى، ودخولهم فى طاعة حاكم عسكرى استبعد من دواوين حكومته كل رجال النظام السابق وأخرجهم من الجيش والوظائف المهمة واستولى على قصور الخلافة لنفسه ولعشيرته، وأغدق عليهم الإقطاعيات والأراضى، وانخفضت القيمة المصرفية للعملة المصرية واختفت العملة الذهبية والفضية من التداول منذ مجئ صلاح الدين، وظهور عملة نحاسية رديئة بدلاً منها وهى الفلوس.[١١٢]

وبقدر مشاعر الفرح التى سادت أرجاء الدولة العباسية بعودة مصر لدورها فى الخلافة السنية، قابلتها مشاعر الحزن والأسى فى قلوب بعض المصريين الذين فقدوا الامتيازات التى كانوا يتمتعون بها فى كنف الدولة الفاطمية.

---

(١٠٩) المقريزى: السلوك لمعرفة دول الملوك، (تحقيق: محمد مصطفى زيادة، ج ١، القاهرة ١٩٥٧م)، ص٤٣ ، وانظر: جمعة جمال عبد العال: الثورات الشعبية فى الدولة الأيوبية (٥٦٧ ـ ٦٤٨ هـ / ١١٧١ ـ ١٢٥٠ م)، (رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الآداب، جامعة الزقازيق ١٩٩٦م)، ص ٢٣.

(١١٠) أبو شامة: الروضتين (شهاب الدين أبو محمد عبد الرحمن المقدسى، ت ٦٦٠ هـ): كتاب الروضتين فى اخبار الدولتين (تحقيق: محمد حلمى، المؤسسة المصرية للتاليف والطباعة، القاهرة ١٩٦٢م)، ص٥٦٧ ، جمعة جمال، ص ٢٣ .

(١١١) ابن تغرى بردى (جمال الدين أبو المحاسن يوسف). (ت ٨٧٤هـ ١٤٦٩/ م): النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة، (وزارة الثقافة والإرشاد، المؤسسة المصرية العامة للتاليف والطباعة، القاهرة. ب)، ج ٦ ، ص ٢٥٧ .

(١١٢) جمعة جمال عبد العال: الثورات الشعبية ص٢٤. انظر / الأب انستاس الكرملى: النقود العربية والإسلامية وعلم النميات (الطبعة الأولى، القاهرة ١٩٨٧م)، ص ٦٩.

الفلول فى مصر

تجمعت فلول النظام السابق من السودانيين عبيد الخليفة الفاطمى المخلوع مع جموع غفيرة من أهل النوبة بعد أن ألغى صلاح الدين بدوره امتيازات أهل النوبة ووزع الإقطاعات المخصصة لهم على رجال أسرته وعلى كبار قواده وحاشيته[١١٣] فخرجت الثورة المضادة متجهة نحو الشمال لاستعادة مصر من قبضة صلاح الدين، والانتقام لأنفسهم، واستعادة نفوذهم وإحياء الدولة الفاطمية، ودارت معارك دامية فى صعيد مصر بين الفريقين راح ضحيتها عدد كبير من الفريقين انتهت بانتصار الآلة العسكرية لصلاح الدين على ثوار النوبة واستولوا على تحصيناتهم وأسروا أعداد كبيرة من الثوار.

ولكن الثورة كشفت لنا أحوال تلك البلاد الاقتصادية ومدى ما يعانيه صعيد مصر وجنوبها من ضيق ومرارة العيش وفقر مدقع، إذ ليس بها عمارة سوى دار الحاكم ومساكنهم عبارة عن أخصاص لا تمنع عنهم زمهرير الليالى الباردة.

كما شهدت مصر بعد سقوط الخلافة عدداً من الحركات الثورية التى كان دعاتها من طبقات الشعب المختلفة الأهواء والمشارب، والتى كان همها الأكبر إعادة إحياء الخلافة الفاطمية إلى الوجود هرباً من قسوة الحكام الجدد، ولعل أكبر المحاولات الثورية الخطرة، كانت ثورة "عمارة اليمنى الملقب بنجم الدين، الشاعر المشهور آنذاك" وقد اشترك معه كل الفئات الناقمة على الوضع الجديد بعد أن لحق بهم الضرر الجسيم، نتيجة سقوط

(١١٣) أبو شامة: الروضتين، ج ١، ص ٥٢١.

النظام الفاطمى حيث قطعت رواتبهم، وأخذت أقطاعاتهم وأصبحوا يعانون الذل والفقر ليصبح الأمر وكأنه إحلال ديكتاتورية بأخرى.

فصلاح الدين الأيوبى حين قتل الشاعر عمارة اليمنى إنما أراد أن يحبط مؤامرة لإعادة نظام الحكم الشيعى الإسماعيلى إلى مصر بعد أن دخلت مصر فى نظام أهل السنة والجماعة الذين كانوا فى حرب حياة أو موت مع الصليبيين..! وعلى غرار هذه الحجة يمكن أن نلتمس حجة لنظام عبد الناصر حين شنق شاعراً وكاتباً كسيد قطب ليحبط مؤامرة لقلب النظام وإقامة حكم طائفى غوغائى يدمر البلد كله تدميراً بعد ان ترك الشعر والأدب واشتغل بالعمل ضد الدولة!.

فلا يستطيع عهد من العهود - قديماً وحديثاً - أن يزعم أنه برئ من ظلم أهل "الرأى والإبداع" وإن كانت جميع العهود تدعى أنها لم تظلم أحداً ولكنها تدافع عن نفسها وتدرأ المؤامرات والدعاوى التى يريد أصحابها أن يسقطوا الأنظمة ويجلسوا على كراسيها!.

بيد أن بعض أصحاب الآراء المخالفة ارتكبوا الخطاء التاريخى المعيب باستقوائهم بالخارج وفتح قنوات اتصال مع الصليبيين فى بيت المقدس وصقلية لحثهم على غزو مصر وطلبوا المعونة من طائفة الحشاشين الإسماعيلية فى الشام ووعدوهم بالأموال والذهب وبلغت ثقة الثوار فى نجاح ثورتهم أنهم كونوا مجلس حكم انتقالى من خليفة ووزير وحاجب وقاضى ولم يبق إلا مجئ الصليبيين إلى مصر ولكن خيوط الانقلاب تكشفت لصلاح الدين فقبض عليهم جميعاً وافتا الفقهاء بقتلهم فشنقوا يوم السبت الثانى من رمضان ٥٦٩هـ / ١١٧٤ م بين القصرين وأصدر أوامره بترحيل كافة الأجناد وحاشية القصر الفاطمى والسودانيين العبيد إلى

أقاصى الصعيد، وهذا دليل على أن مخطط الانقلاب الثورى لم يكن محدوداً[١١٤].

أثناء ذلك تحرك أسطول صليبى من صقلية تجاه ساحل الإسكندرية لإنجاح الثورة فوصلت فى السادس والعشرين من شهر ذى الحجة سنة ٥٦٩ هـ / ١١٧٤ م. ودخلت الإسكندرية فتصدى لهم أهل الإسكندرية ومنعوا الأسطول من النزول وأبلوا بلاءً حسناً فى مهاجمتهم للعدو لمدة ثلاثة أيام حتى وصلت طلائع جيش صلاح الدين فتشجع أهل الإسكندرية وواصلوا القتال ضد الصليبيين وفشل الصليبيون فى حملتهم على الإسكندرية أمام جسارة وثورة أهل الإسكندرية عليهم، وقتل منهم الكثير، وإغراق عدد من سفنهم بما تحمله من جنود وأسلحة بعد أن تمكن أهالى الإسكندرية من الغوص فى الماء وخرقها[١١٥].

وتزامنت ثورة عمارة اليمنى وثورة أخرى بالإسكندرية قام بها رجل يدعى قديد القفاص، ولكن لم يكن هناك تنسيق بين الثورتين، بل إن التوافق الزمنى كان بفعل الصدفة البحتة، وكانت هذه الثورة تهدف لإعادة النظام الفاطمى البائد، حيث أدعى قديد القفاص النسب لأهل البيت الفاطمى،، أنه خرج من القصر صغيراً. وأنه الوريث الشرعى لحكم آبائه وأجداده. وانتشرت دعوته بين جموع المصريين المحبين لآل البيت وسيطر القفاص على قلوبهم لدرجة أن أصحاب الحرف حملوا إليه جزءاً من كسبهم وبعثت النساء إليه شطراً وافياً من أموالهن، واستطاع صلاح الدين أن يقضى على الثورة فى مهدها.

---

(١١٤) جمعة جمال عبد العال: الثورات الشعبية، ص ٣٥.

(١١٥) المرجع نفسه، ص ٣٨ .

على جانب آخر اغتنم أحد أبناء الصعيد ويدعى "كنز الدولة" تجمع كل العناصر المناوئة والساخطة لديه من المصريين والسودانيين ومن العرب، ومن فلول ثورتى مؤتمن الخلافة جوهر وعمارة اليمنى وجمعهم تحت لوائه وأعلن أن هدفه هو إعادة النظام المخلوع وإحياء الخلافة الفاطمية، وثار على النظام الجديد الذى سلبهم نفوذه وإقطاعياته، وبدأت أحداث الثورة فى أوائل ٥٧٠ هـ / ١١٧٤م. بإعلان استقلال أجزاء كبيرة من الصعيد عن جسد الدولة الناشئة، ولكن الثورة لاقت مرارة الهزيمة تحت وطأة الآلة العسكرية الأيوبية فى معركة مريرة عند مشارف بلدة طود (بالصعيد الأعلى فوق قوص ودون أسوان) انتهت بهزيمة دموية لثوار كنز الدولة، كما قُتل كنز الدولة نفسه فى السابع من شهر صفر سنة ٥٧٠ هـ واستأصل صلاح الدين شأفتهم ولم تقم لهم قائمة[١١٦].

وتواكبت ثورة كنز الدولة مع ثورة أخرى تزعمها "عباس بن شادى" (أحد مقدمى الديار المصرية فى الفترة الأخيرة من الخلافة الفاطمية). حيث حشد أتباعه عند بلدة طود بالصعيد وتوجه إلى مدينة قوص حاضرة الصعيد واستولى الثوار عليها، فبعث صلاح الدين قواته للقضاء على الثورة ودارت معركة حامية انتهت بمقتل عباس بن شادى وتبديد اتباعه ومناصريه.

وكان كنز الدولة قد توجه إلى بلدة طود بعد أن علم بثورة عباس ابن شادى ليشترك معه فى القتال، غير أن جنود صلاح الدين الأيوبى وصلت قبل كنز الدولة وحسمت المعركة لصالحها، ولولا ذلك لتغير الموقف لو أن الوقت أسعف القوتين الثائرتين، وسمح

---

(١١٦) جمعة جمال عبد العال: الثورات الشعبية، ص ٤٥.

لهما أن يتحدا فى معركة واحدة ولكن قضى الأمر الذى فيه يستفتيان !.

توالت ثورات مدن وقرى مصر ضد النظام السياسى الجديد القائم فى البلاد بزعامة صلاح الدين الأيوبى فقامت ثورة فى سنة ٥٧٢ هـ / ١١٧٦م فى مدينة قفط بالصعيد، وتزعمها داع من بنى عبد القوى، مدعياً أنه داود ابن الخليفة الفاطمى العاضد، حيث زعمت الطائفة الإسماعيلية أن العاضد قد عهد بالخلافة لابنه داود.

أعلن ابن عبد القوى ثورته والتف حوله الناس وصدقوه وثاروا معه ضد النظام الجديد ولكن جند صلاح الدين استطاع أن يقضى على الثورة ويقتل الكثير منهم كما صلبهم على الأشجار خارج قفط.

الفلول وحلم العودة

وظلت فلول النظام السابق تحلم بعودة لسابق مجدها ففى سنة ٥٨٤ هـ / ١١٨٨م. قام اثنا عشر رجلاً بثورة فى القاهرة، وخرجوا ليلاً، وسلكوا بعض الشوارع والدروب ونادوا بشعار العلويين " يا آل على يا آل على " ظناً منهم أن أهل مصر سيلبون دعوتهم ويخرجون معهم أملاً فى إحياء النظام المخلوع ولكن هيهات هيهات. فلم يلتفت إليهم أحد، ولم يتجاوب معهم فتفرقوا دون حدوث اشتباكات.

الشاهد فى تلك الثورة المحدودة هو انحسار التعاطف مع النظام الفاطمى المخلوع والتفاف المصريون حول قيادتهم الجديدة رغم سلبياتها وسطوتها العسكرية بحكم طبيعتها العسكرية.

وعلى الرغم من فشل كل هذه الثورات من قبل المتعاطفين والمنتفعين والمتعيشين من النظام السابق فإن المخلصين من أتباع

الفاطميين، وخاصة طائفة الإسماعيلية ظلوا على ولائهم لحكام النظام الفاطمى، فعندما توفى داود بن العاضد (٦٠٤هـ / ١٢٠٧م) فى محبسه استأذن أصحابه من الملك الكامل محمد ابن الملك العادل سيف الدين أبى بكر. لينوحوا عليه ويندبوه، فأذن لهم، فبرزت النساء حاسرات فى ثياب الصوف والشعر، وأخذن فى ندبه والنياحة عليه، واجتمع معهن من كان فى الاستتار من دعاتهم[١١٧].

وعلى الرغم من أن الملك الكامل أذن لهم فإنه قد تمهل حتى تكاملت أعدادهم، ثم أرسل إليهم جنوده حيث ألقوا القبض على البارزين منهم، وزج بهم فى السجون وتمكن بعضهم من الفرار، وبهذا زال أمر الفلول من مصر ولم يجرؤ أحد أن تقم له قائمة[١١٨]. وبهذا أمكن للملك أن يتعامل مع إشكالية الفلول برصد زعمائهم وحصرهم، دون المساس بهم فى البداية، ثم سارع بالقبض عليهم فور أن بدرت منهم بادرة تمس أمن النظام، ثم شتت أتباعهم فلم تقم لهم قائمة. ويمكن القول أن ظاهرة وجود أتباع للحاكم السابق هى ظاهرة طبيعية شهدتها كافة أنظمة الحكم فى العالم، غير أن توالى انجازات نظام الحكم الجديد، كفيل، بالقضاء على هذه الظاهرة قضاءً طبيعياً إذا ما أخذ بالأسباب، وحيل بينهم وبين الظهور مرة أخرى والمشكلة فى عصرنا الحديث فى التعامل مع هذه الظاهرة أن وسائل الإعلام أحياناً ما تضخم فى حجم ظاهرة ما دون إدراك لحقيقة وحدود هذه الظاهرة.

---

(١١٧) المقريزى: السلوك، ج ١، ص ٢٠٣ .

(١١٨) المقريزى، المصدر السابق، ص ٢٠٤، وانظر / جمعة جمال عبد العال: الثورات الشعبية، ص ٥٦ .

الثورة وسلام الاستسلام

وساهمت السياسة الداخلية والخارجية لبعض ملوك الأسرة الأيوبية فى مصر فى إثارة الغضب الشعبى عليهم وقيام الثورات الاحتجاجية على نظامهم الحاكم، وضح ذلك عندما حاول الإمبراطور الألمانى فردريك الثانى (١٢١٥-١٢٥٠م) أن يحصل على مكاسب سياسية ودينية وأقتصادية عن طريق الخداع والمراوغة باسم السلام المزعوم مستغلاً الاستعداد النفسى لدى الملك الكامل صاحب مصر لتسليم مدينة بيت المقدس مقابل الحصول على مكاسب سياسية هزيلة وبدأت المراسلات بين فردريك الثانى وبين السلطان الكامل الأيوبى ثم أسفرت المراسلات عن قدوم الإمبراطور إلى فلسطين ٦٢٥هـ ١٢٢٨/م وكان تحت غمرته جيش صغير قوامه ستمائة فارس فقط وأسطول هزيل ليتوج فردريك الثانى ملكا على مملكة بيت المقدس[١١٩].

وكان رد الفعل الشعبى عنيفا ضد السلطان الذى بعث سفراءه إلى كل مكان لتبرير فعلته والترويج لسلام الاستسلام الذى عقده، وإقناع شعوب المنطقة بأن السلام مع مغتصبى بيت المقدس والأرض العربية فى فلسطين هو ضرورة فرضتها الظروف ولكن العرب والمسلمين لم يغفروا للسلطان الكامل الأيوبى حاكم مصر فعلته، وقد علق ابن الأثير على ذلك بقوله: " واستعظم المسلمون ذلك وأكبروه ووجدوا له من الوهن والتألم ما لا يمكن وصفه يسر الله فتحه وعوده إلى المسلمين بمنه وكرمه.."[١٢٠]. كان ذلك هو موقف

---

(١١٩) قاسم عبده قاسم: ماهية الحروب الصليبية، ص ص ١٦١، ١٦٠، وانظر: سعيد عاشور: الحركة الصليبية، جـ٢ ، ص ١٠١٢

(١٢٠) قاسم عبده قاسم: ماهية الحروب الصليبية، ص ص ١٦١، ١٦٠، وانظر: سعيد عاشور: الحركة الصليبية، جـ٢ ، ص ١٠١٢.

المؤرخ ابن الأثير من تلك الهدنة رغم أنه كان يُعد من حاشية السلطان الكامل ومحسوباً من رجال نظامه. أما المؤرخ العينى فوصف الموقف بقوله: "... قامت القيامة فى جميع بلاد الإسلام واشتدت العظايم بحيث أنه أقُيمت المآتم..."(١٢١).

أما "تقى الدين المقريزى "فيرسم لنا صورة أكثر حيوية لرد الفعل الشعبى (تجاه فعلة السلطان الكامل) فيحكى قصة الهدنة بين الكامل وفريدريك الثانى، ومدتها عشر سنين وخمسة أشهر وأربعين يوماً، ثم يقول: " وبعث السلطان فنودى بالقدس بخروج المسلمين منه، وتسليمه إلى الفرنج، فاشتد البكاء، وعظم الصراخ والعويل، وحضر الأئمة والمؤذنون من القدس إلى مخيم الكامل، وأذنوا على بابه فى غير أوقات الصلاة، فعز ذلك عليه وأمر بأخذ ماكان معهم من الستور والقناديل الفضة والآلات وزجرهم، وقيل لهم امضوا حيث شئتم، فعظم على أهل الإسلام هذا البلاء، واشتد الإنكار على الملك الكامل وكثرت الشائعات عليه فى سائر الأقطار.."(١٢٢)

وأثارت اتفاقية السلام المزعوم "سنة ١٢٢٩م" بين حاكم مصر وفردريك الثانى - التى تقرر فيها أن يأخذ الصليبيون بيت المقدس وبيت لحم والناصرة فضلاً عن تبنين وصيدا بأكملها مقابل أن يمنحونا السلام - غضب أهل مصر والعرب والمسلمين ولُعن الكامل من على منابر الجوامع والمساجد ووصفه الخطباء آنذاك بالخيانة والزندقة فى الدين والتهاون فى حقوق العرب والمسلمين وكثرت

---

(١٢١) سعيد عاشور: المرجع السابق، ص ص ١٠١٢ ، ١٠١٣.

(١٢٢) المقريزى: السلوك، ج ١، ص ٢٢٩، ٢٣١.

الشناعات والثورات عليه فى سائر الأقطار وثارت موجة عارمة من السخط والأسى فى العالم الإسلامى[١٢٣]. الذى اعتبر الاتفاقية وصمة عار فى تاريخهم. ولسان حالهم يعلن أن القدس ووعائها الجغرافى "فلسطين" ليست مسئولية أهلها وحدهم، إننا جميعاً نحمل تبعتها، مسلمين ومسيحيين وعرب، وأنها ليست ملكاً لحاكم بعينه أو لشعب فلسطين وحده، وما يتنازل عنه أى من الكيانات السياسية التى صيغت لتمثله، ليست له حجة شرعية علينا، ولكن شريطة أن نكون على مستوى تحمل التبعة[١٢٤].

وباتفاقية يافا فى ١٨ فبراير سنة ١٢٢٩ واجه النضال ضد الفرنج موقفاً صعباً من أحلك المواقف والأزمات الذى مر به فى الوقت الذى حقق فيه الغزاة الصليبيون - مع ضعف إمكاناتهم - نصراً سهلاً عجزت عنه جهود ريتشارد قلب الأسد بإمكاناته الضخمة مع ملاحظة أن فردريك الثانى حصل على بيت المقدس دون أن يدخل معركة أو يخسر رجلاً واحداً بسبب تنازل حاكم مصر عن حقوق لم يكن يملك تفويضا من أحد بالتنازل عنها ؛ لأن حقوق الوطن هى حقوقٌ ثابتة للأمة وهى مما لا يجوز التنازل عنها لأحد، كما لا يجوز بيعها أو شراؤها، وقد أحس السلطان الكامل الأيوبى فيما بعد بأنه "تورط مع ملك الفرنج" على حد قول المقريزى الذى بدوره فصل مدى الأسى الذى حل بالمسلمين لسماع خبر تفريط

---

(١٢٣) سعيد عاشور: الحركة الصليبية، جـ ٢، ص ٨٠٠.

(١٢٤) راجع ما كتبه طارق البشرى: عن القدس وفلسطين (حولية أمتى فى العالم، مركز الحضارة للدراسات السياسية، القاهرة ١٩٩٩م)، ص٤١.

الكامل فى بيت المقدس فيقول: "فاشتد البكاء وعظم الصراخ والعويل وحضر الأئمة والمؤذنون من القدس إلى مخيم الكامل وأذنوا على بابه فى غير وقت الأذان ... فعظم على أهل الإسلام هذا البلاء"(١٢٥).

تجاهل ونسيان

ولم يعترف المصريون والعرب بتلك الاتفاقية واعتبروا هذا التنازل باطلاً مثله والعدم سواء، وتمكن المصريون الثوريون فى عهد الصالح نجم الدين أيوب فيما بعد من تمزيق وإسقاط الاتفاقية من خلال استئناف النضال وإعادة تحرير بيت المقدس وجعل وجود الفرنج أنفسهم على الأرض العربية وفى ميزان التاريخ قابلاً للاستئناف وحال بينهم وبين وجودهم الطبيعى فى بيت المقدس عقبات عديدة ؛ منها عقبات الموقع والتاريخ والبشر والمبادئ والأهداف والمثل العليا وفى مقدمتها العدل. واستطاع الثوار أن يسطروا الفصل الأخير فى هذه المواجهة الطويلة المضنية فى عهد الأشراف خليل بن المنصور قلاوون حين قام بتصفية الجيوب الصليبية فى أرض العرب، وكانت دماء الصليبيين فى عكا هى التى كتبت نهاية قصتهم فى المنطقة العربية(١٢٦) بعد رحلتهم الصليبية الضخمة والطويلة فى المشرق العربى واحتلالهم الإستيطانى فى أرض العرب(١٢٧).

---

(١٢٥) سعيد عاشور: الحركة الصليبية، جـ٢ ، ص ٨٠٠.
(١٢٦) قاسم عبده قاسم: ماهية الحروب الصليبية، ص ١٦٩.
(١٢٧) عمرو عبد العزيز منير: العمران المصرى بين الرحلة والأسطورة (سلسلة تاريخ المصريين، ع ٢٨٨، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ٢٠١٠م)، ص٧٩.

ولم ينس المصريون للملك الكامل هذا الموقف، فلما مات لم يحزن عليه أحد[١٢٨] رغم حبهم له فى بداية حكمه وانتصاره بمساندة شعب مصر على الحملة الصليبية الخامسة التى استهدفت غزو مصر. والتى ظلت تمثل هاجسا للغرب الأوربى الذى تجهز لإعداد حملة صليبية جديدة ضد مصر تساندها الأطماع الاقتصادية للمدن التجارية الإيطالية فى السيطرة على تجارة المتوسط بالسيطرة على ميناء دمياط، وبنهاية شهر مايو سنة ١٢١٨م وصلت القوات الصليبية قبالة دمياط، وفى محرم ٦١٦ هجرية١٩/ مارس ١٢١٩م اشتد الغلاء بدمياط لشدة محاصرة الفرنج لها الذين هجموا عليها وسقطت بأيدى القوات الصليبية فى ٢٧ شعبان سنة ٦١٦ هـ/ ٥ نوفمبر١٢١٩م فحينئذ بنى الملك الكامل المنصورة عند مفرق النيل وسكنها بجيشه وحصنها[١٢٩]. وتسارع المصريون فثاروا ضد المحتل الجديد فأغلقوا أبواب دمياط وتحصنوا خلف أسوار مدينتهم، وأخذوا يناجزون العدو ريثما تأتيهم الإمدادات، "وأنزل الله عليهم الصبر، فثبتوا مع قلة الأقوات عندهم وشدة غلاء الأسعار[١٣٠] " وزُلزل سلطان مصر الكامل ناصر الدين لهذا الخبر أول الأمر، وبدا له أن يغادر مصر ليستعد لحربهم فى الشام، لكن ثبات أهل مصر فى دمياط ثبت روعه، وأنسأ له فى مجال الأمل فمضى بمن وَجدَ من جنده نحو دمياط.

---

(١٢٨) المقريزى: السلوك، ج ١، ص ٢٧٢. جمعة جمال عبد العال: الثورات الشعبية، ص ٥٧.

(١٢٩) الحريرى (أحمد بن على الحريرى): الإعلام والتبيين فى خروج الفرنج الملاعين على ديار المسلمين، تحقيق: سهيل زكار، مكتبة دار الملاح، دمشق، ١٩٨١ ص ٩٢ وانظر: ابن الأثير: الكامل فى التاريخ، جـ ٩ ص ص. ٢١٥- ٢١٨.

(١٣٠) المقريزى: السلوك، ج ١ ص ١٩٨.

الظواهر الخارقة.. القفز على الأشواك

وبينما أهل مصر يجالدون عن حريتهم هذه المجالدة التى تروع النفس، ظهر فيهم فتى من أهل القاهرة حديد القلب صادق الإيمان يسمى "شمايل" كان يخاطر بنفسه ويسبح فى النيل ومراكب الفرنج به محيطة، وشوانيهم يغص بها ماؤه، ولكنه جعل يسبح حول السفن وتحتها حتى يصل إلى المدينة، فيأخذ الرسائل من أهلها ويعود سابحاً من حيث أتى، ورماة الفرنج تتبعه بالسهام، ومحاربوهم بالحراب، وهو يتهارب كسمكة فى الماء حتى يخلص من منطقتهم، ويفضى إلى حيث أسطول المسلمين عند أشموم! وكأنه خيال وسراب على صفحة النيل.

والتاريخ منذ ذلك اليوم يرى منه شيئاً جديداً وعجيباً، يرى خيالات على واجهة عمارة السفارة، تجعلك تشعر أن علم مصر يتحرك فى الظلام بهدوء.. الليل يمنعك من الرؤية الكاملة للأحداث ولكن الهتافات تشتعل "راجل راجل اطلع يا بطل"، "ارفع راسك فوق أنت مصرى". فى أقل من عشر دقائق انتهى الأمر.. علم إسرائيل يُنتزع وعلم مصر يُرفع على سفارة لكيان مرفوض شعبيا - كما رُفض الشيطان من على الأرض وفى السماء - أحمد الشحات - ابن الشرقية - وصقر رفع العلم المصرى، يوم الأحد، ٢١ أغسطس ٢٠١١م، ليُنير الظلام بنور الثورة وليُنزل علم الغطرسة الإسرائيلية بعيداً عن أرض النيل، وسيطرت على الثوار حالة من السعادة والبكاء فى الوقت نفسه، مجددين مطلبهم بالقصاص

لأرواح الشهداء المصريين، وطرد السفير الإسرائيلى من مصر والبعثة الدبلوماسية المرافقة له والتى بدأت فى ممارسة مهام عملها منذ عام ١٩٨٠. وإغلاق مقر السفارة.[١٣١] فأنت إذ تقرأ ما كان يقوله المصريون لقمبيز مثلاً منذ آلاف السنين، وهو يتهيأ لاقتحام بلادهم - تراه أشبه ما يكون بما قاله المصريون فى سنة ٢٠١١ بعد الميلاد!.

فالمصرى بقى على مسلكه العام، واتصاله بالطبيعة، وسعيه الحضارى، وفهمه لحقائق الحياة.. هو هو على مر الحقب وكر الأزمنة. ليقدم لنا نموذجاً للحرية كما ينبغى أن يمارسها كل إنسان دون أن يكون بطلاً أو شهيداً..حقك فى أن تعيش حراً فى مجتمع حر..تعبر عن رأيك دون أن تخشى الملام، حقك فى أن تمارس حريتك السياسية وحريتك الاقتصادية، وحقك أن تختار الحاكم وتنتقده وتحاسبه إذا أخطأ..وتغيره إذا خرج على حدود العدل والإنصاف.

---

(١٣١) صوت الذاكرة المغرمة بالبطولة يؤيد جرأة وشجاعة الشاب المصرى الذى أسقط العلم الإسرائيلى من على مقر السفارة، ولكن صوت العقل يؤكد أنه ما كان ينبغى الاحتفال الرسمى بهذا العمل، فحماية المقرات الدبلوماسية هو دليل على قوة الدولة واحترامها لتعهداتها، وهو احتفال شجع فيما بعد على محاولة تكرار هذا العمل الذى تحول إلى سباق صبيانى من أجل الفوز بشقة، أو فرصة عمل، أو حتى ساعة ظهور إعلامى وإعلانى معاً دعونا نقف وقفة عاقلة مع النفس، نحدد فيها أهدافنا بلا تشويش إعلامى أو مزايدات على مؤسساتنا الوطنية.

السلام بالفرشاة المصرية

لم نبتعد كثيراً حين ارتحلنا إلى سنة ٦١٠ هـ / ١٢١٣ م،لنقف أمام ثورة العامة من أهل مصر على الملك الكامل - بطل الحرب والسلام - فرجموه بالحجارة حتى انه احتمى بدار صناعة السفن بالفسطاط خوفاً من أن يناله أذى، ويرجع شرارة تلك الثورة إلى أنه كان إلى جانب الكنيسة المعلقة بمصر مسجد قد زال أثره، فعمد العوام إلى عمارته، ولكن الملك الكامل رفض فثار العوام رغبة فى عمارته، فركب الملك الكامل من القلعة وجاء إلى الكنبسة المعلقة، وكشف المكان بنفسه، فلما شاهده أنكر أنه كان مسجداً، فظن العوام أن الملك الكامل قد فعل هذا إكراماً لطبيبه النصرانى أبى شاكر، فثاروا ورموه بالحجارة فهرب منهم إلى القلعة.(١٣٢)

وكانت قوة أقباط المصريين فى الدواوين ماثلة لا يستهان بها، فقد تولى كثير منهم الوزارة، أمثال شرف الدين بن صاعد الفائزى، الذى وزر للسلطان أيبك ثم لإبنه نور الدين على، وتاج الدين بن حنا (توفى سنة ٧٠٧هـ). واتهم الناصر بمحاباته للأقباط، وتقريبهم لأنهم يجمعون له المال ويحفظونه على حساب الشعب وأقواته، فكثرت ثورات عوام القاهرة ضده وضد وزارته ورجاله من الأقباط.(١٣٣)

---

(١٣٢) الخزرجى (صفى الدين الحسين بن جمال الدين الأنصارى)، (ت ٦٥٧هـ / ١٢٥٩م): سير الأولياء فى القرن السابع الهجرى (تحقيق: مأمون محمود ياسين، عفت وصال حمزة، دار القلم، بيروت، بدون تاريخ)، ص ٦٧ نقلاً عن / جمعة جمال عبد العال: الثورات الشعبية، ص ٥٧

(١٣٣) محمد زغلول سلام: الأدب فى العصر المملوكى، (ج١ دار المعارف، القاهرة ١٩٧١م)، ص ٤٢.

كما أثارت سياسة الملك العادل أبا بكر تجاه الصليبيين، والتى اتسمت بالتسامح الشديد، غضب المصريين، مما دفع امرأة مصرية إلى قص شعرها وبعثت به إلى الملك العادل مرفق برسالة جاء فيها: اجعله قيداً لفرسك فى سبيل الله[١٣٤]. واستطاع المصريون أن يسطروا صفحات مشرقة على جدران الثورة ضد الجيوب الصليبية فى أرض العرب وحملاتهم على مصر.

بعد الهزائم التى مُنى بها الصليبيون أدركوا أن بقاءهم فى الشرق والاحتفاظ بالقدس يتوقف على احتلالهم لمصر[١٣٥]. وفى ٢٥ أغسطس ١٢٤٨م/٦٤٧ هـ غادر لويس التاسع ميناء (ايج مورتز) متوجهاً نحو قبرص على متن أسطول مؤلف من مئة وعشرين مركباً كبيراً وألف وخمسمائة سفينة صغيرة وصحبه فى رحلته زوجته مرغريت وأخوه روبرت كونت أرتوا ومشارل كونت أنجو[١٣٦]، وفى مايو ١٢٤٩م/ صفر ٦٤٧ هـ انطلقت الحملة بعد إقرار ضرورة غزو مصر من قبرص باتجاه مصر وتعرض الأسطول لعاصفة بحرية فى المورة أدت إلى تشتته[١٣٧]، وفى يوم الجمعة ١٢ صفر ٦٤٧هـ/ ٤ يونيه ١٢٤٩م وصلت مراكب الصليبيين إلى مصر ورست قبالة مدينة دمياط[١٣٨].

---

(١٣٤) سعيد عبد الفتاح عاشور: الأيوبيون والمماليك، ص ٩١.

(١٣٥) مفرج الكروب، جـ ٥ - ص٣٥١، السلوك، جـ١ ، ق ٢، ص ٣٣٤.

(١٣٦) من تاريخ سوريا: جـ ٥ - ص ٢٥٩.

(١٣٧) رنسيمان : الحروب الصليبية، جـ٣، ص ٤٤٩.

(١٣٨) قاسم عبده قاسم: ماهية الحروب، ص ١٦٣، انظر: جوزيف نسيم يوسف: لويس التاسع فى الشرق الأوسط (١٢٥٠ — ١٢٥٤م)، ط١ ، الأنجلو، القاهرة، ١٩٥٦ ص ٦٤.

وتسقط دمياط دون قتال، ويذكر المقريزى ما نصه: "وأصبح الفرنج يوم الأحد لسبع بقين من صفر سائرين إلى مدينة دمياط، فعندما رأوا أبوابها مفتحة ولا أحد يحميها خشوا أن تكون مكيدة فتمهلوا حتى ظهر أن الناس قد فروا وتركوها فدخلوا المدينة بغير كلفة ولا مؤنة حصار..."(١٣٩). وبعد عدة تطورات لا يتسع المجال لذكرها كانت القوات الصليبية تتقدم نحو مدينة المنصورة فى سرعة، ولكن الأمير بيبرس البندقدارى، كان قد نظم الدفاع عن المدينة بشكل جيد، وانقشع غبار المعركة عن عدد كبير من قتلى الصليبيين بينهم عدد كبير من النبلاء، كما دارت معركة رهيبة قرب فارسكور قضت على الجيش الصليبى تماما، ويُتم أسر لويس(١٤٠).

أبطال دمياط والمنصورة

وسطر التاريخ مواقف مشرفة للثوار من المصريين الذين كانوا يغيرون ليلاً ونهاراً على المعسكر الصليبى فى دمياط لمعرفة حركات الجند، وعمد أولئك القناصة إلى اختطاف الجنود الصليبيين أفراداً يقتادونهم أسرى إلى المعسكر السلطانى فى المنصورة لسؤالهم عما يعرفون من الخطط الصليبية، ثم يسيرون بهم إلى القاهرة طلباً للمكافأة، واحتال الثوار فى خطف الجند بكل حيلة، فمثلاً أخذ شخص بطيخة أدخل فيها رأسه، وغطس فى الماء حتى اقترب من السور المطل على النيل، فظنه الصليبيون بطيخة، فما هو إلا أن نزل أحدهم ليتناول البطيخة حتى اختطفه القناص المصرى وعام به

---

(١٣٩) المقريزى: السلوك، جـ ١ ص ٣٣٥ — ٣٣٦.

(١٤٠) ماهية الحروب الصليبية، ص ١٦٥.

بعيداً عن مرمى السهام، واقتاده إلى المعسكر السلطانى فى المنصورة كالمعتاد.[١٤١]

وخلفت حملة لويس التاسع تدهوراً فى أحوال مدينة دمياط أدى لتخريبها وهدمها سنة ٦٤٨هـ إذ خرج سكان المدينة مع الجيش الأيوبى المرتد من الضفة الغربية لفرع دمياط سنة ٦٤٧هـ على نحو ما فعل المقريزى[١٤٢]. وقد تركت المدينة خاوية فقد حمل السكان معهم فى رحلة هروبهم أدواتهم وآلاتهم وأخشاب بيوتهم[١٤٣]. وتدهورت أحوال المدينة تدهورا كليا علله ابن خلدون بقوله :" إذا ضعفت أحوال المصر وأخذ فى الهرم بانتقاص عمرانه وقلة ساكنيه تناقص فيه الترف ورجعوا إلى الاقتصار على الضرورى..."[١٤٤].

وبعد زوال الخطر الصليبى اتفق على إزالة وتخريب أسوار مدينة دمياط ولم يترك بها سوى المسجد الجامع[١٤٥] ولم يقتصر التخريب العمرانى بسبب الظروف السياسية والحربية على دمياط فقط، ولكنه امتد لتوابعها مثل شط وبورة التى تعرضت الأخيرة فى مطلع القرن السابع الهجرى لويلات الحروب الصليبية سنة ٦٠٦ هـ حيث وصلت مراكب الفرنج إلى بورة فنهبوها وأسروا من فيها فخرج إليهم الملك الكامل فى الشوانى فلما بلغهم ذلك هربوا[١٤٦].

---

(١٤١) محمد مصطفى زيادة وآخرون: كفاحنا ضد الغزاه، (مكتبة النهضة المصرية، القاهرة ١٩٥٧ م)، ص ٢٣٠.

(١٤٢) المقريزى: السلوك، جـ١ ، ص ٣٣٥، أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، جـ ٦ ص٣٤٠.

(١٤٣) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، جـ٧ ، ص ٢٠

(١٤٤) ابن خلدون: المقدمة - الباب الخامس من الكتاب الأول- الفصل العشرون، ص ص ٤٠٣ — ٤٠٤.

(١٤٥) ابن دقماق: الانتصار، جـ٥ ، ص ٨١ .

(١٤٦) ياقوت الحموى: معجم البلدان، م٤ ، ص ٨٦.

وقد أشار القلقشندى إلى ما قاله ابن سعيد عن أسوار دمياط والتى كانت قد أقامها الخليفة المتوكل بقوله : ".. فلما تسلطت عليها الفرنج وملكتها مرة بعد مرة خربت المسلمون أسوارها فى سنة ثمان وأربعين وستمائة خوفا من استيلائهم عليها وهى على ذلك إلى الآن.."(١٤٧). وأكد ذلك الحريرى بقوله : " ثم إن المسلمين هدموا سور دمياط وتركوها خاوية على عروشها.."(١٤٨).

وكانت أحداث الحملة الصليبية السابعة التى انتهت سنة ٦٤٨ هـ-١٢٥٠/م بأسر الملك لويس التاسع نفسه وتبدد فرسان جيشه وجنوده ما بين قتيل وأسير عقب الهزيمة المخزية التى أوقعها به الجيش المصرى فى المنصورة بمثابة إرهاصات الميلاد لدولة سلاطين المماليك التى حكمت مصر فى الفترة (٦٤٨هـ-٩٢٣/هـ/١٢٥٠-١٥١٧م)(١٤٩) لتدخل مصر حقبة جديدة من تاريخها تحت حكم هؤلاء الرقيق الأبيض الذين اعتمد عليهم حكام الشرق الأدنى الإسلامى لا سيما فى مصر والشام ليؤسسوا دولة بدأت بلعبة سياسية تولت خلالها "شجر الدر" السلطنة وتلقبت بعصمة الدين أم خليل واستمرت حتى وصلت إلى طومان باى الذى يعتبر آخر السلاطين ؛ ماتت أول سلطانة لهم بالقباقيب وظلت ملقاة فى خندق القلعة حتى سرق اللصوص ملابسها الداخلية(١٥٠). ومات آخرهم حين اهتز جسده فى مشنقة على باب زويلة فما أشبهه البداية بالنهاية.

---

(١٤٧) القلقشندى: صبح الأعشى، جـ٣ - ص ٤٠٢.

(١٤٨) الحريرى: (أحمد بن على الحريرى): الإعلام والتبيين، مصدر سابق، ص ١٥١.

(١٤٩) قاسم عبده قاسم:دراسات فى تاريخ مصر الاجتماعى، ط ٢، دار المعارف، القاهرة،١٩٨٣ ص ١١١.

(١٥٠) المقريزى: السلوك، جـ١ ، ص ٤٠٤.

المماليك[151] وتراث العبيد

فمن رحم النهاية التعسة للحملة الصليبية السابعة ولدت دولة سلاطين المماليك لكى تحكم المنطقة العربية وتدافع عنها طوال ما يزيد على مائتين وسبعين عاماً بيد أن الفترة التى امتدت من بداية سلطنة " شجر الدر" حتى نهاية سلطنة " السلطان سيف الدين قطز" كانت بمثابة الفترة الانتقالية فى عمر هذه الدولة الوليدة، كما كانت إرهاصاً للأساس السياسى الذى قامت عليه الدولة الذى تبلور فى مبدأ " الحكم لمن غلب"[152]، واختار المماليك - أصحاب السلطة الفعلية - الأميرة "شجر الدر" لتكون أول سلاطين المماليك، وعلى الرغم من دورها الرائع فى توجيه شئون الحكم والحرب إبان أحداث الحملة الصليبية السابعة وأثناء مرض زوجها "السلطان الصالح أيوب " وبعد وفاته ؛ فإن الخليفة العباسى رفض الاعتراف بحكمها، وقبضت "شجر الدر" على زمام الحكم بيد من حديد، وتخلصت من بقايا الحملة الصليبية وتسلم المصريون دمياط بعد انسحاب شراذم الفرنج منها فى مايو ١٢٥٠ م، وأخذت "شجر الدر" تتقرب إلى الخاصة والعامة من رعاياها، ولكن الرأى العام المصرى رفض الاعتراف بحكم امرأة وثارت القاهرة بسكانها وماجت احتجاجاً على حكم السلطانة، وبعد ثمانين يوماً تنازلت "شجر الدر " عن العرش لواحد من أمراء المماليك، كانت قد اختارته زوجاً لها، هو عز الدين أيبك التركمانى، الذى تولى عرش السلطنة باسم "الملك المعز".[153]

---

(١٥١) مصر المملوكية (٦٤٨-٩٢٢هـ-١٢٥٠/-١٥١٧م).

(١٥٢) قاسم عبده قاسم: عصر سلاطين المماليك، ص ص ١٥ — ٢٧.

(١٥٣) (قاسم عبده قاسم: بين التاريخ والفولكلور (سلسلة مكتبة الدراسات الشعبية، العدد ١٣ ، القاهرة ١٩٩٧م)، ص ١٥٤.

هكذا تشير الشواهد التاريخية لثورة المصريين ضد "شجر الدر" صراحة إلى عدم شرعية حكم المماليك ومن قبلهم الأيوبيين الأمر الذى أثار حفيظة القبائل العربية وقاموا بثورة ضد المعز أيبك فى بداية عصر المماليك، وقول زعيمهم "حصن الدين ثعلب" :"نحن أصحاب البلاد وأنا أحق بالملك من المماليك وقد كفى أننا خدمنا بنى أيوب، وهم الخوارج خرجوا على البلاد.."(١٥٤)

وبعد خلع شجر الدر نفسها من سلطنة المماليك لرفض الخليفة العباسى لتولى امرأة أمر المسلمين، ولثورة الرأى العام المصرى ضد شجر الدر ورفض حكام بلاد الشام من بنى أيوب الاعتراف بها تولى سلطنة الدولة المملوك المعز أيبك فى (ربيع الآخر ٦٤٨هـ/ يوليو ١٢٥٠م) وأصبح الأيوبى الأشرف موسى شريكا للمعز أيبك فى الحكم.

ولكن نادى بعض الناس وعلى رأسهم الأمراء فى غزة بطاعة الملك (المغيث عمر بن العادل) حاكم الكرك وحضر بعض أمراء الشام إلى الصالحية بالشرقية وأقاموا الخطبة للملك المغيث يوم (الجمعة الرابع من جمادى الآخر ٦٤٨ هـ/ ٣ سبتمبر١٢٥٠م)، بالإضافة أنه قد سبق ذلك ثورة قبائل الشرقية والبحيرة ضد المماليك بزعامة "حصن الدين بن ثعلب" واستطاع المماليك القضاء على ثورة حصن الدين بن ثعلب.

واستعد المماليك للقاء الملك الناصر عند الصالحية اعتقادا منهم أنه سيمر عليها، فإذا بالملك الناصر يحتل قطيا يوم (السبت ٢٨ يناير ١٢٥١م) وواصل السير إلى كراع(١٥٥)، وهى قريبة من السدير

(١٥٤) المقريزى: السلوك، ج١ ، ص٣٨ - ٣٩

(١٥٥) كراع: قرية من توابع مركز أبى حماد بمحافظة الشرقية وقد اندثرت ومحلها عزبة السلمونى، انظر القاموس الجغرافى لمحمد رمزى، ص٣٥٦

فوصلها فى (٣٠ يناير ١٢٥١م)، ثم قام الملك الناصر بنقل قواته من الصالحية إلى سموط[١٥٦]، وأصبحت القوات الأيوبية فى مواجهة جيش المماليك وانتهت المعركة بهزيمة المماليك وبقى الناصر بكراع وتقدم جنوده نحو العباسة[١٥٧]، وبعد عدة مناوشات انتصر المعز أيبك، وحين حاولوا دخول العباسة لم يستطع لوجود جنود الناصر يوسف بها فاتجه نحو العلاقمة[١٥٨]، ثم ذهب إلى بلبيس ودخل القاهرة وحبس الأمراء المأسورين من بنى أيوب بالقلعة، ورغم انتصار المعز أيبك فى معركة وادى السدير. وتدخل الخليفة المستعصم العباسى لإنهاء الخلاف بين الملك الناصر والمماليك، وكان الصلح (سنة ١٢٥٢م)، وهكذا كانت معركة (وادى السدير) لحن الختام الحزين للدولة الأيوبية وثبتت أقدام المماليك أكثر من قرنين ونصف من الزمان.

نهاية عصر

تؤكد كتابات المؤرخين لعصر سلطنة المماليك استقرار الأوضاع السياسية طيلة القرن الأول تقريباً من تاريخها، حيث تعاقبت عدد من

---

(١٥٦) سموط: قرية اندثرت ومحلها عزبة تل سماموط غرب محطة القصاصين وعلى بعد ٤ كيلو مترات منها. انظر محمد رمزى، القاموس الجغرافى، ص ٣٥٦

(١٥٧) العباسة: سميت بهذا الاسم نسبة إلى عباسة بنت أحمد بن طولون حين خرجت تودع بنت أخيها قطر الندى لتزف للخليفة المعتضد العباسى فضربت عباسة خيامها بهذا الموضع ثم بنت قرية سنة ٢٨١هـ/٨٩٤م وسميت عباسة باسمها. وولد بها الملك الأمجد تقى الدين عباس بن العادل أبى بكر بن أيوب. انظر: محمد عبد الله عنان مصر الإسلامية وتاريخ الخطط المصرية (مكتبة الأسرة، القاهرة ١٩٩٨م.)، ص٩٦

(١٥٨) العلاقمة: وردت فى معجم البلدان بأنها بليدة (بلد صغير) فى الحوف الشرقى فى أرض مصر دون بلبيس وكانت العلاقمة قاعدة لمركز الصوالح وفى سنة ١٨٩٦ نقل منها ديوان المركز إلى ههيا لوجودها على السكة الحديدية، انظر القاموس الجغرافى لمحمد رمزى.

السلاطين الأقوياء على الجلوس على كرسى الحكم ابتداءً بسيف الدين قطز، انتهاءً بالناصر محمد بن قلاوون، ومع نهاية هذه الحقبة الأولى التى شهدت مراحل التأسيس، ومظاهر النضج الحضارى، بدا الانهيار يدب فى مركز الحكم لأسباب عديدة، يأتى على رأسها عدم وجود نظام واضح للحكم، ومع الإهمال الواضح لكل ما جاء فى الشريعة الإسلامية من قواعد الحكم الأساسية وهى : الشورى، العدل، الأمانة وغيرها من مبادئ الدين الإسلامى الحنيف. كذلك كان تنازع الأمراء على القبض على زمام السلطة فى دولة المماليك من أهم الأسباب التى قوضت دعائم هذه السلطنة، وقد بلغ من تنافس هؤلاء الأمراء على السلطة أن بعضهم عندما لا يجد الأوضاع ملائمة لأطماعه فى الحكم والتدبير، يجتهد فى العمل على اختيار سلطان آخر يجلس على كرسى الحكم من مجموع الأمراء الصغار المرشحين للحكم من بيت قلاوون مثلاً، كما نجم عن كثرة وقوع الاضطرابات السياسية والثورات والمطالب الفئوية نتيجة رغبات الفئات المختلفة من الأمراء وعامة الشعب مع ضعف السلطان الجالس على كرسى الحكم أن ساد المجتمع المصرى آنذاك عدم الأمان والاستقرار، مما أدى إلى تعرض بيوت الأغنياء للنهب المسلح، والبلطجة، وعانى المتجولون من حوادث السلب، كما تعرضت النساء للاغتصاب، حتى لم يعد أحد يأمن على نفسه عند السير فى الطرقات، فلم يجد من بيدهم زمام الأمور بُداً من التحرك لوضع حد لتلك الأعمال المخلة بالأمن والاستقرار، وتم القبض على الأمراء المتهمين بهذه التصرفات والمحرضين على الإضرابات حيث سجن بعضهم ونفى بعضهم الآخر خارج البلاد.(١٥٩)

---

(١٥٩) حياة ناصر الحجى: السلطة والمجتمع فى سلطنة المماليك فترة حكم السلاطين المماليك البحرية دراسة تاريخية وثائقية فى وقائع الممارسات المختلفة السلطانية والأميرية، لجنة التأليف والتعريب، مجلس النشر العلمى، جامعة الكويت، الكويت ١٩٩٧م)، ص ١٥.

الشواهد التاريخية التى وصلتنا من عصر سلاطين المماليك تشير إلى أنه كان لدى الأمراء المنفذين لخطط المؤامرات السياسية الحاجة دائماً إلى استمرار طابع الاستقرار فى أنحاء المجتمع المصرى، ولهذا يلاحظ دائماً أنه فى أعقاب أيه ثورة أو انتفاضة شعبية فئوية أو عامة تبدأ المناداة بين الناس فى أرجاء القاهرة بالأمان، وفتح الدكاكين، وعودة نشاط البيع والشراء إلى الأسواق، من أجل أن تستعيد الحياة اليومية شكلها الطبيعى.

وترتبط ظاهرة الثورات والانتفاضات الشعبية والاحتجاجات فى أية مجتمع ارتباطاً وثيقاً بعامل عدم الاستقرار السياسى، وما ينجم عنه من تدهور الأحوال الاقتصادية، حيث يكثر لغط الناس وحديثهم عن سوء الأوضاع، وما قد يؤدى إليه واقع ذلك الحال المضطرب من أمور وخيمة، ولهذا سادت هذه المرحلة غير المستقرة من تاريخ سلطنة المماليك كثرة كلام الناس عن أخبار الفتن والثورات والاحتجاجات والانقلابات السياسية وملابساتها(١٦٠) وتبرز فى كتابات مؤرخى هذه الحقبة عبارات "وبات الناس فى قلق"، "وكثرت القالة بين الناس"، "وكثر تخوف العامة"، مما يؤكد عدم إحساس الناس إبان هذه الفترة بالأمان والاستقرار، وإنهم كانوا فى حالة توجس وترقب لما يطرأ من تغييرات سياسية وأزمات اقتصادية نتيجة عدم استقرار نظام الحكم فى سلطنة المماليك.

ولا شك أن عطاء الإنسان العادى فى ظل هذه الأحوال غير المستقرة يكون ناقصاً، ومفتقداً لصفتى الاستمرارية والثبات.

---

(١٦٠) حياة ناصر الحجى: السلطة والمجتمع فى سلطنة المماليك، ص ١٠١ .

وكانت عمليات العقاب التى استحقها المذنبون أسباباً للفرجة عند العامة حيث كانوا يتزاحمون على مراكز العقوبة الأمر الذى كان يثير انزعاج الوالى الذى كان يمثل الجهة المنفذة لأحكام العقوبة، وكان انزعاج الوالى يتفاقم فى بعض الأحيان إلى حد الإيقاع بأولئك العامة المتفرجين، مما يؤدى إلى إثارة مشاعر السخط والنقمة والثورة عند العامة ضد الوالى، فيسعوا فى مطالبة السلطان بعزله، كما حدث سنة ٧٧٠هـ / ١٣٦٨م عندما ثار العامة وطالبوا السلطان محمد بن قلاوون بعزل والى القاهرة الشريف بكتمر، وتسليمه لهم.

وقد استجاب السلطان لمطلب العامة، حيث قرر عزل والى القاهرة، ولكنه رفض أن يسلمه للعامة. فما كان من العامة إلا أن تزداد ثورتهم وهاجموا الوالى، ورجموه بالحجارة وهو فى طريقه إلى القلعة، وعندما استطاع الوالى أن يخلص نفسه منهم بعد جهد جهيد، عاد فركب إليهم مع جمع من الأمراء المماليك حيث هجموا على العامة وضربوهم. كذلك تعقب أولئك الأمراء العامة فى جميع خطط القاهرة وحاراتها فمنهم من سجن ومنهم من قتل، فلما علم السلطان بخبر هذه الحوادث ضد العامة، عزل الوالى، ووبخ الأمراء المعتدين على العامة، وأفرج عن العامة المسجونين، ثم نودى بالأمان، وفتحت الأسواق بعد أن كانت مغلقة طيلة فترة وقوع تلك الحوادث نتيجة خوف الناس مما لاقوه من عذاب وأهوال على أيدى أولئك الأمراء وأجنادهم.

وسجل لنا المقريزى، وهو شاهد عيان على حوادث سنة ٧٧٥هـ / ١٣٧٣ م، دور العامة فى التعبير عن رأيهم فيمن يرتضونه محتسباً

للقاهـرة، ولما كان لهـذه الوظيفـة الحسـاسـة من أهـميـة كبيـرة فى أسعار الغلال التى كانت تمثل الغذاء الأساسى اليومى لهذه الطبقة من الناس فى المجتمع، وكان السلطان وكبار الأمراء يدركون أهمية توفر تلك المواد الغذائية بأسعار منخفضة فى متناول أيدى تلك الطبقة. ولذا عندما طلب العامة عند ثورتهم وتظاهرهم حول القلعة عزل علاء الدين على بن عرب، عن وظيفة الحسبة، تم تنفيذ طلبهم.

ويظهر أن العامة اعتقدوا أن للمحتسب دوراً كبيراً فى تحديد الأسعار، فعملوا على الاستفادة من قدرتهم فى التعبير عن رأيهم من خلال الثورات السلمية والوقفات الاحتجاجية فى التعبير عن رأيهم، وتعيين من اعتقدوا إنه يستطيع فرض أسعار مناسبة للغلال والحبوب وغيرها من مستلزمات الغذاء اليومى، وكذلك حرصوا على عزل من يعجز عن توفير تلك المواد بالسعر المناسب.(١٦١)

لقد كان العامة فى مواقفهم الجريئة، والصادقة، يعبرون عن وجهة نظر الرأى العام فى بعض القرارات الصادرة عن مركز الحكم، والمرتبطة بشكل أو بآخر بمصالح العامة الاجتماعية، وأرزاقهم اليومية، من ذلك على سبيل المثال أنه عندما خلع على جمال الدين محمود القيصرى العجمى، واستقر فى حسبة القاهرة: "سخر العامة منه واستهزؤوا به لعهدهم به أمس - وهو من فقراء العجم - يجلس تجاه باب المارستان بالقاهرة ويبيع التمر".

---

(١٦١) حياة ناصر الحجى: السلطة والمجتمع فى سلطنة المماليك، ص ١٠٣.

الالتفاف حول مطالب الثورات

وفى ظل تلك الاحتجاجات والثورات حرص كبار الأمراء، أصحاب السلطة على الاستجابة لبعض طلبات العامة من أجل كسب رضائهم،وضمان سكوتهم عن تردى كثير من الأوضاع السياسية، والاقتصادية، والاجتماعية، فيلاحظ إنه ما أن يطلب العامة تعيين شخصية ما فى منصب المحتسب حتى ينفذ طلبهم، دون تأخير أو تردد، كما عمل أولئك الأمراء الطامعون فى السلطة فى أواخر عصر السلاطين المماليك البحرية على التقرب إلى العامة من أجل كسب محبتهم، وتأكيد شعبيتهم بين طوائفهم المختلفة، ونجحوا فى ذلك إلى أبعد الحدود - وقد يكون ذلك - تمهيداً لهدف الجلوس على كرسى الحكم فى سلطنة المماليك.(١٦٢)

نجمت أهم أشكال العنف والثورات الشعبية عن الضائقة الاقتصادية أو الظلم والقهر السياسى، فلم يترك المجتمع القائم على القوات العسكرية المملوكية والنفوذ الاقتصادى، ومدارس الشريعة المفككة التنظيم والكبيرة نفوذاً، كما لم يكن هنالك سلطات مسؤولة تتمتع بالكفاءة اللازمة للإصغاء إلى الشكوى التى تصدر عن عامة الشعب، ولم يكن لدى المماليك الذين يسيطرون على الاقتصاد سوى عدد قليل من الروابط المباشرة أو لا روابط البتة بينهم وبين الناس، فيما كان للعلماء والتجار الذين كانوا أكثر التصاقاً بعامة الناس تأثير قليل فى الأمور العائدة لرسم السياسة ما خلا الدعوة إلى إزالة المظالم.

وفى هذا الوضع أصبحت التظاهرات والاحتجاجات التى يقوم بها أهل الأسواق صيغة هامة للاحتجاج الاقتصادى، فسعى

---

(١٦٢) حياة ناصر الحجى: السلطة والمجتمع فى سلطنة المماليك، ص ١٠٤.

أصحاب الحوانيت إلى الدفاع عن مصالحهم متخذين الإضرابات وسيلة لهم. وذلك بإغلاق الأسواق فى أوقات الاضطرابات. وقد كانت مثل هذه الإضرابات دائماً ذات طبيعة وقائية ولم تكن أبداً مصممة للتقدم بطلبات جديدة، ورفض أصحاب الحوانيت القيام بأعمال تجارية احتجاجاً على فرض الضرائب الاعتباطية أو المتطرفة، وفى أزمات المواد الغذائية كان الخبازون وبائعو الخبز يغلقون محلاتهم وأفرانهم فى عملية حرب أعصاب مع المحتسبين الذين سعوا إلى وضع سقف للأسعار غير مرغوب فيه، وكان شائعاً أيضاً رفض القيام بأعمال تجارية احتجاجاً على التلاعب فى عمليات سك العملة، وكان يتمثل فى القيام بإضراب فورى مرتكز على الاعتراف بالمصلحة الشخصية ضد الشروط المالية غير الملائمة والتعسفية، ولعل ما كان أكثر شيوعاً هو إغلاق الأسواق التجارية للقيام بالدفاع ضد أعمال الشغب أو فساد المماليك الذين كثيراً ما كانوا يسطون على المؤن التى يرغبون فى الحصول عليها. وفى جميع هذه الحالات، مع ذلك، كان بإمكان المماليك أن يمارسوا تأثيراً فى التحكم والسيطرة، فكانوا يستطيعون سحق مثل هذه الإضرابات بالتهديد بنهب المحلات التى تبقى مغلقة. ومن جهة أخرى كان بإمكانهم أن يحرضوا على مثل هذه الإضرابات أيضاً حين يلائم ذلك مصالحهم الخاصة. فلقد اتهم الأمراء بالتآمر فى نشر الذعر فى الأسواق بغية استخدام الاضطرابات الاقتصادية من أجل إحراج الحكم. وكان الحكام أحياناً يغلقون الأسواق أثناء الاضطرابات ليحولوا دون وصول المؤن إلى أعدائهم.[١٦٣]

---

(١٦٣) إيرا لابدوس: مدن إسلامية فى عهد المماليك، ترجمة: على ماضى، (الأهلية للنشر والتوزيع، بيروت ١٩٨٧م)، ص ٢٣٩.

جبناك يا حكومة تحمينا

كما كانت الناس تلجأ إلى حكامها السياسيين بغية الحصول على الفرج ! ولما لم يكن عندهم لا الوسائل الرسمية ولا ناطقين باسمهم انتظاميين ليقوموا بتمثيلهم لدى السلطان، فقد كانوا يحتشدون فى القاهرة خارج أسوار القصر ليرفعوا الصوت عالياً مطالبين بأن يوليهم المسئول الاهتمام، وليناشدوه إراحتهم من مسغبتهم، وقمع المضاربات، ويمكن التصور أنه كان بالإمكان استقبال وفد منهم، علماً بأنه لم يكن هنالك أى دليل واضح أن مثل هذا الأمر قد حصل بأى حال من الأحوال. وحين حصلت المجاعة فى العام ٧٧٥/٧٣ - ١٣٧٤ م. تقدم وفد من عامة الشعب البارزين بعريضة إلى السلطان يطلبون فيها بطرد المحتسب. و يصف المقريزى الوضع بمصر عام ٧٧٦هـ / ١٣٧٤م فيقول "كثر موت الفقراء و المساكين بالجوع، فكنت أسمع الفقير يصرخ بأعلى صوته لبابة قدر شحمة أدنى أشمها وخدوها فلا يزال كذلك حتى يموت"[١٦٤] غير أنه ليس من الواضح من هم الذين قاموا بذلك ومن كانوا يمثلون، وكانت تبلغ طلبات الناس مسامع السلطان أحياناً بواسطة أمير يرسل إليهم للاستماع إلى مطلبهم، ولم يكن هذا الاحتمال بعيداً عن احتمال إرسال الجنود إليهم، عوضاً فى ذلك، لتفريقهم، وكان يرد على طلبات عامة الشعب الذين يجتمعون تحت القصر أو أسوار القلعة، بالعقاب، بحجة أنهم كانوا يعملون على خلق الفوضى والاضطراب، ويشتمون السلطان ويلسنون عليه.

ولما كانوا محرومين من التشاور، كان لا بد من اللجوء إلى مزيد من العنف كوسيلة وحيدة يتمكنون من السعى بها إلى الإنصاف،

---

(١٦٤) المقريزى، كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك، القسم الثالث (ج٢) ص ٤٠.

وقد كانت الناس تضع المسئولية على عاتق المحتسب أو الجباة والعسكر وموظفين آخرين فى تجارة الحبوب لفظاظتهم، وكانوا يهاجمونهم جسدياً كما كانوا يأملون بأنهم، بمعاقبتهم المحتسبين أو الجنود يدفعونهم إلى الضغط على أصحاب حوانيت ودكاكين الحبوب، والطحانين، والخبازين، فيخلقون الشعور بعدم الطمأنينة لدى أى موظف رسمى لا يسعى إلى تحسين قدرتهم بأنه سيبقى فى منصبه.

وغالباً ما كان مفتشو الأسواق والمحتسبون يرجمون بالحجارة ويُضربون ؛ وفى أحيان أخرى شهدت أزمات الخبز فى مصر سلسلة متوالية من المحتسبين قدموا أكباش فداء إرضاءً للعامة من الناس، فالثورات والتظاهرات والاحتجاجات مع ذلك قلما ما أدت إلى اغتيال المحتسبين والموظفين الرسميين، إذ أن ملامتهم لم تكن أبداً بينة تماما، فلم يتمكن الشعور الشعبى من أن يبلور مرارات متطرفة وعنيفة ضدهم.(١٦٥)

ويجب أن نأخذ بعين الاعتبار أثر الأسعار على الاستيراد، ومصالح مالكى الحبوب، والأمراء خارج القاهرة أو الأقاليم الأخرى ووضع الحبوب الخاصة بالسلطان نفسه. لقد أصبحت، إذن كل أزمة حبوب لعبة سياسية يحتدم غضبها حول السلطان دون أن يوجد أجهزة رسمية تعمل على إيضاح الصراع السياسى، وكانت هذه الأزمة بحد ذاتها نموذجاً لحياة المجتمع وقتذاك.

وكان هنالك سبب أساسى آخر للاحتجاج والعنف والثورة، آلا وهو سوء استعمال الحق فى فرض الضرائب، غير أن الأعمال التى أحدثها هذا التصرف اتبعت نمطاً مختلفاً، فى القاهرة، كانت

---

(١٦٥) إيرا لابدوس: مدن إسلامية فى عهد المماليك، ص ٢٤٢

التظاهرات الشعبية قليلة نوعاً ما، وغير فعالة فى أغلب الأحيان، ولم يسجل سوى مشاغبات عريضة فقط بسبب الضرائب المفروضة على قصب السكر، والفساد المالى العام بالرغم من أنه فى عام ٨٧١ هـ / ٦٦ ١٤٦٧م. جاء فريق من الحائكين يشكو إلى السلطان شراء النطرون بالإكراه، فجرت معاقبتهم وطوفوا فى شوارع القاهرة للتشهير بهم بقصد تحذير الجميع، فاتقدت العامة غيظاً وتدفقت غضباً وقاتلت المماليك لاحتجازهم الحائكين السيئى الحظ. أضف إلى ذلك أن نظام الضرائب كان واسع اللامركزية إلى درجة أن الفساد الفردى على سعة انتشاره، لم يستطع أبداً أن يجمع الناس ويحثهم على القيام باحتجاج مشترك عام.

بذرة ضعف

وفى القاهرة المملوكية أيضاً كانت الشكاوى الجماهيرية المطالبة بطرد الموظفين الرسميين المسئولين عن الفساد فى جباية الضرائب، أمراً غير مألوف. وقد تم فى بعض الأحيان طرد بعض القضاة، والمحتسبين، أو صغار الموظفين بسبب الاحتجاج الشعبى. غير أن الذين كانوا يتقدمون بعرائض وشكاوى الاحتجاج غالباً ما كانوا هم أنفسهم يتعرضون لخطر التوقيف والضرب، أما العرائض التى كانت تطالب بإزاحة الأمراء من ذوى النفوذ، فكان الاحتمال حتى السماع إليها أقل، لأن ذلك كان قضية سياسية دقيقة يمكنها أن تحرك تيارات من المكائد فى البلاط، وتقلب ميزان النفوذ بين المماليك.(١٦٦) وحالة تجارة الغلات التى كان الموظفون الرسميون الضعفاء متورطين بها أو المصالح الهامشية الأخرى، فقد يكون للاحتجاج الشعبى أثره عليها. ومع ذلك، فقد كانت بنية الدولة فى

(١٦٦) إيرا لابدوس: مرجع سابق، ص ٢٤٧.

هذه الحالات عرضة للتساؤل، ولم يكن عامة الشعب قادرين على أن يتمثلوا بسهولة فى ميزان القوى التى كانت تتحكم بتوزيع المراكز العالية، فكانت التظاهرات الشعبية، إذن، لتلقى كراهية المماليك. فى العام ٧٧٠ هـ / ١٣٦٨ ـ ١٣٦٩م. كانت حشود من الناس خارج حصن القاهرة يطالبون بأن يسلم إليهم حاكم القاهرة ورئيس المكاتب، قد فرقهم المماليك الذين ذبحوا، من غير شفقة أو رحمة، الناس العزّل بعد أن حاصروهم داخل مدرسة السلطان حسن. كان رد الفعل الأول للسلطان تجاه المتظاهرين إرسال أحد الأمراء للاستماع إلى طلبات الناس، والإصغاء إليهم، ولكن حين بدأت الناس برشق الجنود الذين كانوا يحرسون مدخل الحصن بالحجارة، عيل الصبر ووضعت الرحمة جانباً. وبالرغم من ذلك ولربما من أجل تجنب مصاعب أقوى، أقيل الحاكم بعد فترة قصيرة ومرة أخرى فى العام ٨٠٠ هـ / ١٣٩٧ ـ ١٣٩٨م. حين نادى عامة الشعب أمام بوابات الحصن بإقالة والى القاهرة أرسل السلطان مماليكه لطردهم بعيداً.

يمدنا التاريخ بروايته عن ثورة سنة ٧١١هـ قام بها الشعب على والى القاهرة، وعلى السلطان عندما أمر مماليكه بإخضاع الناس، فأغلق التجار دكاكينهم،، أحاط العوام بالقلعة، ولم يلبث السلطان أن تراجع، ونزل على حكم الشعب ونادى بالأمان، والاطمئنان وعزل والى القاهرة الذى غضب عليه الناس، وولى آخر بدلاً منه.(١٦٧)

كان أكثر ردود الفعل شيوعاً ضد الفساد المالى فى القاهرة هو الهجوم المباشر على الموظفين الرسميين الذين كانوا يسيئون إلى

(١٦٧) محمد زغلول سلام: الأدب فى العصر المملوكى، (ج١ ، دار المعارف، القاهرة ١٩٧١م)، ص٤٤ .

الشعب. وإذا لم يكن بالإمكان التأثير فى السياسات الضرائبية التى كان ينتهجها السلاطين، أو التأثير فى سلوك الأمراء، فقد ضمنت الاحتجاجات وما صاحبها من المهاجمات التى قام بها عامة الشعب على الأقل أن يراعى من يخلف الموظف المطرود من وظيفته جانب الحذر إن لم تخنه ذاكرته، وإن لم يكن الثمن الذى دفعه باهظاً جداً. ولقد كانت الهجمات المتفرقة التى وجهت ضد الموظفين الرسميين أمراً مألوفاً فى القاهرة، فاغتالت الجماهير الثائرة جباة الضرائب الظالمين، أو انتقمت من المماليك لقيامهم بالاختلاس بتنفيذ أحكام بالإعدام بهم على نحو سريع. وغالباً ما رجمت العامة الثائرة الأمراء الذين ارتكبوا الآثام، وحتى أن الناس نبشوا مرة من القبر جثة مملوك بغيض لينفسوا عن غضبهم.

ومع ذلك، ومهما كان المدى الذى وصلت إليه المظالم فى القاهرة فنادراً ما كانت ترتبط بالسلطان نفسه، فقد كانت جماهير الناس تتصرف وكأنما كان السلطان بريئاً، والموظفون الرسميون هم المذنبون(١٦٨)

وبالرغم من أن الحاكم كان يمكن أن يكون مخدوعاً من مستشارين فقد كان معتبراً معفياً من سوء النية، وتوقع الناس بأنه سيزيل الحيف حين يكون على بينة من أعمال وزرائه وأعوانه الشريرة، علاوة على ذلك، قلص وجود السلطان غليان القاهرة إلى هجمات متفرقة، وأزال المسوغات لثورات عامة أكبر عدداً وأكثر اتساعاً. إن ثورة عارمة ضد الظلم والفساد المالى فى القاهرة قد تكون هجوماً على النظام ذاته، وهو أمر لا يجوز الاستخفاف به حتى من قبل الجماهير الشعبية. ولقد كان الجيش فى القاهرة أقوى منه فى أى مكان آخر، وأية مقاومة جدّية أو أية مضايقات

(١٦٨) إيرا لابدوس: مرجع سابق، ص ٢٤٧.

كان بالإمكان سحقها بوحشية، وكان هذا الأمر مرشحاً للحصول فى أى وقت.[169] فى ظل افتقار الناس الثائرة إلى القدرة التنظيمية فى ثوراتها.

وكانت وظائف الدولة الكبرى مجالاً للصراع بين من يستحق ومن لا يستحق، ويستطيع من لا يستحق أن يتسلل إلى الوظيفة بالمال والخداع والقربى من السلطان ورجاله، وتقديم الرشاوى والبذل والبرطلة. فبهذه الوسيلة استطاع أن يصل علاء الدين بن الأثير إلى كتابة السر برشوة السلطان الناصر نفسه، وأن يقصى عنها مستحقيها شهاب الدين بن فضل الله العمرى، واستطاع فلاح بسيط فى عهد السلطان نفسه وهو هلال الدولة أن يصل إلى كرسى الوزارة سنة ٧٢٩ هـ.[170]

غير أن فاعلية الاحتجاجات والثورات الشعبية بدون مساندة عسكرية، كانت محدودة الأثر وعرضة للتلاعب والاستغلال، فضلاً عن ذلك كان أمضى سلاح فى يد عامة الشعب غير القادر على القيام بالثورة المسلحة، هو التهديد بالهجوم على الملكية، ونادراً ما كان يستخدم إلا بأمر من المماليك، وكانت الشكاوى العامة الغاضبة ضد النظام القائم يعوض عنها بالتضحية بمنازل وممتلكات الأمراء المخصصة للزوال على أية حال. فقد حُوِّل استخدام العنف من قبل الناس الثائرة عن أية انجازات دائمة أو ثورية. وكانت عامة الشعب قوة يحسب لها حساب، ولكنها لم تكن ذات نفوذ ينبغى أن يستشار أو يؤخذ بعين الاعتبار.

---

(١٦٩) السلطة والمجتمع فى سلطنة المماليك، مرجع سابق، ص ٢٤٨.

(١٧٠) محمد زغلول سلام: الأدب فى العصر المملوكى، ج ١ ، ص٤٢ .

وفى أوقات الضائقات السياسية والاجتماعية والثورات الشعبية كان يتم الاستعانة أحياناً بالعناصر الإجرامية واللصوص والحرامية للعمل لحساب الأجهزة الأمنية بطريقة غير رسمية، والشاهد فى ذلك المواقف المبهمة لمسئولى الشرطة فى مصر، حيث كان النظام بالطبع مسؤولاً عن قمع الجريمة والعنف، ولكن فى مرات عديدة كان رجال الشرط، يطلقون الحرية للصوص والحرامية، وفى عام ٧٢٨هـ / ١٣٢٧ ـ ١٣٢٨م. باع حاكم القاهرة "المندوبية" بمئة درهم يومياً وسمح للمشترين بأن يعوضوا عن خسارتهم بقدر ما يستطيعون، وفى مرة أخرى، وفى العام ٨٦٤ / ١٤٦٠م. أطلق حاكم القاهرة الحرية للمماليك اللصوص مدعياً بأن ليس لديه عليهم سلطة قضائية، وقد اتهم بأنه حرامى هو نفسه. وقد يكون أمراء آخرون قد وجدوا عصابات اللصوص ذوى نفع لهم، وذلك باستئجار هؤلاء اللصوص ليقوموا بأعمال القتل وسفك الدماء.[١٧١]

الثابت أن النظام الحاكم فى عصر سلاطين المماليك تسامح على نحو أكثر صراحة، مع بعض العناصر الإجرامية التى كان يتم استخدامها كقوات - غير شرعية - مساندة للأمراء المماليك ضد بعضهم البعض أو ضد الثورات الشعبية، ويتم إطلاق يدهم فى سلب الأحياء ونهب الأسواق القاهرية، وقد قاتلت تلك العناصر الإجرامية إلى جانب السلطان برقوق لدى تسلمه مقاليد الحكم، فرجموا خصومه السياسيين، ونهبوا منازلهم، وكان السلطان برقوق بدوره قد حماهم من الاعتقال والمضايقة من قبل أجهزة الشرطة، ويعطينا القتال الذى حصل فى سنة ٧٩١هـ / ١٣٨٩م. أكثر الصور وضوحاً حين وزعت

(١٧١) المرجع نفسه، ص ٢٨٦.

الأسلحة على الزعار والعامة بأمر من السلطان ليقوى ساعده ضد تمرد قام ضده، وفى غمرة انشغال القصر الحاكم وجد اللصوص والزعار أنفسهم أحراراً يصولون ويجولون فى المدينة، وكانت الأسواق والقيساريات محروسة، غير أن الزعار والعناصر الإجرامية ملأوا وسط القاهرة وسلبوا الجنود ثيابهم وأسلحتهم، وطالما كانت لبرقوق اليد العليا فى السيطرة على الوضع كان يبدو أن هناك بعض الكبح والتقييد، ولكن حين انقلب مد المعركة إلى مصلحة غريمه يلبغا الناصرى[١٧٢] انضمت العناصر الإجرامية والدهماء وحثالة عامة الناس، إلى جانبه، وهاجموا بيوت الأمراء واسطبلاتهم، ونهبت أحياء القاهرة، حتى تم إطلاق سراح السجناء من الفلاحين والمجرمين معاً، وأرخوا لهم العنان فى القاهرة فهوجم الأمراء، والأعيان، والتجار، واليهود، ومع ذلك، فقد نظم الناس أنفسهم لحماية مدينتهم، فنظمت الأحياء دورياتها، وناشد التجار النظام يلتمسون تأمين الحماية لهم، وعلى أثر انتهاء التمرد والانقلاب على برقوق، تمتعت القاهرة بفترة قصيرة من الراحة.

وبدأت الجولة الثانية من الاضطرابات عندما انفجر القتال بين المتمردين المنتصرين، فجمع منطاش أفراد العامة، والزعار واللصوص وناشدهم شخصياً أن يهبوا إلى مساعدته فى ثورته ضد يلبغا، وحين كان العامة يقاتلون إلى جانبه، انطلق الزعار والحرامية ولصوص آخرون للقيام بأعمال النهب والسلب، ولكى يحتفظ منطاش بتعاون الزعار استدعاهم ودون أسماءهم وأسماء أحيائهم،

---

(١٧٢) يلبغا الناصرى هو: نائب السلطنة سيف الدين يلبغا الذى عاصر السلطان محمد الناصر " أمير حلب"، حيث تمكن من مهاجمة القاهرة ومن إبعاد " برقوق" عن الحكم و إرجاع " الأشرف شعبان" من (الأسرة القلاوونية) إلى سدة الحكم.

وعين عليهم العرفاء (الرؤساء) ووزع ٦٠٠٠٠ درهم، ولم يزدهم ذلك إلا لصوصية وإجراماً، وحين اختل النظام من جديد، ثار عامة الشعب وطلبوا الحماية من أعمال السلب والنهب، وطالب الأعيان بإعفاء حاكم القاهرة من منصبه، وبكبح جماح الزعار، فأعيد الحراس إلى التمركز فى الأحياء؛ وتم أخيراً اعتقال ثمانية رؤساء للزعار من حى الحسينية، وستة من حى الصالحية، فسجنوا وحُظر عليهم من الآن وصاعداً حمل السلاح.

جرت أحداث مماثلة فى الأعوام ٨٠١، ١٣٩٨/ ٨٠٢، ١٣٩٩/ ٨١٣، ١٤١٠ و٨٣٢، ١٤٢٩م. وفى كل مرة كان اللصوص ينضمون إلى الزعار لينهبوا المناطق الضعيفة، والمناطق النائية بخاصة. وبعد مضى عقد من الزمن اشترى السلطان جمقق أيضاً دعم الزعر والمجرمين فى صراعه من أجل تسلم السلطنة، ثم استخدمهم فى سلب أعدائه!!.

والحق أن ثوراتنا فى عصر المماليك لم تخمد سواء فى العواصم كالقاهرة ودمشق أو فى الأقاليم كالصعيد أو الحوف الشرقى، وبعض بوادى الشام، وكثيراً ما تقرأ عن قومة لعامة الناس من الزعار والحرافيش والدهماء، ومن لف لفهم من الفئات الدنيا، وفى المدن، وفى الصعيد عن ثورة العربان من الكنوز وهوارة وغيرهم.

واضطر المماليك كى يشددوا قبضتهم على البلاد أن يولوا نواباً أقوياء تساندهم فرق من فرسان المماليك والعسكر، وتوكل إليهم سلطات مطلقة إلا فى أمور قليلة كانوا يرجعون فيها إلى القاهرة، وكثرت تولية النواب وعزلهم خشية من قوتهم وامتداد نفوذهم حتى قال الشاعر.

هذى أمور عظام　　من بعضها القلب ذائب

ما حال قطر يليه　　فى كـل شهرين نائب

لاشك هى حال مضطربة، وغير مستقرة، وهى على حساب الرعية ومصالحهم، فهم يصلون نارها، كل يوم نائب جديد وسياسة جديدة وأهواء جديدة، وأطماع وأعوان.

ثورات قبائل مصر

ومن أشهر ثورات القبائل العربية ما قام به فى سنة ٦٨٠ هـ من فوران وقتال بين عرب جهينة ورفاعة فى صحراء عيذاب فى جنوب مصر وشرق السودان، وقتل فيها جماعة، وكان صاحب سواكن مسيطراً على تلك الجهات فكتب إليه السلطان أن يوفق بين الفريقين.

وفى سنة ٧٠١هـ اضطرب الصعيد بثورات العربان، قال المقريزى: "وفيها كثر فساد العربان بالوجه القبلى، وتعدى شرهم فى قطع الطريق إلى أن فرضوا على التجار وأرباب المعايش بأسيوط ومنفلوط فرائض جبوها واستخفوا بالولاة ومنعوا الخراج وتسموا بأسماء الأمراء، وجعلوا لهم كبيرين أحدهما سموه بيبرس والآخر سلار، ولبسوا الأسلحة، وأخرجوا أهل السجون بأيديهم"(١٧٣).. ولأنهم تسموا بأسماء الأمراء ولبسوا الأسلحة، واخرجوا أهل السجون بأيديهم، فأحضر السلطان الأمراء والقضاة، والفقهاء، واستفتاهم فى قتالهم، فأفتوا بجواز ذلك ".(١٧٤) وعاد عربان الصعيد للثورة مرة أخرى سنة ٧٥٤هـ بقيادة الأحدب العركى شيخ قبيلة عرك، وقد انتصر عليهم المماليك بقيادة السلطان الصالح ابن ناصر.(١٧٥)

---

(١٧٣) المقريزى: السلوك ج١، ص ٧٠٠.

(١٧٤) محمد زغلول سلام: الأدب فى العصر المملوكى، ج١، ص ٤٢.

(١٧٥) المرجع السابق، ص ٤٤.

وفى خضم ذلك قام أهالى الحوف الشرقى بدور مهم فى الحياة السياسية والحربية فى عصر سلاطين المماليك،حيث كان الحوف الشرقى هو مركز الثقل بالنسبة لباقى القبائل العربية بمصر، ولكثرتهم العددية فى هذا الإقليم، (ومن المعروف أن صلاح الدين أقطع عرب الحوف إقطاعات بالشرقية فى مقابل القيام بالخدمات الحربية فى الجيش السلطانى، حيث تعهدوا بتقديم عدد محدد من الفرسان، كاملى العدة للمشاركة فى المجهود الحربى)، وعلى ذلك يمكن القول أنهم اشتركوا فى الحملات التى خرجت من بلبيس أعـــــوام (٥٧٣هـ / ١١٧٧م)، (٥٨٢هـ/ ١١٨٦م) (٥٨٥ هـ / ١١٨٩م).(١٧٦)

وقد كافأ السلطان الصالح نجم الدين أيوب عرب الشرقية بأن منح لقب أمير لـ (معبد بن منازل)، من قبيلة جذام، كما تعهدت القبائل العربية بالشرقية بتقديم الأبل والخيول لمراكز البريد، والسهر على حراسة الإدراك (جمع الدرك وهو الطريق)، ونقل الغلال.(١٧٧)

ولكن منذ مقتل توران شاه وقيام الدولة المملوكية، اتصل عرب الشرقية بالملك الناصر يوسف صاحب دمشق وطلبوا منه الحضور إلى مصر للقضاء على حكم المماليك، ويذكر أن الناصر يوسف استطاع الهروب - بعد فشل معركة وادى السدير - بمساعدة شخص عربى من الشرقية يدعى نوفل البدرى. وقد كان (عرب الشرقية وأهلها) يتعاونون تعاونا مخلصا عندما تتعرض البلاد

---

(١٧٦) عمرو عبد العزيز منير: الشرقية بين التاريخ والفولكلور، (دار الإسلام للنشر، المنصورة ٢٠٠٥م)، ص٤٣.

(١٧٧) السيد محمد عاشور: بلبيس بلد الأنبياء والرسل، دراسة تاريخية تأصيلية، مكتبة الغد ١٩٨٩، ص٣١

للخطر، فقد اشتركوا مع زملائهم عرب وأهل الغربية مع المماليك ضد التتار فى موقعة عين جالوت (سنة ٦٥٨هـ/ ١٢٦٠م)، فى عهد السلطان (سيف الدين قطز)، وقدموا الكثير من الأموال، وكانت الصالحية مركزا لتجمع الجند الذين انطلقوا للقاء العدو أغسطس ١٢٦٠م.[١٧٨]

وقد ظل عرب الشرقية يمثلون ثقلا سياسيا وحربيا مهما طوال عصر المماليك، ولذا نجد أن المماليك كانوا يطلبون مساعدتهم عندما يشب الصراع بين بعضهم البعض، فعندما نشب الصراع بين بلبغا الناصرى وبين السلطان برقوق(سنة ٧٩١هـ/ ١٢٨٨م) لجأ الأول لمساعدة الأمير(شمس الدين محمد بن عيسى) كبير إحدى قبائل الشرقية حيث أكرم بلبغا أثناء وجوده بالصالحية، وحين هرب الناصرى إلى الزنكلون.[١٧٩] وحدث بها قتال بين بلبغا الناصرى ومعه خمسون فردا من المماليك ضد منطاش انضم عرب قبيلة العايد لبلبغا لكنهم هزموا.[١٨٠]

وفى عصر السلطان أيبك ثارت القبائل العربية بالشرقية والغربية والمنوفية، والمرتاحية،والوجه القبلى، وكان الهدف من الثورة هو إسقاط حكم المماليك، وهكذا دارت معركة حامية بين المماليك فى بلدة دروة[١٨١] إحدى قرى إقليم المرتاحية، وانتهت بهزيمة القبائل العربية سنة ٦٥١ هـ / ١٢٥٣م.

---

(١٧٨) محمد رمزى، القاموس الجغرافى، جـ١، القسم الثانى، ص١٠٠

(١٧٩) الزنكلون: من أعمال مركز الزقازيق الآن واسمها الأصلى سنكلوم ووردت فى مباهج الفكر وفى تاج العروس بأن أسمها على لسان العامة زنكلون وعرفت بالزنكلون فى العهد العثمانى فوردت بضمن دفتر المقاطعات سنة ١٠٧٩ هـ ؛ محمد رمزى، القاموس الجغرافى، جـ١، القسم الثانى

(١٨٠) المرجع السابق، ص ٣٥٦

(١٨١) دورة: قرية تتبع مركز أجــا دقهلية (انظر محمد فوزى: القاموس الجغرافى، ج ١، ق ٢، ص (١٧١).

ويبدو أن المعركة لم تكن حاسمة، إذ كان السلطان المعز أيبك ببلبيس وطلب مقابلة الأمير حصن الدين ثعلب لعقد صلح، وبالفعل ذهب حصن الدين ثعلب لمقابلة المعز أيبك، وكان معه ألفا فارس، وستمائة رجل، ولكن المعز أيبك اعتقل الأمير حصن الدين ثعلب، ونصب المشانق للجميع من بلبيس إلى القاهرة(١٨٢) وفرض عليهم الضرائب وأمر بمعاملة القبائل العربية بالعنف والقسوة.

ورغم الأوامر الصادرة من السلاطين بمنع بيع السلاح للعرب فى مصر فقد قاموا بثورة سنة ٧٥٠ هـ / ١٢٤٩ م، ولكن السلطان حسن بن الناصر محمد استطاع القضاء عليها تحت سنابك الخيول وقبض على ٣٠٠ رجل واستولى على ثلاثة آلاف جمل، وأجبر المقبوض عليهم على القيام بالأعمال الشاقة فى العمائر وفى عمارة مسجده حتى هلك أكثرهم.(١٨٣)

ولم يكن غريباً أن تسيطر روح الانتقام على القبائل العربية لدرجة أنهم ثاروا وهاجموا القاهرة مقر الحاكم، واعتدوا على المارة وهم على خيولهم سنة ٧٥٤ هـ / ١٣٥٣ م واشتركوا فى ثورة عامة اجتاحت الوجه البحرى بأجمعه سنة ٧٥٥هـ / ١٣٥٤م.(١٨٤)

وقام بعض رجال القبائل العربية بمصر بإجهاض ثورات ضد بعض الحكام - مثلاً - حين لجأ الأمير سودون الجلب إلى طلب المساعدة من أمير العرب بالشرقية علم الدين سليمان بن بقر،

---

(١٨٢) المقريزى: السلوك، ج ١، ق٢، ص ٣٨٨، محمد فتحى الشاعر: الشرقية فى عصرى سلاطين الأيوبيين والمماليك، (دار المعارف، القاهرة ١٩٩٧م)، ص ٥٣.

(١٨٣) المقريزى: السلوك، ج ٢، ق ٣، ص ٨٠٧، محمد فتحى الشاعر: الشرقية فى عصرى سلاطين الأيوبيين والمماليك، ٥٤.

(١٨٤) محمد فتحى الشاعر: مرجع سابق، نفس الصفحة.

عندما قام بثورة ضد السلطان فرج بن برقوق سنة ٨٠٥هـ / ١٤٠٢ م، لكن أمير العرب ابن بقر أبلغ فرج بالأمر، فكان نتيجة ذلك إلقاء القبض على سودون وتسميره لمدة ساعة بالرميلة .(١٨٥)

ثورات العرب فى مصر وبخاصة فى الحوف الشرقى تكررت كثيراً ومعها تنوعت أساليب القمع من جانب المماليك، حتى أصبحت تمثل صورة رهيبة تكاد تأخذ صفة الاستمرار فى عصر سلاطين المماليك فنراهم (سنة ٧٩٠هـ/ ١٣٨٨ م) قاموا بتسمير (صلب) أمير العرب بالشرقية (على بن نجم) بالإضافة إلى عشرين شخصا من أكابر قومه لقتلهم اثنين من أبناء أحد كبار موظفى الشرقية. كما فرض بعض سلاطين المماليك غرامات مالية كبيرة على زعماء القبائل بالشرقية، كما فعلوا مع (ابن بقر) من قبيلة جذام و(ابن عبس العائدى) كوسيلة للقمع (عام ٧٩١هـ/ ١٣٨٩م).(١٨٦)

واتبع المماليك أسلوب العنف أحيانا حين هاجموا عرب (بنى زهير) من قبيلة جذام وتم اشهارهم (تجريسهم) على ظهور الجمال. لكن (بنى زهير) أصروا على ثورتهم، ولذلك قام السلطان برقوق (عام ٧٩٣هـ) بالقبض على ابن فضالة شيخ عرب بن زهير وضربه بالمقارع وشملت حركة القمع أيضا عرب بنى وائل بالشرقية حيث تم تسمير نحو ٣٠ منهم ووضعوا الباقين فى سجن الخزانة

---

(١٨٥) ابن حجر: أنباء الغمر بأنباء العمر، ج ٢، ص٢٢١، نقلاً عن محمد فتحى الشاعر: مرجع سابق، ص٥٥

(١٨٦) قاسم عبده قاسم، عصر سلاطين المماليك،التاريخ السياسى والاجتماعى، عين للدراسات، الطبعة الأولى،١٩٩٨، ص ١٥، عمرو عبد العزيز منير: رسالة ماجستير مرجع سابق ص ٨٦، عمرو عبد العزيز منير: الشرقية بين التاريخ والفولكلور ص٤٣.

بالقاهرة (عام ٨٠٠هـ/ ١٤١٥م)، وحاول السلطان المؤيد شيخ مقاومة ثورات القبائل العربية فى الوجهين القبلى والبحرى، ولكنه فشل وامتنع الجنود المماليك عن الخروج لملاقاة الثوار.

وحاول السلطان المؤيد شيخ مقاومة تلك الثورة فأرسل إليهم عددا من الأمراء فى العام التالى (٨١٩هـ/ ١٤١٦م) ونجحوا فى ذلك، وغنموا غنائم كثيرة وأموالاً.(١٨٧)

واتبع السلطان جمقمق أسلوب الملاينة مع ثورة الحوف الشرقى وأرسل سنة (٨٤٩ هـ / ١٤٤٥م) زين الدين الاستادار(١٨٨) إلى بلبيس ومعه بعض المماليك للنظر فى شئون الثوار وتلبية مطالبهم، وظل الأمير زين الدين هناك فى بلبيس شهراً كاملاً.(١٨٩)

وفى سنة ٨٥٤ هـ / ١٤٥٠م. أجحف شهاب الدين أحمد والى المحلة فى ظلمه للناس من سكان المحلة بالغربية، ولما لم يتحملوا ظلمه، ثاروا وهجموا عليه فى منزله ونهبوه وجردوه من ملابسه واتجهوا به إلى أحد المساجد سيراً على الأقدام، وضربوه ضرباً

---

(١٨٧) ابن حجر: أنباء العمر، ج ٣، ص ٧٣، محمد فتحى الشاعر: الشرقية فى عصرى سلاطين الأيوبيين والمماليك، ص ٥٦.

(١٨٨) الاستادار: هو لقب للذى يتولى تحصيل مال السلطان أو الأمير وصرفه وتمثيل أوامره فيه وهو لفظ فارسى أحدهما (استد) ومعناها الأخذ، ومعناها المتولى للأخذ

(١٨٩) محمد فتحى الشاعر، مرجع سابق، ص٤٧. وانظر: ابن إياس: بدائع الزهور ج٥، مصدر سابق، ص١٢٧، وانظر: عبد العزيز الشناوى: الدولة العثمانية دولة إسلامية، ج ١، مكتبة الأنجلو، القاهرة ١٩٨٠، ص١٢٩. وانظر: كمال مغيث: مصر فى العصر العثمانى، الطبعة الأولى، مركز الدراسات القانونية، القاهرة ١٩٩٧، ص٧١.

أفضى إلى موته[١٩٠] وحيال ذلك تم سجن واعظ المحلة الشيخ ولى الدين أحمد المحلى، ولم ينقذه من السجن والتعذيب الذى تعرض له، إلا أحد المقربين للسلطان الظاهر جمقمق، وهو الشيخ محمد ابن عمر الطرينى.[١٩١]

وفى عهد السلطان الملك الظاهر خشقدم (٨٦٥ ـ ٨٧٢هـ / ١٤٦١ ـ ١٤٦٧ (ثار أهل الغربية وفى مقدمتهم القبائل العربية نتيجة التعسف والصلف والقمع فى تحصيل الضرائب، فاضطر السلطان إلى إرسال تجريدة لهم وتم سحق الثورة بالقوة، ولكنها تكررت سنة ٨٧٢هـ / ١٤٦٧م فى مطلع حكم الظاهر تمريغا (٨٧٢هـ / ٦٧ـ ١٤٦٨م) ولشدة غليان الثورة لم يتجاسر عسكر المماليك الخروج لقمع الثورة.[١٩٢]

وفى عصر السلطان إينال العلائى حضر إلى القاهرة وفد من المصريين المحتجين من أهالى مدينة ميت غمر، وقابلوا زين الدين الاستادرار، وشكو إليه ما حل بهم وببلدهم بسبب عمليات النهب والتخريب التى يقوم بها نائبه عليهم (بن بقر)، لذلك أرسل السلطان إينال سنة ٨٦٣هـ / ١٤٥٨م لجنة لتقصى الحقائق وتم تشكيلها من المماليك السلطانية، ومعهم بعض الأمراء لإعادة الأمور إلى نصابها.[١٩٣]

---

(١٩٠) السخاوى: التبر المسبوك، (طبعة بولاق، القاهرة ١٨٩٦م)، ص ٣٢٢، وانظر / السيد محمد أحمد عطا: إقليم الغربية فى عصر الأيوبيين والمماليك دراسة تاريخية حضارية (سلسلة تاريخ المصريين، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة ٢٠٠٢م)، ص ٤٧.

(١٩١) السيد محمد أحمد عطا: إقليم الغربية فى عصر الأيوبيين والمماليك، ص ٤٨.

(١٩٢) المرجع السابق، ٤٩.

(١٩٣) أبو المحاسن: منتخبات من حوادث الدهور، ج ٢، ص ٢٢٠. نقلاً عن / محمد فتحى الشاعر: الشرقية فى عصرى سلاطين الأيوبيين والمماليك، ص ٥٨.

ويبدو أن السلطان اضطر إلى اتخاذ إجراءات أكثر صرامة ضد كل من يهدر المال العام ويستغل نفوذه من عماله ونائبيه على الأقاليم فقام السلطان بالقبض على نائبه الشيخ عيسى بن بقر، وصدر أوامره بسلخه وسلخت قطعة من رأسه سنة ٨٧٥هـ ١٤٧٠/م. وأرسل إلى القاهرة مكبلاً فى الحديد وضرب ضرباً مبرحاً بين يدى السلطان لقيامه بأعمال تخريب ونهب فى مدينة قطيا، وقتله من كان بها، وتم عزله من منصبه وتعيين صقر ابن بقر شيخاً لعرب الشرقية عوضاً عنه.(١٩٤)

هكذا شعر السلطان المملوكى إينال العلائى بالنخوة والغيرة على "المال العام"!. الذى انتهك، على رؤوس الأشهاد، فلا تستغربوا كثيرا أن يحدث هذا فى عصر سلاطين المماليك.. عصر البطولة والدفاع عن استقلال مصر لمجرد الدفاع عن عرش السلطنة، وتركها تسقط فى يد الأعداء إلى حد النذالة والخيانة، واستنزاف الشعب إلى أن يموت جوعاً أو بالطواعين والأوبئة، عصر قريب الشبه بعهد الرئيس السابق حسنى مبارك الذى بدأ مقاتلاً وانتهى قاتلاً.

لا تستغربوا حين تنصتوا إلى بداياته المبشرة، وكيف انقلبت الشعارات كوارث ؛ فبعد تنصيبه رئيسا قال: "لن أرحم أحدا يمد يده إلى المال العام، حتى لو كان أقرب الأقرباء، إننى لا أحب المناصب ولا أقبل الشللية، وأكره الظلم ولا أقبل أن يظلم أحد، وأكره استغلال علاقات النسب". (صحيفة مايو ١٨/ ١٠/ ١٩٨١) كما صرح لمجلة (أكتوبر) قائلا: "لن أقبل الوساطة وسأعاقب لصوص المال العام". (١٩٨١/١٠/٢٦) وفى الشهر نفسه قال لمجلة (المصور): "مصر ليست ضيعة لحاكمها". (٣١/ ١٠/ ١٩٨١) وفى

(١٩٤) محمد فتحى الشاعر: المرجع السابق، ص ٥٩ .

خطبة له فى فبراير شباط ١٩٨٢ قال: "الكفن ما لوش جيوب، سنعلى من شأن الأيادى الطاهرة".

لكن طول بقاء مبارك فوق الكرسى أدى إلى تكاثر الطحالب، وتكالب ذوى المصالح، وتقنين الفساد حتى أصبح فساداً عاريا لا يتوارى ولا يخجل، بل يفرض نفسه فى وقاحة وقدر غير مسبوق من الفجور والشراسة. وحين سمح بالكلام عن النهب المنهجى لثروات مصر، عمد مبارك إلى تنفيذ نظرية معاوية، فلا يحول بين الناس وبين ألسنتهم، ما داموا لا يحولون بينه وبين الكرسى. وذهبت سدى إضاءات عاصم الدسوقى حول الجوع الكافر للملاك الجدد لأراضى مصر وثرواتها. ولم يجد أحمد السيد النجار من يسمعه، وهو يستعرض وثائق وأرقاما عن حقائق الفساد والبطالة والغلاء والركود والديون، فى كتابيه (الانهيار الاقتصادى فى عصر مبارك)، و(الاقتصاد المصرى. من تجربة يوليو إلى نموذج المستقبل)، وفى الكتاب الأخير فصل مهم عنوانه (الدور الأمريكى وجماعات المصالح وانفجار الفساد) تناول جناية مبارك فيما توهم أنه إصلاح اقتصادى، أى خصخصة الاقتصاد، وفضائح بيع الشركات الرابحة، بأسعار تقل عن ٥٪ من ثمن الأرض المقامة عليها، ودور مكاتب الخبرة الأمريكية فى تلك الصفقات القذرة. وعانى مصباح قطب وهو يلعن زمن عاطف عبيد فى كتاب "عن دور ورطانة أساتذة إدارة الأعمال ومراكز التدريب والاستشارات" وفى مقدمتهم عاطف عبيد الذى كوفئ عقب صدور كتاب (عصر الماركتنج)[١٩٥] بتصعيده لمنصب رئيس وزراء مصر!!.

---

(١٩٥) للمزيد راجع /سعد القرش: ماذا أقول لابنتى يا سيادة الرئيس («القدس العربى» لندن ٢٠٠٧/٤/ ٤.

ليسدل الستار على عهد لا حد لغرابته فى انتشار العفونة، وتفجر البخر حتى فقد المقاتل بعض قداسة من تاريخه العسكرى، حتى بدا المشهد المصرى شديد الإعتام، لا يفتح نوافذ على الخيال، ولا تتسرب من مسامه المغلقة آفاق للتفاؤل؛ ليس بسبب الفساد وحده، وإنما أيضاً بتحالف أصحاب النفوذ مع رجال المال، وشبح توريث الحكم، وتربص التيارات المتأسلمة أن تسقط الثمرة الناضجة الملوثة فى حجورهم، بلا جهد ولا تضحيات، مع الملاحقة الأمنية والقضائية للأصوات التى تعلو لتشكل نوعا من المصارحة والمكاشفة، أو الجرد الشامل لثلاثين عاما من التخريب المنظم للدولة، ودفع جيوش السوس للنخر فى أصولها وثوابتها، لدرجة تصل إلى الخيانة العظمى.

فى عصر سلاطين المماليك لم يختلف الأمر كثيراً فلقد تفنن المماليك فى إجهاض الثورات التى قام بها أهل مصر ومنها قيام المماليك (بشنكلة) أى (بتعليق) أمير العرب (سليمان بن قرطام) على باب زويلة لمدة ثلاثة أيام (عام ٩٠٥هـ-١٥٥٠/م)، لثورته ورفضه لنظام حكم (العبيد أو الرقيق الأبيض) فى القاهرة. وفى عهد السلطان قايتباى أصدر أمر بشنق (قاسم بن بقر) أمير عرب جذام الذى قاد ثورة ضد الحكم فى القاهرة، فشنق (سنة ٨٨٥ هـ / ١٤٨٠م).

ولجأ السلطان قانصوة الغورى لأسلوب الردع والسلخ والشنق لزعماء بعض القبائل، كوسيلة لإخماد ثوراتهم، حيث شنق (عمر بن موسى النفعى) من عرب تعلبة، وسلخ (أحمد بن شكر) وتم حشوة تبناً وأرسل للقاهرة، وسلخ جلد (صالح بن قرطام) من بنى حرام، فقام أهل قبيلته بقلع (جسر الحفاية) فساح على الأرض، واستطاع السلطان قانصوة إجهاض ثورات عديدة قام بها أبناء مصر تحت سنابك الخيول مثل الشرقية بعد أن زود واليها بخمسمائة من

المماليك،[١٩٦] وبرغم ذلك استمرت ثورات أهل مصر من حين لآخر طوال عصر سلاطين المماليك امتداداً إلى عصر الحكم العثمانى اشترك فى عدد كبير منها الفلاحون والقبائل العربية تحت قيادة (قبيلة ابن بقر). مُستشرفين لأحفادهم يومَهم العصيب، المُفعم بدروس التحرّر وقيَم العزّ وألوانِ التضحيات أمام قسوة خذلان الحكام والطغاة وشراسة الظالمين والبغاة. لتواصل النفوس الأبية الثائرة دورها الفاعل فى العهد العثمانى، ليُحيى قيمه المنتمى إليها، قيَم قد خبت تحت رماد الفقر والحرمان، أو بطش وطغيان، قد عطل أو قتل الطاقات المبدعة لعقود طويلة، تخلّت مصر فيها عن دورها المجيد كمحلّ الرأس من الجسد فى نهضة هذه الأمة ورشد مسيرتها.

مصر ولاية عثمانية

وصل التدهور الداخلى فى مصر إلى مداه ولم يكن ممكنا أن تصمد الدولة المملوكية المنهارة من الداخل فى وجه الأخطار القادمة من الخارج. وقد بدأت الدولة العثمانية كمقاطعة رعوية فى الأناضول (فى نهاية القرن الثالث عشر الميلادى /السابع الهجرى)، وما لبثت أن أخذت فى الظهور على مسرح الأحداث فى منطقة المشرق العربى منذ النصف الأول من القرن الرابع عشر الميلادى، وبدأ نمو الطمع العثمانى نحو الشرق العربى فى بداية القرن السادس عشر الميلادى، وبذل طومانباى خلال سلطنته القصيرة

(١٩٦) سعيد عبد الفتاح عاشور، المجتمع فى عصر سلاطين المماليك، القاهرة،١٩٦٢م. ص ٥٦.

التى استمرت ثلاثة شهور جهودا مضنية للدفاع عن مصر- التى كانت داراً للخلافة الإسلامية منذ أن أحياها السلطان الظاهر بيبرس سنة(٦٥٩هـ/ ١٢٦١م) وظلت بالقاهرة حتى دخول الغثمانيين القاهرة سنة(٩٢٢ هـ / ١٥١٧ م).

وحين اهتز جسد طومانباى فى مشنقة على باب زويلة كان ذلك فصل الختام بالنسبة للدولة المملوكية التى تحملت عبء التصدى للمغول والصليبيين ومهمة إحياء الخلافة الإسلامية.[١٩٧] وبهذا وقعت مصر فى قبضة العثمانيين بعد هزيمة المماليك فى معركتى مرج دابق (١٥١٦م) والريدانية (١٥١٧م).

صدام الطغاة

وبدأ الغزو التركى لمصر، واتخذ الجيش العثمانى طريقه بقيادة السلطان سليم الأول (١٥١٢- ١٥٢٠م) ودخل سليم الحدود المصرية ووصل إلى بئر العبد، ثم إلى قرية قطيا، وفى يوم الجمعة ٢٣ ذى الحجة وصل إلى الصالحية، وفى اليوم التالى وصل إلى قرية الخطارة ثم إلى بلبيس فى يوم (الأحد٢٥ ذى الحجة). مكث السلطان العثمانى فترة وجيزة فى بلبيس، قدم له خلالهما بدو بنى بقر المسيطرون على الشرقية الطاعة، وفى هذا السياق يذكر د.أحمد فؤاد متولى: "أن ولاء البدو كان عاملاً هاماً فى نجاح العثمانيين لدخول مصر والسيطرة عليها، لأنه لو لم يكن الأمر كذلك لكان بإمكانهم إشغال قسم كبير من الجيش العثمانى فى قتالهم وتهديدهم للقوافل المحملة بالمؤن للجيش العثمانى. وفى (يوم الخميس

---

(١٩٧) قاسم عبده قاسم: عصر سلاطين المماليك التاريخ السياسى والاجتماعى، مرجع سابق، ص١٥٥

٢٩ ذى الحجة الموافق ٢٢ يناير ١٥١٧ م) تلاقى الجيشان المملوكى والعثمانى فى الريدانية أمام قبر السلطان قايتباي قرب العباسية.[١٩٨] لتنتهى أيام الحكم المملوكى ويبدأ الحكم العثمانى لمصر.

أصدر السلطان سليم الأول قبل وصوله إلى بلبيس منشوراً أن مدينة بلبيس ستكون فى أمان وسلام ولن يصيبها أذى ولكن السلطان طومانباى كان قد تحقق من أن العثمانيين على وشك دخول بلبيس أمر بحرق كل ما فيها من مؤن حتى لا يستفيد منها الجيش العثمانى.[١٩٩] ورغم ذلك قاومت بعض القبائل الكثير من عرب الشرقية قد وقفوا لفترة طويلة بجانب (طومان باى) ضد العثمانيين وبخاصة عربان الشرقية وبلبيس فكانوا يقبضون على من يلقونه من العثمانية ويقطعون رؤوسهم ويحضرونها بين يدى السلطان الذى يأمر بتعليقها على باب النصر أو باب زويلة.[٢٠٠]

وبعد الفتح العثمانى " عقد العثمانيون مع القبائل العربية بالشرقية اتفاقيات أقروا فيها سيادة شيوخ تلك القبائل على المناطق التى كانت لهم السيادة فيها من قبل فى العصر المملوكى، وتعهد الشيوخ بحفظ الأمن وتنمية الزراعة وجمع الضرائب من أراضيها، غير أن تلك الاتفاقات لم يكن من الممكن احترامها لوقت طويل وبدأت سيطرة القبائل العربية على الأقاليم الزراعية المتاخمة لمضاربهم مثل بنو بقر فى الشرقية.[٢٠١]

---

(١٩٨) احمد فؤاد متولى، الفتح العثمانى للشام ومصر ومقدماته، مرجع سابق، ص ١٨٣.

(١٩٩) السيد محمد عاشور، مرجع سابق، ص١١١ .

(٢٠٠) ابن إياس: بدائع الزهور فى وقائع الدهور، ج ٥، ص ١٤٢.

(٢٠١) كمال حامد مغيث، مصر فى العصر العثمانى (١٥١٧– ١٧٩٨م)، مركز الدراسات والمعلومات القانونية لحقوق الإنسان، (ط الأولى، القاهرة، (١٩٩٧) ص٨٠

مهمة كل طاغية

وبعودتنا لثورات الشعب المصرى ضد الطغاة والبغاة فى العصر العثمانى نجده فى سنة ١٦٣٥م أغلقت أسواق القاهرة احتجاجاً على زيادة الفِرَدّ على السكان وتدخل رضوان بك الفقارى (من أمراء المماليك) لإلغاء المظالم وعادت الحياة لطبيعتها.

وفى سنة ١٦٧٨م أدت أزمة ارتفاع أسعار القمح والغلات وندرتها إلى حركة شعبية غاضبة، حيث بلغ ثمن أردب القمح ١٨٠ نصف فضة. مما أدى إلى انتشار السخط العام وانفجر العصيان وأشتعلت الحرائق فى الدكاكين ومخازن الحبوب فى الرميلة، وأرسل الباشا الجند لقمع الثورة وإعادة الهدوء مما أدى إلى سقوط ١٢ شهيداً من المصريين.

وفى سنة ١٦٩٢ م استولى الضابط كُجُك محمد " على زعامة أوجاق الإنكشارية وكان ضابط صاحب سياسة إصلاحية، تحالف مع زعماء الحزب الفقارى المملوكى، وعلاجاً للأزمة الاقتصادية القائمة آنذاك، حصل على موافقة قادة الأوجاقات العثمانية على إلغاء "الحمايات" المفروضة على التجار والحرفيين، وأراد قصر نشاط الفرق على الأعمال العسكرية، ومنعها من الالتزام بالمقاطعات الحضرية، كما فرض تسعيرة جبرية على الغلال وحَرَّم زيادتها، وعلق على المشانق بعض المضاربين بأسعار الغلال، ورفض رشاوى ضخمة عرضها عليه كبار تجار القمح، ومن الواضح أن سياسة كجك محمد الحازمة حاولت مراعاة أفراد العامة وصغار التجار والحرفيين، غير أن كجك محمد قد اغتيل نتيجة لسياسته الإصلاحية، مما أدى إلى ارتفاع أسعار الغلال حيث ارتفع سعر القمح بعد قتله إلى ٧٢ نصف فضة للأردب، فتجمهر الشحاذون

والفقراء فى الرميلة وقذفوا ممثلى الديوان بالأحجار، ثم نهبوا مخازن الغلال وحوانيت تجار الحبوب من المحتكرين، وسرق الجوعى الخبز من الأفران.

وفى سنة ١٧١٥م. قامت الاضطرابات عندما حاول الباشا أن يضع تعريفة للنقود وأن يضرب "بارة" جديدة وأن يُحرِّم استخدام العملات المنقرضة، وهنا حدث هياج شامل فى القاهرة، وأغلقت الأسواق، وصعد المتظاهرون إلى القلعة حتى حصلوا على مرسوم بتثبيت الأسعار. وكان لابد من انقضاء شهر كامل كى تعاود الأسواق نشاطها الطبيعى. كما شهدت القاهرة اضطرابات خطيرة سنوات ١٧٢٢م، ١٧٢٣م، ١٧٢٤م، وكان سببها المباشر غلو أسعار الحبوب وذلك الغلو الذى ظل يلح على الدوام من سنة ١٧٢١م، وحتى سنة ١٧٢٨ م، واستمرت الأزمة إلى سنة ١٧٣٣م، حيث استقبل الأهالى عثمان باشا الحلبى الذى كان والياً على طرابلس. وأثناء قدومه للولاية، ودخوله من باب النصر قامت الرعية فى وجهه وذكروا له الغلاء وفساد المعاملة، فلم يلتفت إليهم فرجموه فسحبت جماعته السيوف وطاردت الأهالى.

وفى سنوات ١٧٣١ م / ١٧٣٥ م. اندلعت الانتفاضات الشعبية فى الإسكندرية بسبب المجاعة والغلاء وارتفاع الأسعار، وفى القاهرة كانت الأهالى تقوم فى نفس الوقت بإغلاق المحلات، ونهب الأسواق، ودخول الأزهر، والاتجاه نحو الرميلة حيث فتح عليهم جنود العزبان والمماليك النار، ولكن الثورة استمرت مع ذلك الفترات متعددة فى القاهرة.

وفى سنة ١٧٨٦ م. ثارت الإسكندرية مرة أخرى، حيث استقبل شعب الإسكندرية الوالى الجديد (الشريف محمد يكن باشا ١٢٠١ـ

١٢٠٢هـ / ١٧٨٦ م - ١٧٨٨م بالثورة، وثار العامة وقبضوا على حاكم المدينة وأهانوه وجرسوه على حمار وحلقوا نصف لحيته وطافوا به البلد وهو مكشوف الرأس وهم يضربونه ويصفعونه بالنعالات.

وفى القاهرة سنة ١٧٨٦ م، اندلعت ثورة كبيرة وقد بدأت من حى الحسينية حيث ثار أهلها بسبب نهب الجنود لدار أحمد سالم الجزار، واحد شيوخ الطريقة البيومية الصوفية، حيث ذهب الأهالى إلى الأزهر وهم يدقون الطبول ويتسلحون بالنبابيت ومعهم جمع كبير من العامة، وأغلقوا أبواب الجامع وصعدوا إلى المنارات والمآذن يصيحون وانتشروا فى الأسواق فى حالة من الغضب الشديد والتجأوا إلى شيوخ الأزهر.

كما ثارت بولاق سنة ١٧٨٧م، حيث حدثت معركة بين أهل بولاق وبين العسكر بسبب إفسادهم وتعديهم وفسقهم بالنساء، واعتدائهم على السوقة وأصحاب الحوانيت، وخطفهم للبضائع بدون ثمن، بالإضافة إلى تلك المعركة اجتمع من أهل بولاق يريدون الذهاب إلى الباشا الذى اضطر إلى إرسال العسكر للقتال إلى جانب أهل بولاق ضد عسكر " القليونجية" حراس ساحل بولاق الذين تسببوا فى تلك الأحداث، وانهزم "القليونجية" ونزل الباشا ليتلافى الأمر ويأخذ بخاطر العامة.

وبالتأكيد لم يغب الريف عن هذه الثورات ضد الظلم والفساد والاستغلال، ففضلاً عن كثرة حالات الهروب من القرى والتى سبق أن أشرنا إليها فقد قامت الكثير من الحركات الثورية للفلاحين المصريين، وإن لم نجد الكثير من تلك الحركات مذكوراً فى الكتب المعاصرة، فإنما يعود ذلك إلى أن المؤرخين المعاصرين كان أغلبهم يقيمون بالقاهرة وفى معية الحكام والولاة، وكانوا يعتمدون فى تسجيلهم للأحداث على

مشاهداتهم الشخصية واتصالهم المباشر بالأحداث، ولذلك لم تذخر كتبهم بحركات الفلاحين فى الريف إلا تلك الأحداث التى كانت أصداؤها تتجاوز الريف لتتردد فى القاهرة.

وثورات الفلاحين لم تكن تسلك سبيل الهجوم على قلاع أرباب الإقطاعيات، إنما استهدفت السطو على الغلال بصفة خاصة، فإزاء فداحة الضرائب تعرض الريف لحملة تجويع مستمر ومنظم، ولا عجب إذن أن رمت الثورات الزراعية بشكل عام إلى نهب كل ما يمكن نهبه من قمح أمراء الإقطاع المخزون فى الصوامع أو على المراكب وإضرام النيران فى الباقى لإرغامهم على تخفيض الضريبة وفى أواخر القرن الثامن عشر، حدثت بعض الثورات، فى الريف كرد فعل لإمعان بكوات المماليك الملتزمين، وغيرهم من رجال الإدارة فى النهب والقهر، فقد ثار فلاحو منطقة طهطا ضد الكُشّاف ورفضوا دفع الضرائب سنة ١٦٨٨م. ولم يتخلف الفلاحون عن صفوف المقاومة ضد الفرنسيين طوال فترة احتلالهم لمصر، فقد شاركوا فى المعارك التى ثارت بين مصر الحملة الفرنسية كشبراخيت وإمبابة، كما شاركوا فى ثورات القاهرة ضد الوجود الفرنسى، واعترضوا سبيل القوات الفرنسية وهاجموا معسكراتهم فى أكثر من مكان.(٢٠٢)

ولم يهدأ المصريون تجاه الحكم العثمانى نتيجة العسف والظلم الواقع عليهم، ولعل ذلك أدى لقيام سلسلة من الثورات كانت نتيجة لسلسلة طويلة من الثورات والانتفاضات على الظلم والفساد والاستغلال المملوكى والتركى، كما عبرت عن وعى قومى ناجح، وتمثل ذلك فى ثورة أهل مصر والتى تزعمها علماء الأزهر ضد

---

(٢٠٢) كمال مغيث:مصر فى العصر العثمانى،ص ١١٤ .

الحكام، ويصفها بعض المؤرخين بأنها أول ثورة تطالب بالدستور فى التاريخ المصرى الحديث، ففى (سنة ١٢٠٩هـ - ١٧٩٥م) جاء للقاهرة عدد كبير من فلاحى الشرقية يشكون ظلم أتباع محمد بك الألفى وطلبهم من الفلاحين ما لا قدرة لهم عليه، واستغاثوا بالشيخ عبد الله الشرقاوى،[٢٠٣] ويسهب الجبرتى فى الحديث عن أحداث تلك الثورة وتداعياتها (عبد الرحمن الجبرتى - عجائب الآثار جـ ٤، ص ٢٥٤، وجمع عبد الله الشرقاوى الشيوخ والعلماء وأغلقوا أبواب الجامع وأرسلوا إلى مراد بك وإبراهيم بك فلم يهتما وفى اليوم الثالث للثورة حضر الباشا فى منزل إبراهيم بك، وكذلك الشيخ السادات والشيخ عبد الله الشرقاوى والبكرى والشيخ الأمير، وانتهى النقاش إلى إبطال المظالم المحدثة والمكوس وكان القاضى حاضرا فكتب حُجة عليهم وقر عليها الباشا وختمها إبراهيم بك ومراد بك وهدأت الثورة وسمى هذا العام (بعام الحُجَّة).[٢٠٤]

وبانتقال السلطة الفعلية إلى أيدى الأمراء المماليك فى القرن الثامن عشر وبتغليب نفوذهم على نفوذ البكوات العثمانيين لعب العربان دوراً كبيراً فى الفتن السياسية والصراعات العسكرية التى كانت تثور بين البيوت المملوكية مع استغلال تلك الصراعات لصالحهم.

---

(٢٠٣) هو الشيخ عبد الله بن حجازى بن إبراهيم، الشافعى المذهب، ولد كما يقول الجبرتى " فى حدود سنة ١١٥٠هـ فى قرية " الطويلة " من إقليم الشرقية (تبع مركز فاقوس الآن) ولهذا لقب بالشرقاوى، حفظ القرآن فى قرية " القرين " ثم قدم للأزهر لتلقى العلوم، وتولى مشيخة الأزهر بعد الشيخ العروسى سنة ١٢٠٨ هـ، وكان عمره سبعا وخمسين سنة، وكانت حادثة عام الحجة تنطق بما كان للشيخ من نفوذ ومكانة وحب للبلاد فى عهد المماليك واشترك فى تولية محمد على باشا عرش مصر فى ١٣ صفر سنة ١٢٢٠هـ.

(٢٠٤) نفسه، ص ١٨٣ (وللمزيد انظر: محمد البهى، حسن إبراهيم حسن، محمد جمال الدين سرور، الأزهر تاريخه وتطوره، القسم الأول، مطابع الشعب، ١٩٦٤ ص ص٥٧، ٥٨).

لم تعدم مصر على طول تاريخها وضعاً متميزاً سواء كانت دولة مستقلة كاملة السيادة أو دولة تابعة، وفى ظل تبعية مصر للدولة العثمانية كان لمصر ملحقاتها فى الحجاز وأحياناً فى الشام، وشهدت مصر خلال تلك الحقبة عدة انتفاضات استقلالية جعلتها دولة داخل الدولة، بل كادت يوماً ما، وفى معنى ما تجعلها دولة فوق الدولة. وهو دور نستطيع أن نسميه بدور القوة "فوق الإقليمية الفاعلة" super regional power وقد قصدت من استخدام هذا المسمى إظهار هامش الاختلاف بين طبيعة وتأثير الدور المصرى عن دور الكيانات الإقليمية التقليدية فى المنطقة وقتئذ والتى كانت تميل للانكفاء النسبى فى هذه المرحلة بسبب عوامل داخلية تتعلق بنظام الحكم والأوضاع الداخلية.

ثورات الاستقلال فى مصر العثمانية

وشهدت مصر العديد من حركات الاستقلال التى قام بها الولاة العثمانيون كحركة أحمد باشا الخائن سنة ١٥٢٤م.[٢٠٥] وقد توفر لأحمد باشا فى مصر العديد من عناصر الثورة والتمرد الضرورية، فى مقدمتها بُعد مصر الجغرافى عن مركز الدولة العثمانية، ثم يلى ذلك ما تتمتع به مصر من غنىً وكِبر مساحتها، ووجود المماليك

(٢٠٥) انتقل أحمد باشا فيما بعد للشروع فى الثورة، فى مطالبته بحقه فى سلطنة مصر وإصراره على امتيازاته الملكية فى ذكر اسمه فى خطبة الجمعة وسك اسمه على العملة. وفى تلك الأثناء ابتنى جيشاً خاصاً به غالبيته إلى حد بعيد من المماليك، وطلب من الإنكشارية التى تحصنت فى قلعة القاهرة بالانصياع له، فلما رفضت فرض عليها الحصار، وأمام قسوة الحصار اضطر هؤلاء من شق طريقهم عن طريق نفق سرى تحت الأرض داخل الحصن، فسقطت القلعة بيد أحمد باشا فى ٧ شباط (فبراير) ١٥٢٤م، ثم أعلن نفسه سلطاناً فى الثانى عشر من الشهر نفسه، وذكر اسمه فى الخطبة وعلى السكّة ؛ انظر / الإسحاقى، محمد بن عبد المعطى: أخبار الأول فيمن تصرف فى مصر من أرباب الدول. القاهرة ١٣١٥هـ، ص ١٦٥.

الناقمين فيها على الحكم العثمانى، والذين يجمع بينهم وبينه النسب الجركسى القوقازى، متوهماً أن تلك العناصر كفيلة بتحقيق نجاحٍ باهرٍ فى تهديد الوجود العثمانى فى مصر.(٢٠٦) إضافة إلى حركات التمرد والاستقلال التى حاول القيام بها العديد من أمراء المماليك. غير أن الكثير من تلك الحركات لم يكن يصدر فى معظم الأحوال إلا عن مغامرة شخصية همها الأساسى الانقلاب العسكرى والاستحواذ على السلطة والاستيلاء على أموال الخزانة السلطانية السنوية.

يستثنى من كل تلك الثورات ثورتان توافرت لهما العديد من حركات الاستقلال والنجاح، وكان يحدوهما الأمل فى إعادة بعث الدولة المصرية على أسس أكثر تطوراً فى النواحى الاقتصادية والاجتماعية والسياسية وهما ثورتى : شيخ العرب همام بن يوسف فى الصعيد، وثورة على بك الكبير الاستقلالية.

وتعد قبيلة هوارة التى ينتسب إليها الشيخ همام من القبائل العربية التى هاجرت مع الفتح الإسلامى إلى شمال أفريقية، حيث استقرت ببلاد المغرب العربى، وفى ظل الدولة الفاطمية والتى أقامت فى أول الأمر بتونس استقر الهوارة فى منطقة البحيرة من الإسكندرية إلى برقة، وكانت لهم السيطرة على عربان البحيرة.

وظل الأمر على ذلك فى ظل الأيوبيين والمماليك، وفى عهد السلطان المملوكى على بن شعبان ١٣٨١ /١٣٧٦م. قام زعيم هوارة

(٢٠٦) أسامة محمد أبو نحل: حركات التمرد فى مصر فى بداية العهد العثمانى (١٥١٧-١٥٢٤م) والنتائج المترتبة عليها (مجلة الفسطاط التاريخية)؛ عبد الكريم رافق: العرب والعثمانيون ١٥١٦-١٩١٦ .ط١ ، دمشق (١٩٧٤)، ص ٨٦.

بدر بن سلام بثورة كبيرة أخمدها الأمير برقوق ونقل على آثرها معظم الهوارة إلى الصعيد حيث أقطعهم ناحية جرجا. حيث استقر الهوارة فى الصعيد، ومارس فريق منهم الزراعة وارتبطوا بالأرض بينما آثر فريق آخر حياة البدو.

رغم ذلك استمر الهوارة فى الصعيد يقومون بالثورات المتوالية ضد حكم المماليك فى عهد السلاطين : برقوق، جقمق، قايتباى، الغورى. وظلت العلاقة بين القبائل العربية والمماليك علاقة عدائية حيث أنف العرب الخضوع لدولة المماليك باعتبارهم وإن أصبحوا سلاطين إلا أنهم قد مسهم الرق.

جمهورية.. شيخ العرب همام

وفى ظل هذه الظروف، وفى قرية فرشوط ولد شيخ العرب همام بن يوسف سنة ١١٢١هـ / ١٧٠٩م. فى بيت ورث الثراء والمكانة، وتولى زعامة الصعيد بالإضافة لضعف السلطة المركزية فى عصره، فسيطر على الصعيد وأقام حكماً إدارياً دقيقاً لتنظيم شؤون أراضيه والعاملين فيها، وكون جيشاً كبيراً من الهوارة أقاربه ومن المماليك الفارين إلى الصعيد هرباً من منافسيهم، حيث التحق كثيرون منهم بخدمة الشيخ همام وانضموا إلى صفوف جيشه والذى يقدر عدده بما يقارب ٣٥ ألف مقاتل.

وبعد أن قضى على بك الكبير على جميع منافسيه لم يكن هناك بد من تفادى الصدام بين الشيخ " همام " و "على بك الكبير" لذا جهز على بك وبسرعة فائقة جيشاً كبيرًا حشد فيه إلى جانب جنده المماليك مجموعة كبيرة من رجال الفرق العسكرية كلها بقيادة قائد جنده " محمد بك أبى الذهب " ومعه مجموعة كبيرة من الأمراء والصناجق أتباع على بك.

وأمام أسيوط دارت المعركة الحاسمة التى كُتب فيها النصر لقوات على بك بعد قتال عنيف قُتل فيه الكثيرون من الثوار أتباع الشيخ همام الهوارى إضافة إلى لجوء محمد بك أبو الذهب إلى سلاح الخيانة والخديعة فأغرى ابن عم همام "الشيخ إسماعيل الهوارى " بخيانة همام واعداً إياه برئاسة الصعيد بدلاً من همام إذا ما تقاعس عن القتال فى صفوف همام ونشر فكر التخاذل بين الثوار.

لذا قصمت الخيانة ظهر الشيخ همام واضطر إلى التقهقر وخرج من مسقط رأسه وعاصمة نفوذه ومجده ومات مكموداً مقهوراً قرب إسنا فى قرية قمولة فى سنة ١٧٦٩ م وكان فى نحو الستين من عمره.(٢٠٧)

رجل.. ودولة

وعلى جانب آخر شهدت ضفاف النيل نهاية الحركة الاستقلالية لعلى بك الكبير عن الدولة العثمانية، على يد خادمه وخائنه محمد بك أبو الذهب عام ١٧٧٣م؛ حيث اتفق محمد بك أبو الذهب مع الدولة العثمانية على أن يعود إلى القاهرة ويتخلص من مخدومه على بك الكبير الذى أعلن استقلال مصر عن الدولة العثمانية وأخذ ينظم إدارة مصر ويصلح المفاسد المختلفة ويسك عملة مصرية نقش عليها اسمه، وأمر بذكر اسمه بدلاً من اسم السلطان فى الخطبة. وقضى على الانفلات الأمنى وأقام لمصر علاقات خارجية للخروج من المحلية إلى آفاق العالمية، اعترفت الحجاز بسيادته عليها وامتدت دولته إلى الشام وحلب.

(٢٠٧) كمال حامد مغيث، مرجع سابق، ص ١٢٠.

ولكن من الواضح أن محمد بك أبو الذهب قد استقر رأيه بالاتفاق مع الدولة العثمانية على أن يعود للقاهرة ويتخلص من على بك الكبير، وأصبح محمد بك أبو الذهب شيخا للبلد عام ١٧٧٢م، وعندما تمكن على بك من تكوين جيش جديد وحين وصل إلى الصالحية فى (٢٨ أبريل سنة ١٧٧٣م) حرك محمد بك قواته من العادلية نحو الصالحية وبدأت المعركة وانتهت بهزيمة على بك، وفى الثامن من (مايو عام ١٧٧٣م) مات على بك الكبير متأثراً بجراحة، وخلصت مصر بكاملها لمحمد بك أبو الذهب بعد انتصاره بمعركة الصالحية.[٢٠٨]

ولم يمر قرن من الزمان على الفتح العثمانى حتى أدى تصاعد نفوذ أمراء المماليك على سلب الوالى العثمانى، أى سلطة حقيقية وتثبت العديد من الحوليات التاريخية ما أصبح للمماليك من نفوذ على الوالى العثمانى.[٢٠٩] ففى أحداث ثورة القبائل العربية سنة (١١٣٤هـ/ ١٧٢٢م) يذكر أحد المؤرخين كيف تمكن المماليك من إجبار الوالى العثمانى على الموافقة على محاربة قبائل الشرقية فيقول : " ثم إن إسماعيل بك عمل جمعية فى بيت عبد الرحمن أغا وأجمعوا على إنهم يرسلون تجريدة إلى سالم بن حبيب "، والعرض على الباشا وطلبوا على موجبه فرمانا فأبى ثم إنهم أخذوا

---

(٢٠٨) حسن إبراهيم حسن، محمد جمال الدين سرور، الأزهر تاريخه ونفوذه، مرجع سابق، ص ٣٢٧

(٢٠٩) دانيال كريسيليوس، جذور مصر الحديثة، ترجمة عبد الوهاب بكر (نهضة الشرق، القاهرة، ١٩٨٥) ص ص ٢٠٧، ٢٠٨، ٢٠٩ .

الفرمان منه بالقهر عليه وعينوا على بك وعبد الرحمن أغا باش التجريدة".[210]

وهكذا كان الحال فى عهد مراد بك وإبراهيم بك،[211] حيث وصلت البلاد إلى حالة سيئة اقتصاديا وسياسيا ترتب على ذلك اهتزاز ثقة الناس فى رموز الحكم وخلق حالة من الخوف لدى الناس من التعامل معهم ولا تتوانى قريحتهم فى تغذية هذا الشعور بمجموعة من الأمثال مثل : (فر من العسكرى فرارك من الأجرب) (جبناك يا سلطة تحمينا حميتى النار وكويتينا)، (لو كان دراعك عسكرى اقطعه)، (يارب يا متولى مصيبة تاخد العثمانلى) ليدل ذلك على وجود شحنات مكتومة من الغضب لدى عامة الناس ضد رموز الحكم وسياسة النهب والقمع التى أتقنوها ليساهم ذلك فى تعميق الروح الثأرية بين الناس والسلطة الحاكمة وتجلى ذلك فى الشرقية حين حدثت حوادث نهب قام بها الأصبهانية وهم فرقة من عساكر الأتراك ونهبوا بلبيس والصالحية فثار الفلاحون مما اضطر الأمراء لإحضار الجنود وتوبيخهم على ذلك.[212]

المحرقة.. والبرىء

وشهدت مصر فى العصر العثمانى من الولاة من اتسم بالوحشية البالغة ومنهم مسيح باشا وقد عينه السلطان مراد قرب نهاية القرن السادس عشر (من ٩٨٢ إلى ٩٨٨ هـ / ١٥٧٤ م إلى ١٥٨٠م) فقتل عشرة آلاف مصرى باعتبارهم من المجرمين، ومنهم على باشا (١٦٠٠م) الذى كان يتمتع فى كل مرة يخرج فيها إلى

---

(٢١٠) كمال حامد مغيث، مصر فى العصر العثمانى، مرجع سابق، ص ١٠٢.

(٢١١) السيد محمد عاشور، مرجع سابق، ص ١١١

(٢١٢) عبد الرحمن الرافعى: تاريخ الحركة القومية وتطور نظام الحكم، الأعمال الفكرية، مكتبة الأسرة، ١٩٩٨، ص ٦٤

شوارع القاهرة بتهشيم رؤوس الناس حتى أن جواده كان يعود فى كل مرة إلى القلعة ملطخاً بالدم.

وكان مصطفى باشا ١٦٢٤م يفحص بانتظام تركات الأثرياء، فيصادر ما يزيد منها قبل أن يرد الباقى إلى الوارثين الشرعيين بيد أن حسن باشا (١٦٣٠) قد ذهب إلى حد أبعد فقد كان يستولى على التركة بأكملها فلا يبقى شيئاً للوارثين وعندما كان يرى تجمعاً فى أحد الطرق ينقض بجواده، ويستل سيفه فيطعن به من يطوله بقصد التفكه، وقد أحصى من مات على يديه بتلك الطريقة فكانوا اثنى عشر ألفاً.

كما شهدت مصر أعداداً من الولاة الفاسدين والمفسدين والذين اصطنعوا الأزمات وعملوا على الإفادة الشخصية من الأزمات الطبيعية على حساب الشعب وقد أشارت المصادر التاريخية إلى ولاة عملوا على تزييف العملة كعلى باشا الصوفى - أول من زيف العملة من الولاة - (١٥٦٤ - ١٥٦٦م) حيث أمر بأن تخلط فى المائة درهم فضة ثلاثون درهماً نحاساً، فانعكس أثر ذلك على السوق الداخلية وارتبكت الأسعار وكسدت السلع وتتالت بعد ذلك عمليات غش العملة. وشهدنا فى العصر العثمانى كيف استغل بعض الولاة أعوام الجفاف، وما يترتب على ذلك من حدوث الغلاء، وبخاصة فى الحبوب وارتفاع أسعارها بصورة كبيرة للاتجار فى الحبوب كما فعل على باشا السلحدار (١٦٠١ - ١٦٠٤م).[٢١٣]

فالمؤكد أن هناك شرخاً فى هذه العلاقة من الخوف والانعزالية وهو ليس وليد وقائع محددة أو فترة محددة ولكنه نتاج لتراكمات حدثت عبر فترة ممتدة من الزمن. وقد أخذت هذه التراكمات

---

(٢١٣) مصر فى العصر العثمانى: مرجع سابق، ص ١٢٧.

أشكالا مختلفة تبلورت فى معظمها حول قضية إهدار كرامة المصرى على يد الحاكم ورموزه من العسكر(٢١٤) وتفريغ مبدأ (إقامة الدين وسياسة الدنيا بالدين)(٢١٥) وإخلال الحاكم بمبدأ الإمامة القائم على خلافة شخص من الأشخاص للرسول ﷺ فى إقامة القوانين الشرعية وحفظ حوزة الملة على وجه يجب إتباعه على كافة الأمة(٢١٦) وتفريغ ذلك كله من مضمونه الحقيقى فارتبط ذلك بعملية فساد وإفساد واسعة داخل حوزة الحاكم بكل قطاعاته وطوائفه تعددت معه وتكاثرت أشكال العنف وقسوة الحاكم ورموزه بل وارتبطت بها. فالإسحاقى المنوفى ينقل ما معناه: " ويقال أن... القسوة عشرة أجزاء تسعة فى الترك وواحد فى سائر الناس..(٢١٧) خاصة وأن الترك باختلاف مشاربهم استخدموا الكثير من أنواع التعذيب فى مصر - والتى كانت سائدة آنذاك فى أماكن أخرى - مثل الخازوق والترسيم والشنق والصلب والخنق والضرب بالكرباج والسلخ ولجأوا إلى التشهير والتجريس وغيرها...(٢١٨).

فمن لم يؤد ما عليه من ضرائب : "فيحبس فى الـ "أرقحانة" ويعذب بأنواع العذاب ويربط بالبكرة فى ديوان الغورى ويعلق من

---

(٢١٤) حسنين توفيق ابراهيم: العنف السياسى فى مصر (دراسة ضمن كتاب ظاهرة العنف السياسى من منظور مقارن)، تحرير نيفين عبدالمنعم، الطبعة الأولى، مركز البحوث والدراسات السياسية، بجامعة القاهرة، القاهرة، ١٩٩٥، ص ٤١٤.

(٢١٥) أبوعبدالفتاح على بن حاج: فصل الكلام فى مواجهة ظلم الحكام، الطبعة الأولى، دار العقاب، بيروت، ١٩٩٤ ، ص١٢٧.

(٢١٦) على عبد الرازق: الإسلام وأصول الحكم، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة،١٩٩٣ ، ص ٢، وانظر: عبدالرازق أحمد السنهورى: أصول الحكم فى الإسلام، سلسلة مكتبة الأسرة، القاهرة١٩٩٨ ، ص ٤١.

(٢١٧) أخبار الأول فيمن تصرف فى مصر: مصدر سابق، ص٧ .

(٢١٨) سيد عشماوى: الجماعات الهامشية، ص٦٧ .

يديه ويجرد من ثوبه ثم يجلده الجلادون بسياط من جلد الفيل جلدا "اللهم عافنا" يعلمه من قاساه..."(٢١٩) أو أن يدخل ما يقرب من : "مائة رجل ومعهم مسلم طرحوه أرضا وأخذوا فى جلده وضربوه بالعصى مائتى ضربة على بطنه وكتفيه.."(٢٢٠).

ومن المشاهد الباكية الضاحكة التى نقلها لنا ابن إياس وتكشف عن بعض ملامح العنف وقسوة الحاكم ورموزه ما كتبه عن "خاير بك" حيث: كان جبارا عنيدا عسوفاً سفاكاً للدماء شنق ووسط وخوزق من الناس جماعة كثيرة واقترح لهم أشياء فى عذابهم فكان يخوزقهم من أضلاعهم ويسميه شك الباذنجان..."(٢٢١)

خاير بك جابه خلال فترة ولايته ثورة من جانب القبائل العربية فى الحوف الشرقى قادها شيخ العرب عبد الدايم بن بقر، وقد فشل خاير بك فى استمالته، مما اضطره إلى تعيين والده الشيخ أحمد بن بقر فى مشيخة جهات الشرقية، فازدادت الاضطرابات بعدما تحدى الشيخ عبد الدايم وأعوانه السلطة فى منية غمر وأحرقها وغيرها من القرى فى الشرقية، ويؤكّد ابن إياس ذلك بقوله: "وفى يوم السبت تاسعه (أى شهر صفر ٩٢٤هـ) قويت الإشاعات بعصيان عبد الدايم؛ وأن قد التفّ عليه عربان كثيرة من الشرقية والغربية، وطرد أباه الأمير أحمد من الشرقية، واضطربت أحوال الشرقية إلى الغاية"(٢٢٢)

---

(٢١٩) أوليا چلبى: مصدر سابق، ص٤٣٢.

(٢٢٠) بيرو طافور: رحلة طافور فى عالم القرن الخامس عشر الميلادى، ترجمة حسن حبشى، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة ٢٠٠٢، ص ٦٩.

(٢٢١) ابن إياس: بدائع الزهور، ج ٥، ص ٤٨٤.

(٢٢٢) ابن إياس، محمد بن أحمد: بدائع الزهور فى وقائع الدهور. (تحقيق: د. محمد مصطفى، ٥ أجزاء، ج٥، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٨٤م)، ص، ص٢٢١،. ٢٤٠

ويقول الجبرتى عن الأمير سليمان بك المرادى: "كان ظالما غشوما، ويعرف "بريًّحه" بتشديد الياء وسبب تسميته بذلك أنه كان إذا أراد قتل إنسان ظالم يقول لأحد أعوانه: (خذه وريًّحه) فيأخذه ويقتله[٢٢٣] وأضحى المصرى كليمونه جافة امتصها بشر شرهون وأيام أكثر شراهة.

إن عنف وقسوة الحاكم ورموزه جعلت فى أجساد بعض المصريين لها مناعة ضد أعمال الخوزقة والضرب بالكرباج والسلخ وكأنهم يستعذبون الألم أو يسخرون منه يأسا أو تفكها مريرا من صيرورة أحوالهم بحيث يستطيع الباحث أن يرى صورة حقيقية لمدى ما يتركه رموز الحكم من آثار على حياته فالمصرى يكره الحاكم فى كل صورة حتى أدناها ويكره الإدارة والقوة التى تسلبه حريته وقوته وكرامته وحياته[٢٢٤] ولكن لم تسلبه تلك اللزوجة ما بيت التبكيت والتنكيت ولقد أعطى الرحالة أولياچلبى صورة لاستهتار المصرى بالحاكم وسيفه الظالم ويكملها بالاستهانة بالعذاب الواقع على كاهله لدرجة لا تملك معها سوى أن تقول: "شر البلية ما يضحك!!" فيذكر (أولياچلبى) فى سياق وصفه لـ (جرأة جبابرة مصر) على حد قوله: "من الغريب أن لصا من فلاحى مصر أخطأه الحظ... واستيقن من قتله فأعطى الكاشف كيسين أو ثلاثة أكياس نقدا طالبا إليه إيصاله إلى مكان القتل بالقاهرة بموكب كموكب قائد فلا يكاد هذا الرجاء يصدر منه حتى يقبله الكاشف فيتسلم منه الأكياس ويسلمه للجلادين الذين يذهبون به إلى ميدان "السياسة" - الإعدام- ويصلبونه ثم يسلخون جلد ظهره إلى صدره وجلد صدره

---

(٢٢٣) الجبرتى: المصدر سابق، ج٤، ص ١٢٨ -١٢٩.

(٢٢٤) إبراهيم شعلان: الشعب المصرى، ص٧٥ .

إلى ظهره وهو حى يدخن التبغ ويتغنى بالموال والرباعيات متفاخرا بمن قتلهم وصلبهم ويتحمل كسر الجلادين ليديه ورجليه دون أن تصدر منه آهة. هكذا يسلخون جلده كله من جسمه ويحشونه بالتبن ثم يلبسونه جيفته الدنسة ويركبونها حصانا ويذهبون بها إلى ديوان مصر منادين صائخين مهللين بأن الحرامى الفلانى!!! أنه لمنظر غريب وبتلك الطريقة تحصل الأموال السلطانية"(٢٢٥) .

وصورة أخرى نابضة بالظلم ينقلها لنا الجبرتى بقوله: فى حوادث سنة تسع وتسعين ومائة وألف: "وقعت فتنة بين عربان البحيرة وحضر منهم جماعة إلى إبراهيم بيك وطلبوا منه الإعانة على أخصامهم فكلم مراد بيك فى ذلك فركب مراد بيك وأخذهم فى صحبته ونزل إلى البحيرة فتواطأ معه الأخصام وأرشوه سرا فركب ليلا وهجم على المستعينين به وهم فى غفلة مطمئنين فقتل منهم جماعة كثيرة ونهب مواشيهم وإبلهم وأغنامهم ثم رجع إلى مصر بالغنائم..."(٢٢٦) .

فلقد كان اتجاه بعض أصحاب الملل إلى اختراق رموز الحكم بالرشوة والبذل والبرطلة واستغلال ذلك لتحقيق مصالح خاصة بهم غالبا ما تكون على حساب إهدار حقوق آخرين هى ظاهرة شبه عامة ترتب عليها اهتزاز ثقة الناس فى رموز الحكم وخلق حالة من الخوف لدى الناس من التعامل معهم ولا تتوانى قريحتهم فى تغذية هذا الشعور بمجموعة من الأمثال مثل: "فر من السلطان فرارك من الأجرب"، "جبناك يا سلطة تحمينا حميتى النار وكوتينا"(٢٢٧) ويدل كل ذلك على وجود شحنات مكتومة من الغضب لدى الناس ضد

---

(٢٢٥) أوليا چلبى: مصدر سابق، ص٤٣٥ .

(٢٢٦) الجبرتى: عجائب الآثار، ج٣، ص١٢٤ .

(٢٢٧) عزة عزت: لغة الشارع، ص١٥٩ .

رموز الحكم. كما أثبتت التجارب التاريخية أن المصرى البرىء الذى يتم معاقبته جزافا غالبا ما يتحول إلى ناقم على السلطة برمتها فساهم ذلك فى تعميق الروح الثارية بين الناس والحاكم ورموزه ويتجلى ذلك عند الجبرتى بقوله: "وقع قبل ورودهما بأيام فتنة بالإسكندرية بين أهل البلد وأغات القلعة والسردار بسبب قتيل من أهل البلد قتله بعض أتباع السردار فثار العامة وقبضوا على السردار وأهانوه وجرسوه على حمار وحلقوا نصف لحيته وطافوا به البلد وهو مكشوف الرأس وهم يضربونه بالنعالات..."[٢٢٨].

ورغم تعسف الحكم المملوكى التركى إلا أن المصريين جادوا بكل تضحية واحتملوا صنوف العنت وضروب الأذى الذى احتملوه سواء من المماليك أو الأتراك ونجدهم وسط ذلك كله يشاركون بجدية لتتخلص مصر من الاحتلال الفرنسى (١٧٩٨ - ١٨٠١م) الذى جثم على أنفاس مصر فى تلك الفترة لأن مصر لم تكن بلد المماليك أو الأتراك ولكنها بلد كل أبناء مصر.

---

(٢٢٨) الجبرتى: المصدر سابق، ج٢، ص١٣٤ .

الفصل الثالث

مصر الثورة فى مواجهة الغزو الفرنسى

"فى كل ليلة نقطع نحو ثلاثين رأسا أكثرهم لزعماء الثورة، وفى اعتقادى أن هذا درس نافع"

(من مراسلات نابليون إلى رينيية)[229]

فى إطار تلك الكلمات التى تشير إلى التعرف بماذا أراد نظام مبارك أن يحتفى فى يوم من أيام الله عام ١٩٩٨م بمناسبة مرور مائتى عام على حملة نابليون على مصر عام ١٧٩٨م. ؟ يبرز الوعى بعالم الرموز وما يرتبط به من ذاكرة وهوية ووعى بعالم الرموز لهذه الأمة. وهو احتفاء يعبر عن معنى ويحتوى على مغزى ومعانى الاحتفال "الاهتمام"، و"التذكير" فى إطار يحرك عناصر الذاكرة القومية فيحفر فيها الحدث التاريخى، وكأنه يعيش اليوم

(٢٢٩) محمد عبد العزيز، بين احتفالات ثلاث، حولية قضايا العالم الإسلامى (أمتى فى العالم) (١٤١٨-١٤١٩هـ) ، مركز الحضارة للدراسات السياسية ، القاهرة ١٤١٩هـ/ ١٩٩٩م) ص ٥٩ وما بعدها.

ويحفز الفعل الحضاري، ليشكل رموز الفاعلية الحضارية، والمعنى يكمن فى قدرات الدولة الرمزية، هذه القدرة الرمزية، واستثمارها فى صياغة الوعى والذاكرة، ومن المفروض حتى تؤتى القدرة صحة وعافية فى الكيان أن تكون نابعة، لا تابعة.

الاحتفال المخذول

ومن أهم قدرات الدول تلك الاحتفالات الرمزية لأنها تعبر عن الذاكرة الحضارية للوطن والمواطن، إلا أن الاحتفالات كقدرات نابعة ورموز حافزة تتطلب منا أن نتأمل "المعنى" و" المغزى" فى هذه المقام. . . "احتفال مخذول " طالب به البعض . يومئذ . ، وأكد على حفزه للذاكرة الحضارية وضرورته وهو "الفتح الإسلامى لمصر"، وهذا الاحتفال أريد له أن يُطمس وقد تعود العرب أن يتناسوا بعض مأثوراتهم، إلا أن الأمر الأخطر كان "بالاحتفال بالاحتلال" الحملة الفرنسية على مصر حين مر عليها قرنان، ومؤسسة رسمية كرست جهدها للاحتفال بالحملة النابليونية كعلامة رمزية. . على ماذا؟ على العلاقات بين مصر وفرنسا؟! رمز لأية علاقة؟ علاقة أكدها المرسوم النابليونى الذى يهدف كلما حطّ فى بلد أن يلبس لبوسها لتحقيق هدفه فى إطار "الإمبراطورية العالمية" ولعله رأى فى مصر مفتاح الشرق. . علاقة أكدتها رسالة نابليون إلى "زايونشك" قومندان المنوفية فى ٣٠ يوليو ١٧٩٨م قائلاً : "يجب أن تعاملوا المسلمين بمنتهى القوة، وإنى هنا أقتل كل يوم ثلاثة أفراد يطاف برؤوسهم فى شوارع القاهرة فهذه هى الطريقة الوحيدة لإخضاع هؤلاء الناس". [٢٣٠] ويالهول الاحتفال : الاحتفال بالاحتلال : كيف؟ ولماذا؟

---

(٢٣٠) د. زينب عبد العزيز: مائتا عام على حملة المنافقين الفرنسيين (دار النهار، القاهرة ١٩٩٩م)، ص ١٣.

فهل رأيت أمة حتى فى التعامل مع عالم رموزها تحتفل بأضرارها ورموز ذلك (الحملة الفرنسية) وتغفل عن الاحتفال بما يصب فى كيانها ورصيدها الحضارى وعافيتها (الفتح الإسلامى لمصر). ورأينا كيف سارت مصر آنذاك على قدمين كسيحتين، ورأينا احتفالاً بالحملة الفرنسية، احتفال بالاحتلال يأتى على الهوية فيموه عليها، وعلى الذاكرة فيدلس عليها باسم التنوير ومع ذلك ظل هؤلاء ومن يعتقدون أن هويتهم وقيمتهم لا تكون إلا عبر الغرب أو العلاقة معه طوال ثلاثين عاماً عجافًا، وفى إطار مسخ الهوية أتى احتفال التغريب والتمويه على الذاكرة. تحت دعاوى أن الاحتفال لصالح مصر أساساً وأن لمصر مكاسب اقتصادية وإعلامية من وراء هذا الاحتفال ووُصِفَ معارضى الاحتفال بالجهل آنذاك!.

وقدم المؤرخ يونان لبيب رزق. ثلاثة آثار مهمة للحملة الفرنسية تبرر اتخاذها نقطة بدء مناسبة لتحقيب تاريخ مصر الحديث : الأول : أن الحملة الفرنسية نجحت فى إشعال روح المقاومة الوطنية التى خمدت بامتداد الحكم العثمانى، الثانى : أن الحملة الفرنسية أسقطت الشرعية التى ظل يلتحف بها العثمانيون والمماليك، الثالث : كانت بداية لإعادة اكتشاف المصريين لوطنهم الذى كانت الرمال قد طمرت أغلب آثاره.

ورغم ذلك يمكن القول أن: روح المقاومة الوطنية والثورة لم تخمد بامتداد الحكم العثمانى بل إن مصر شهدت انتفاضات واحتجاجات. عرضناها فى الصفحات السابقة. كما شهدت تحركات عديدة قادها العلماء وسارت من ورائهم فيها جماهير الشعب للاحتجاج على تعسف المماليك والعثمانيين فى الحكم، وكان١٧٩٥ م عام وقفة شجاعة ضد المماليك، تحديداً تعهدوا بعدها بالحكم العادل ودفع المظالم، إضافة لذلك فإن الروح التى تخمد

لثلاثة قرون لا يمكن أن تقوم فى ساعات، إذ بدأت مقاومة المصريين للحملة فى الإسكندرية لحظة نزولها الشواطئ المصرية.[٢٣١]

فما أن علم المصريون بقرب الأسطول الفرنسى أخذوا يستعدون للدفاع قدر ما استطاعوا، ويحصنون القلاع ويزيدون عدد الجنود بالمتطوعين للقتال ويجمعون جيشاً من المواطنين. وقد جاءت الحملة ونزلت القوات الأولى من جيش الغزو ليلة ٢ يوليه سنة ١٧٩٨م. بجهة العجمى، وكان السيد محمد كريم حاكم الإسكندرية الوطنى على رأس المقاومة الشعبية التى كافحت الغزاة، واحتشد المصريون الذين يحملون السلاح على الأسوار وفى الأبراج التى تتخللها للدفاع، وهاجم الغزاة المدينة من عدة جهات، فقابلهم المصريون فى الشوارع بإطلاق النار إطلاقاً شديداً من المدافع والبنادق، وأخذوا يطلقون الرصاص من البيوت على الجنود المهاجمين وكاد نابليون نفسه يصاب برصاصة فى إحدى الحارات لولا الحظ الذى نجاه من الموت.. وظل المصريون يدافعون عن المدينة معتصمين بقلعة قايتباى إلى أن كلت قواهم. ولم يكن بد من استيلاء الفرنسيين على المدينة، لأن قوة الدفاع عنها كانت أضعف من أن تقاوم جيش نابليون وهو فى عنفوانه.[٢٣٢]

وقدر نابليون فى مذكراته خسائر الجيش الفرنسى فى مهاجمة الإسكندرية بثلاثمائة بين قتيل وجريح، وقدر خسائر الإسكندريين بسبعمائة إلى ثمانمائة بين قتيل وجريح. ، وفى يوم ١٣ يولية سنة

---

(٢٣١) محمد عبد العزيز: أمتى فى العالم حولية قضايا العالم الإسلامى، ص٦٤ .

(٢٣٢) عبد الرحمن الرافعى: مصر فى مواجهة الحملة الفرنسية، (مركز النيل للإعلام، القاهرة د.ت)، ص ٢٧.

١٧٨٩م قتل أحد جنود مدفعية الأسطول الفرنسى، ولم يعرف قاتله، ووجدت جثته ملقاة فى أحد الشوارع، فاتخذ الجنرال كليبر الشدة فى معالجة هذه الحالة، واعتقل بعض أعيان المدينة بصفة رهائن وتهدد بشنق من تقع عليه القرعة من الرهائن إذا لم يعاقب الجانى فى خمسة أيام.

وتجلت روح المقاومة الشعبية للفرنسيين حين أنفذ كليبر كتيبة طوافة من الجنود لتجوب بعض جهات البحيرة ودمنهور ورشيد وأبو قير والإسكندرية للاطمئنان على سلامة المواصلات بين المدينة والمواقع المهمة، ولم تستطع هذه الكتيبة أن تتزود فى الإسكندرية بما يكفيها من الماء والزاد، لأن المصريين هربوا الجمال لكيلا يستعين بها الفرنسيون، ولقيت الكتيبة عنتاً ومشقة بعملهم وقوبلت الكتيبة فى طوافها بالمقاومة الشديدة من المصريين وخاصة فى دمنهور.

أسود فى ثياب مصرية

وكانت البحيرة أول مديرية اجتازها الجيش الفرنسى فى زحفه إلى القاهرة فلاقت من وراء اجتيازه لها شدائد وأهوالاً منها نهب القرى التى مر بها الجيش، وقد قاومت القرى زحف الحملة قدر ما استطاعت. وفى يوم ١٣ يولية دارت معركة شبراخيت، وكان جيش مراد بك مؤلفاً من نحو ١٢ ألف مقاتل، منهم ثلاثة آلاف فقط من فرسان المماليك، والباقون من المصريين، وكان هؤلاء مسلحين بالبنادق والعصى (الشماريخ)، ويحمى ميمنة هذا الجيش أسطول من السفن المصرية المسلحة يقوده القبطان خليل الكريتلى وانقشعت

المعركة بهزيمة مراد بك ولكن المصريين ظلوا يهاجمون فرق الجيش الزاحفة ويقتلون كل من يدركونه ممن يتخلفون عن الجيش.[٢٣٣]

الليل.. والضباب

ولما وصلت القاهرة أنباء معركة شبراخيت وتراجع جيش مراد بك، اهتم المماليك بنقل أمتعتهم إلى القرى والبيوت الصغيرة لإخفائها. ليظهر الشعب في ساعة الخطر أرقى نفساً وأشد عوداً من حكامه الظالمين ففى يوم الثلاثاء ١٧ يوليه سنة١٧٩٨ م، أى قبل معركة الأهرام أو إنبابة (إمبابة) ببضعة أيام، نودى بالنفير العام وخروج الناس إلى المتاريس، ولبى الناس الدعوة وأغلقوا الدكاكين والأسواق، وخرج الجميع إلى ناحية بولاق، واشتركت كل طوائف الناس فى التطوع واشترك منهم فى المعركة نحو عشرين ألفاً فى الوقت الذى كان فيه عدد المماليك الذين حاربوا معهم نحو ستة آلاف. وانتهت معركة إمبابة بهزيمة المماليك ولكن بقيت قوة الشعب الثائرة تغذى روح المقاومة فى أنحاء مصر. فى حين أرسل نابليون الجنرال ديزيه لمطاردة فلول المماليك فى الشرقية قبل إفلاتها إلى الشام.[٢٣٤]

إيمان رجل

وكانت الشرقية فى طليعة الأقاليم التى جادت بكل تضحية واحتملت صنوف العنت وضروب الأذى لتتخلص من الاحتلال الغاشم الأجنبى. لأنها كانت تضم إذ ذاك بين أحضانها زعماء القوم الذين فروا من العاصمة بعد هزيمة إنبابة (إمبابة) فلجأ إليها

---

(٢٣٣) عبد الرحمن الرافعى: مصر فى مواجهة الحملة، ص ٣٤.

(٢٣٤) أحمد عبد الرحيم مصطفى وآخرون: كفاحنا ضد الغزاة، ص ٢٥١.

إبراهيم بك ومعه نحو ألف وخمسمائة من المماليك وصحبهم والى مصر العثمانى وهو بكر باشا ونقيب الأشراف وزعيم الشعب السيد عمر مكرم. وحمل أولئك الفارون ما أمكنهم حمله من أموال وتحف وذخائر وعسكروا فى مدينة بلبيس فتطلعت إليهم أنظار المصريين وأصبحت الشرقية أحد مراكز المقاومة ضد الفرنسيين لما فيها من مقاومة لم تصل إليها مدافع الفرنسيين[٢٣٥] أضف إلى ذلك أن الشرقية كانت فى ذلك الوقت كان أحد أبنائها وهو (الشيخ عبد الله الشرقاوى) متولياً منصب مشيخة الأزهر ـ تولاه بعد الشيخ العروسى سنة (١٢٠٨هـ إلى ١٢٢٧هـ)[٢٣٦] (١٧٩٣ – ١٨١٢) فتقرب إليه الفرنسيون واستمالوه بشتى الطرق لاعتقادهم أن كلمته هى العليا وأن لها قيمة فى تصريف الأمور ,فآلت إليه رياسة الديوان الوطنى وكان يشارك نابليون فى إدارة شئون البلاد المختلفة وفى الوقت ذاته نجد كثيراً من أبناء الشرقية قد رفعوا راية العصيان مع إبراهيم بك وبكر باشا فالتفوا حولهما وأخلصوا للسلطان العثمانى أمير المؤمنين.[٢٣٧] ورمز إقامة شرع الله فى أرضه.

وكثيرًا ما حمل أبناء الشرقية منشورات أولئك الزعماء التى كانت تفيض ثورة وتثير حماسة المصريين ضد الغاصبين. ويدلنا على ذلك ما قاله الشيخ الجبرتى فى كتابه " عجائب الآثار " فى حوادث سنة ١٢١٣هـ (سبتمبر سنة ١٧٩٨م) " إنهم نبهوا على الأغراب من أعراب الشرقية وغيرهم والخدامين والبطالين ليسافروا إلى بلادهم " ويقول فى موضع آخر من نفس حوادث السنة " أنهم قتلوا شخصين من

---

(٢٣٥) عبد الرحمن الرافعى ,تاريخ الحركة القومية وتطور نظام الحكم (سلسلة الأعمال الفكرية مكتبة الأسرة ١٩٩٨م صـ٢١٤ ، ص٢١٥,٢٤٩ .

(٢٣٦) أحمد شلبى، أحمد الحوفى، الأزهر تاريخه وتطوره مرجع سابق ص ٢٢٧.

(٢٣٧) عبد الرحمن الرافعى، المرجع السابق ص١٠٦ وما بعدها.

الشرقية وطافوا برأسيهما ينادون ويقولون: "هذا جزاء من يأتى بمكاتيب من عند المماليك أو يذهب إليهم بمكاتيب".(٢٣٨) وقد ظهر تعاون أبناء الشرقية مع المماليك جلياً فى مقاومة الحملة وآوى أبناء القبائل الأمراء المماليك فى المناطق النائية والمختلفة وقدموا لهم المؤن ,كما كان أبناء الشرقية يقومون بحمل المكاتبات السرية بين المماليك وأنصارهم فى القاهرة.(٢٣٩)

وقد حاول نابليون الاستفادة من عرب الشرقية فلم تكن وسائل النقل ميسورة فى ذلك الوقت فكثير من الخيل كانت فى حالة سيئة مما اضطر معظم الفرسان إلى السير على الأقدام وقد أثقلتهم العدة والسيوف التى يحملونها، وعلاجاً للموقف اجتمع بونابرت بشيوخ ثلاث عشرة قبيلة من قبائل الشرقية فى مقر قيادته وتم الاتفاق على أن يدفع ثمنها نقداً وأن يؤجروا منهم ألف جمل وجمال ويردوا الأسرى الذين أسروهم أثناء زحف الفرنسيين على الإسكندرية، غير أنه لم يتم تنفيذ أى جانب من جوانب الاتفاق إلا فيما يتعلق برد الأسرى ,وذلك أنه قبل تسليم الخيل والجمال وصلت رسالة إلى قبائل الشرقية من علماء القاهرة ومشايخها تدعوهم إلى الجهاد ضد الغزاة وعدم التعاون معهم.(٢٤٠)

وهكذا وجه رجال الحملة جهدهم للانتقام من أبناء الشرقية وقبائلها الذين لا يبدون روح التعاون معهم، وقدم اقتراح بتخصيص

---

(٢٣٨) عبد الرحمن الجبرتى ,المختار من تاريخ الجبرتى (سلسلة روائع التراث) , مكتبة الأسرة ١٩٩٥-١٩٩٦م صـ٢٥ وانظر (كرستوفر هيرولد) صـ٢٠١

(٢٣٩) عبد الرحيم عبد الرحمن: الريف المصرى ، ص١٥٦.

(٢٤٠) هيرولد: مرجع سابق، ص ٨٤ – ٨٦. إيمان محمد: العريان و ص٢١.

سلاح الهجانة الذى أنشأه قائد الجيش الفرنسى فى مصر لمقاومة تلك القبائل التى تهدد أمنهم.(٢٤١)

وقام الفرنسيون بقتل بعض مشايخ القبائل العربية فى مصر مثل الشيخ الشواربى شيخ قليوب، وثلاثة من مشايخ الشرقية بحجة أنهم اطلعوا على كتابات لهم فيها تحريض على الحملة، كما أنهم وجدوا كثيراً من الأسلحة والأمتعة التى نهبت منهم لدى العربان. وتم قتل هؤلاء بصورة بشعة فقطعوا رؤوسهم ومثلوا بجثثهم. وقد بلغ من كراهية بونابرت لقبائل الشرقية وموقفهم من الحملة أنه أذاع فى منشور عقب عودته من الشام أن من أسباب عودته رغبته فى تأديب العربان بالشرقية وقبائل العبابدة وبلى وغيرهم الذين ناصروا المماليك ويحركون الفتن فى الأقاليم فى غيابه ويعيثون فى البلاد فساداً ونهباً.(٢٤٢)

وعلى العموم فحركة العصيان ضد نابليون التى ولدت فى صحراء الشرقية ثم أخذت فى النمو والتطور شأن الكائن الحى وتعاقبت عليها الأدوار المختلفة فحينا كانت تقوى وآونة تضعف وطورا تشتد وتنشط وتارة تخمد وتفتر على أنها طوال هذه السنين الثلاث كانت تسير قدما مجددة قواها منتفعة من التجارب طامحة فى حركتها إلى المثل الأعلى.

وبعد موقعة أنبابة (إمبابة) قدم نابليون إلى القاهرة فاستقامت له الأمور فيها وبدأ يفكر فى تتبع المماليك فى الشرقية وفى الصعيد، فاكتفى بأن أرسل (ديزيه) خلف (مراد بك) ليقضى على

---

(٢٤١) هيرولد، نفسه، ص٧٠

(٢٤٢) عبد الرحيم عبد الرحمن: الريف المصرى فى القرن الثامن عشر، مكتبة جامعة عين شمس، القاهرة ١٩٧٤م، ص١٥٧ .

أتباعه فى الوجه القبلى أما إبراهيم بك فإنه كان موضع تفكير نابليون ومصدر الانزعاج للحملة إذ كانت قوته (سليمة وكاملة إلى حد كبير) كما كان على اتصال بسوريا والإنجليز فى البحر الأبيض المتوسط، من أجل ذلك وجه نابليون معظم قواته لسحق إبراهيم بك فى شرق الدلتا حيث كان مرابطا فى بلبيس.(٢٤٣)

حجاج ولكن ثوار

أضف إلى ذلك وصول قوافل الحجاج من الحجاز مما أدى إلى تخويف نابليون من تفاقم الخطر لأنه علم بأن معظم الحجاج رغبوا فى الانضمام إلى أميرهم إبراهيم بك كما خشى أنه ربما يتهم بعدم تأمينة لطرق الحج فلم يجد نابليون بدا من الخروج للقضاء على هذه البذرة قبل أن تنمو وتتفرع كما أسرع إلى إعلان تأمين سبل الحج وفى ذلك يقول الجبرتى: " فى عشرين صفر سنة ١٢١٣هـ (٣ أغسطس سنة ١٧٩٨م) حضرت مكاتيب الحجاج من العقبة فذهب أرباب (أعضاء) الديوان إلى باش العسكر وأعلموه بذلك وطلبوا منه أمانا لأمير الحج (صالح بك) فامتنع ,وقال لا أعطيه ذلك إلا بشرط أن يأتى فى قلة ولا يدخل معه مماليك كثيرة ولا عسكر، فقالوا له ومن يوصل الحجاج فقال لهم أنا أرسل لهم أربعة آلاف من العسكر يوصلونهم إلى مصر".(٢٤٤)

ولكن بالرغم من هذا نجد أن أغلبية الحجاج بل أمير الحج نفسه (صالح بك) قد انضموا جميعا إلى جانب إبراهيم بك ولم يبق منهم إلا النذر اليسير فى بلبيس قبض عليهم نابليون وأرسلهم

---

(٢٤٣) الرافعى، مرجع سابق صـ٢٤٩ وما بعدها.
(٢٤٤) نفسه صـ٢٥٠ .

محروسين ببعض جنده إلى القاهرة وفى ذلك يقول الجبرتى فى حوادث ربيع الأول سنة ١٥١٣هـ " ملك الفرنسيون بلبيس من غير قتال ومن بقى فيها من الحجاج لم (يشوشوا) عليه فأرسلوهم إلى مصر ومعهم طائفة من العسكر".(٢٤٥)

وقبل أن يجرد نابليون جيشا للقضاء على (إبراهيم بك) نراه يوزع القوات العسكرية على بقية مديريات الوجه البحرى فكان حاكم الشرقية العسكرى ضابطا اشتهر بين أقرانه بالشجاعة والقسوة الشديدة يدعى (لكلرك) الذى تلقى بعد يومين من تعيينه الأوامر بالمسير صوب حاضرة الشرقية وكانت آنذاك مدينة بلبيس.(٢٤٦)

بدأت طلائع الجيش الفرنسى تزحف (يوم ٢ أغسطس سنة ١٧٩٨) من القاهرة بقيادة الجنرال (لكلرك) فكانت أحيانا تجد المقاومة الشعبية وأخيانا لا تجدها ولكن على العموم كان سير الجيش محفوفا بصعوبات كبيرة بدليل وصول بعض قوات فرنسية للنجدة تحت قيادة الجنرال "دوجاى" و"رينييه". وأخيرا كتب الجنرال " لوجيه " إلى نابليون يقول : " ثارت القرى فى الشرقية ضد فرسانا الذين أرسلناهم إليها لأخذ الخيول منها وعاد الفرسان يخبروننا بهذه الثورات وكل الدلائل تدل على أنه لابد من قوة كبيرة لإخضاع هذه الجهات".(٢٤٧)

---

(٢٤٥) المرجع السابق صـ٢٥٣

(٢٤٦) المرجع نفسه صـ٢٥٠ ، عبد الرحمن الجبرتى ,المختار من تاريخ الجبرتى مصدر سابق صـ٢٨

(٢٤٧) عبد الرحمن الرافعى، مرجع سابق صـ ٢٥٢. انظر كرستوفر هيرولد ,بونابرت فى مصر) صـ ٢٦٨.

لم يجد نابليون بعد ذلك بدا من الخروج بنفسه إلى الشرقية (وهو الإقليم الوحيد الذى سار إليه بنفسه) لملاقاة إبراهيم بك ومماليكه فوصل بلبيس فى صبيحة (يوم ٩ أغسطس سنة ١٧٩٨م) بعد أن أخلاها إبراهيم بك فاعتزم نابليون أن يتعقبة قبل أن يغادر حدود مصر إلى الشام ولقى الفرنسيون فى بلبيس من بقى من الحجاج كما ذكرت. والحقيقة أن نابليون لم يلبث فى بلبيس طويلا لرغبته فى تعقب إبراهيم بك فأرسل قوة من فرسانه ليلة ١٠ أغسطس وصلت إلى قرية (القرين) دون أن يلحق بقوة (إبراهيم بك) الذى غادرها إلى الصالحية فتقدم نابليون إلى هذه الجهة حيث اشتبك مع قوة المماليك فى معركة عرفت بمعركة الصالحية (١١ أغسطس سنة ١٧٩٨) وقد حمى وطيس القتال فى هذه المعركة وكادت تدور الدائرة على الفرنسيين كما كانت هذه أول معركة وقعت بين فرسان الجيش واقتتلوا بالسلاح الأبيض فتحرج مركز الفرنسيين لبسالة المماليك ومهارتهم فى الكر والفر ولانضمام بعض الأعراب إلى صفوفهم.[٢٤٨]

ولم ينقذ نابليون من ورطته سوى الجنرال لكلرك الذى أجبر المماليك على الانسحاب باستعماله المدافع ومما يدلنا على تفوق المماليك فى هذه المعركة جرح بعض خاصة رجال نابليون كالجنرال(سلكوسكى وديترس) ياور نابليون.[٢٤٩] والحقيقة أن الصالحية كانت المكان الذى وصلت فيه أسوأ الأنباء وأشأمها على نابليون وضباطه فأكثروا من الندب والعويل ,يدلنا على ذلك قول

---

(٢٤٨) المرجع السابق صـ٢٥٢ .

(٢٤٩) نفسه صـ٢٥٣ .

مينو فى مذكراته عن الصالحية " كانت البلد السيئ الذى فقدنا فيه كل آمالنا وأمانينا وضحينا فيه بمجهوداتنا جمعاء إلى أن قال: "يا رب كيف تنتهى هذه الحملة فى مصر؟ وكيف نؤمل المساعدة وقد حيل بيننا وبين بلادنا؟ أنعيش فى مصر بقية حياتنا بعيدين عن أولادنا وآبائنا وأزواجنا وخليلاتنا..؟

"وفى الصالحية أيضا أصدر نابليون أمره بتعيين الجنرال (دوجاى) قومندانا لمديرية المنصورة والجنرال فيال دمياط وبعد أن جعل من الصالحية مركزا لتموين الجيش، وبعد خروج إبراهيم بك ومن معه من أرض مصر وتوجههم إلى غزة لم يبق أمام نابليون إلا الإسراع فى العودة إلى القاهرة ليزيل بوجوده الأثر السيئ الذى أحدثته معركة أبى قير البحرية فى نفوس المصريين وجنود الفرنسيين كما أنه أدرك تمام الإدراك أهمية موقع الصالحية من الناحية العسكرية فقبل خروجه منها أصدر أمره (للجنرال كافاريلى) بإنشاء القلاع والطوابى والثكنات اللازمة. كما عين الجنرال (رينيية) قومندانا لحامية الصالحية ومديرا لمديرية الشرقية وأصدر أمرا له لإقامة الطوابى والثكنات بالصالحية وبلبيس. وأهتم بتحصين الصالحية لحراسة برزخ السويس ولمراقبة حدود مصر الشرقية ومعنى ذلك أن الشرقية اتخذت مركزا من أهم المراكز الحربية.(٢٥٠)

أما عن روح الناس فى قرى مصر فإنها كانت تتدفق ثورة وتفيض كمداً وغيظا وذلك لكثرة اعتداء الجنود وجرائمهم. إذ كان الفرنسيون كثيرا ما ينهبون القرى والماشية فيضطر القوم إلى الرحيل عن قراهم لتهريب مواشيهم فى الصحراء كما امتنع الناس

---

(٢٥٠) نفس المرجع، صـ ٢٥٥، ٢٥٦، ٢٥٧.

عن بيع ما يحتاج إليه الفرنسيون وحملوا السلاح ضد العدو وأخذوا يناوشون الحاميات الفرنسية ويقطعون طرق مواصلات الجيش مع القاهرة. ولقد اشتدت تلك الحركات العدائية عند بذر بذور الثورة التى اشتعلت نيرانها فى القاهرة فى (أكتوبر سنة ١٧٩٨ م). فتشجع المصريون على مهاجمة المخافر الفرنسية مما أدى إلى قتل بعض كبار الفرنسيين فمثلا قتل أهل بلبيس وكفور العابد ترجمان الجنرال (رينيية) الخاص على بعد أربعين مترا من معسكر الفرنسيين العام فى المدينة كما قاوم أهل "ببشة" الفرنسيين عندما شرعوا فى مصادرة خيولهم وذلك بالبنادق والعصى (الشماريخ) فعادت الكتيبة أدراجها.[٢٥١]

ثورة النيل

ولعل تحمس الأهالى ضد الفرنسيين وشدة مقاومتهم يرجع إلى وصول الفيضان الذى عطل حركة الجنود وانتقالاتهم إلى القرى كما أن الأمراض كانت قد بدأت تظهر مع شدة الحرارة وبخاصة الرمد الذى فتك بالفرنسيين وانتشر بينهم كما أن الثورة الشعبية التى استطار شرارها من القاهرة إلى الأقاليم زادت من حماسة الأهالى وشجعتهم على مهاجمة معسكرات العدو ومعهم نحو مائة فارس من قبيلة العائذ هجموا على كتيبة فرنسية فى فجر٢١ أكتوبر وقتلوا معظم جنودها ولكن رد (رينييه) هجمة العرب بعد أن أنسحب إلى بلبيس كما طلب المدد من القاهرة خوفا من حرج مركزه.

وهكذا استمرت الحرب سجالا بين المصريين وبين الفرنسيين بسبب عجز (رينييه) عن تجريد قوة كافية على الثوار تغزوهم فى

(٢٥١) المرجع السابق صـ ٢٥٨،٢٥٧.

بلادهم وقراهم فأصبحت مواصلات الجيش الفرنسى مهددة مما حمل نابليون على أن يرسل رسالة مهمة إلى رينيه بتاريخ (٢٧ أكتوبر ١٧٩٨م) يأمره فيها بتوقيع العقوبات القاسية على القبائل التى تمردت أو شاركت فى الحركات الأخيرة ويأخذ منها الرهائن ويقتل مشايخ البلاد لأنهم المسئولون مما يحدث فى بلادهم.

ولما علم الأهالى بذلك أوغلوا فى البلاد البعيدة وبعضهم أخلى القرى المجاورة وبهذا لم يستطع رينيه تجريد حمله لتعقبهم وآثر أن يميل معهم إلى الملاطفة فلجأ إلى المفاوضة مع زعمائهم لإعادة السكينة ولكنه لم يوفق ولذلك استمرت الاضطرابات فى قرى مصر حتى قبيل خروج نابليون إلى سوريا فنراه فى (شهر يناير سنة ١٨٩٩م) يمر على الشرقية بعد عودته من رحلته إلى السويس ويقسو على أهلها ويذيقهم المذلة والمهانة، وفى ذلك يقول الجبرتى:- " وفى ليلة الاثنين غاية شهر رجب حضر سارى عسكر بونابرت من ناحية بلبيس إلى مصر ليلا وأحضر معه عدة عربان وعبد الرحمن أباظة أخا سليمان أباظة (شيخ العبابدة) كرهائن وأخذ مواشيهم وحضروا بهم إلى القاهرة وخلفهم أصحابهم رجالا ونساء وصغار".[٢٥٢]

ولسوف نلاحظ أن ما قدمه الجبرتى يدل على أسلوب الفرنسيين فى الاعتداء على الناس وأخذهم ماشيتهم ودوابهم التى يعيشون منها التى اعتبرها نابليون بمثابة مخزن المؤن ومستودع

---

(٢٥٢) الجبرتى، المختار من تاريخ الجبرتى، مصدر سابق صـ٣٠ ، انظر: عبد الرحمن الرافعى، المرجع السابق صـ٢٥٧

للماشية يأخذ منها كل ما يحتاجه وما تلزمه الضرورة كما أنها تأثرت بانتشار الوباء الذى عم الحملة الفرنسية فى الشام.(٢٥٣)

ويذكر جومار أنه كانت لدى عرب الشرقية والعربان بصفة عامة معلومات دقيقة عن أعماق الوديان والصحراء وأن العديد منهم كانوا ينحازون إلى المماليك ثم إلى الفرنسيين كل بدوره من أجل الحصول على المال، كما كانوا فى معظم الأحيان يرشدون الفرق الفرنسية إلى طرق عكسية لتلك الطرق التى سار فيها المماليك حتى لا يتمكنوا من اللحاق بهم.(٢٥٤)

وعلى الجانب الأخر، نجد الشيخ عبد الله الشرقاوى شيخ الجامع الأزهر يقف أمام جبروت رائد الاستعمار الغربى " نابليون " متحديا إياه بكل شجاعة. ، وذلك حين دعا نابليون أعضاء ديوان القاهرة إلى بيته وأراد أن يلبسهم طيلسان الجمهورية الفرنسية ذا الثلاثة الألوان، ووضع بيده الطيلسان على كتف الشيخ الشرقاوى رئيس الديوان، تكريما له وتعظيما كما كان يدعى، فما كان من الشيخ إلا أن رمى به الأرض غاضبا، لأنه رأى فى ذلك مسا لوطنيته وكرامته ثم استقال من الديوان، وضرب بذلك المثل الأعلى لأعضائه فى الشمم والشجاعة، وعبثا حاول الترجمان أن يقنع المشايخ بأن

---

(٢٥٣) للمزيد أنظر: " بونابرت فى مصر، تأليف ج. كرستوفر هيرولد، ترجمة فؤاد اندراوس، مراجعة محمد أحمد أنيس، دار الكتاب العربى بالقاهرة صـ٢٩٠ وأيضا:- " الحملة الفرنسية وخروج الفرنسيين من مصر " محمد فؤاد شكرى دار الفكر العربى، صـ١٢٧، وأنظر: "عبد الرحمن الرافعى المرجع السابق صـ٣٦٢.

(٢٥٤) جومار: العرب والعربان فى مصر الوسطى، وصف مصر، ج٢ ، ص٣٢٢ -٣٢٣.

إلباسهم هذا الطيلسان إنما هو تكريم لهم، فغضب نابليون على الشيخ وقال: "إنه لا يصلح للرياسة ".[٢٥٥]

هذا موقف للشرقاوى أمام نابليون وفى بيته، لا يقفه إلا من أوتى حظاً عظيماً من الشجاعة والوطنية الصادقة، ونحن نعلم من هو نابليون فى ذلك العصر، وما سطوته وما جبروته وخديعته للشعوب المغلوبة على أمرها وتقديمه شهداءه مزهواً على مذبح الإخاء والمساواة كما كان يزعم، وبعد كل هذا نرى البعض منا ممن يعتقدون أن هوايتهم وقيمتهم لا تكون إلا عبر الغرب أو العلاقة معه فى تدافع غير مبرر نحو الآخر والاستقواء به وتجاهل غريب للخصوصيات والمحليات الثقافية بكل ما تحمله من دلالات هامة بعضها يتعلق بالذاكرة التاريخية وعن نقاط تحول فى تاريخ الأمة. تلك الذاكرة التى تتعرض للوهن والتزييف تحت ضغوط مخططات العولمة وخطابها عن الثقافة العالمية والتاريخ العالمى للإنسانية وتزييف الوعى وعن حوار الحضارات وما شابه!![٢٥٦]

لقد اعتقد نابليون أن كراهية المصريين للأتراك والمماليك ستؤدى إلى الترحيب بالفرنسيين أو على الأقل لن يكون هناك أى مقاومة من المصريين للحكم الفرنسى الذى قدم نفسه إليهم على أنه المنقذ من جحيم المماليك. ومع إعلان بونابرت أن غرضه الأول هو "سعادة الشعب المصرى واحترام شعائره الدينية وأمواله" بدأ فى مصادرة الأملاك وخاصة البيوت بحجة احتياجهم لها. كما ذكر الجبرتى هدمهم للكثير من المبانى والآثار والمساجد لتحصين

---

(٢٥٥) إبراهيم زاهر: الشيخ عبد الله الشرقاوى، (مجلة مدرسة الزقازيق الثانوية، العدد الأول، ١٩٤٠م)، ص ١١٨.

(٢٥٦) عمرو عبد العزيز منير: الشرقية بين التاريخ والفولكلور، (المنصورة ٢٠٠٥م)، ص ٩٤.

القاهرة "وفيه أمروا سكان القلعة بالخروج من منازلهم والنزول إلى المدينة ليسكنوا بها!. فنزلوا وأصعدوا إلى القلعة مدافع ركزوها بعدة مواضع وهدموا بها أبنية كثيرة وشرعوا فى بناء حيطان وكرانك وأسوار وهدموا أبنية عالية وأعلوا مواضع منخفضة وبنوا على بدنات باب العزب بالرميلة وغيروا معالمها وأبدلوا محاسنها ومحوا ما كان بها من معالم السلاطين وآثار الحكماء والعظماء وما كان فى الأبواب العظام من الأسلحة والدرق والبلط والحوادث والحرب الهندية وأكر الفداوية وهدموا قصر يوسف صلاح الدين ومحاسن الملوك والسلاطين ذوات الأركان الشاهقة والأعمدة الباسقة". هذا غير هدم أبواب الحارات مما أثار سخط المصريين، كما قطعوا رواتب الأوقاف الخيرية عن مستحقيها من الفقراء، وقاموا بتفتيش المنازل ومصادرة الخيول والسروج والجمال والأبقار والثيران والسلاح أو دفع مقابل عنها.

بجانب كل تلك الإجراءات دعا بونابرت العلماء والأعيان إلى تكوين ديوان من المشايخ والعلماء يختص بالأمن العام والتموين والصحة. وعلى الرغم من أن الديوان كان ذا صفة استشارية ولم يكن له فعليا أى سلطة إلا أنه ساهم فى بلورة قيادة شعبية مصرية متمسكة بحقها فى إدارة البلاد.

وقد عطل نابليون اجتماعات الديوان بعد أن اصطدم به أعضاءه أنفسهم معلنين رفضهم هذا الكم الهائل من الضرائب الباهظة وخاصة ضرائب العقارات التى فرضها الفرنسيون والتى ازدادت بعد أن دمر الإنجليز أسطولهم فى أبى قير فى محاولة لإعادة بناء أسطولهم مرة أخرى وإعادة تمويل جيش الحملة على حساب المصريين وقد أثارت تلك الضرائب سخط المصريين بجميع فئاتهم

وطوائفهم ؛ حيث فرضها على الأملاك والقضايا والمبانى والحمامات والمحلات والمقاهى والطواحين والمعاصر. . إلخ. وقد مست هذه الضرائب أرزاق جميع الناس. فى وقت تدهورت فيه مكاسب التجار بسبب توقف حركة الاستيراد والتصدير نتيجة الحصار البحرى الذى فرضه الإنجليز على سواحل البلاد عقب معركة أبى قير البحرية فتأثر التجار، ولكن كانت أكثر الفئات تضرراً هم عامة الناس والحرفيين وصغار مشايخ الأزهر، وكان الأخيرون بمثابة العقل المدبر لحركة الثورة.(٢٥٧)

وبذلك نافس الفرنسيون المماليك فى جمع الضرائب وابتكار ضرائب أخرى جديدة مما فجر براكين الغضب الكامنة فى نفوس المصريين. وجاء الرد سريعا فى "٢١ أكتوبر ١٧٩٨ م" عندما انبعث وميض شرارة الغضب.

الثورة مستمرة. . .

ومن العوامل التى أثارت حنق وغضب الأهالى وكانت من أسباب الثورة كذلك، ما استحدثه الغزاة من "بدع" مست صميم حياة الناس، ومألوفاتهم وتقاليدهم مثل إلزام أصحاب المهن والأعمال باستخراج تراخيص لمزاولة أعمالهم مقابل دفع رسوم معينة، وكذلك.

حكى لنا الجبرتى على صفحات كتابه العظيم عجائب الآثار فى التراجم والأخبار تفاصيل انتفاضة المصريين ضد الفرنسيين،"

---

(٢٥٧) أحمد زكريا الشلق: تطور مصر الحديثة فصول من التاريخ السياسى والاجتماعى، (سلسلة إصدارات خاصة، العدد ٩٠ (الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة ٢٠١١م)، ص ٨٥.

فتجمع الكثير من الغوغاء من غير رئيس يسوسهم ولا قائد يقودهم وأصبحوا يوم الأحد متحزبين وعلى الجهاد عازمين وأبرزوا ما كانوا أخفوه من السلاح وآلات الحرب والكفاح وحضر السيد بدر وصحبته حشرات الحسينية وزعر الحارات البرانية ولهم صياح عظيم وهول جسيم" ذهبت تلك الجموع إلى بيت القاضى ليخرج معهم الى بونابرت لمطالبته بإلغاء الضرائب الجديدة إلا أنه خاف عاقبة الثورة فرجمه الثائرون بالحجارة والطوب ولم يتمكن من الهرب من أيدى تلك الحشود.

كما احتشد بالأزهر العلماء والجموع الغفيرة وعمت الثورة أنحاء القاهرة فى لمح البصر ونظرا لأن الفرنسيين لم يتوقعوا قيام المصريين بثورة فقد خرج الجنرال ديبوى "حاكم القاهرة" مع بعض عساكره لتهدئة الأحوال وذهب إلى بيت القاضى ففوجئ بكم البشر الهائج فهجم عليه الثوار وقتلوه كما قتل الكثير من فرسانه وسيطر الثوار على معظم مداخل القاهرة "كباب الفتوح وباب النصر والبرقية إلى باب زويلة وباب الشعرية وقاموا بهدم مساطب الدكاكين لاستخدام أحجارها كمتاريس تعوق هجوم العدو، ووقف وراء كل متراس حشد عظيم من الناس، وبعد أن أدرك الفرنسيون اندلاع الثورة بمقتل الجنرال ديبوى بدأ الهجوم على الثوار بإطلاق النار على الناس فى الشوارع وخلف المتاريس فتجمع الثوار فى الأزهر ونصبوا المتاريس فى الطرق والحارات والأزقة المؤدية إليه لتحصين مركز الثورة، وقد انضم إلى صفوف الثوار أهالى القرى المجاورة للقاهرة، وخلال الأحداث هوجمت دكاكين التجار وسرقت محتوياتها. وفى أثناء الليل نصب الفرنسيون مدافعهم على جبل المقطم قرب القلعة.

وفى اليوم التالى استمر الثوار فى الهجوم على كتائب الفرنسيين وقد بدأ نابليون خطته فى خنق الثورة بنشر جنوده حول ضواحى القاهرة لمنع أهلها من الانضمام إلى صفوف الثوار،ثم أرسل فى طلب مقابلة المشايخ فلم يجبه أحد وعندها وبداية من عصر اليوم الثانى أمر نابليون بقصف القاهرة بالمدافع المنصوبة بالقلعة وخاصة الأزهر مركز الثورة والأماكن المحيطة به. وقد وصف الجبرتى فزع المصريين "فلما سقط عليهم ذلك ورأوه ولم يكونوا فى عمرهم عاينوه نادوا يا سلام من هذه الآلام يا خفى الألطاف نجنا مما نخاف وهربوا من كل سوق ودخلوا فى الشقوق وتتابع الرمى من القلعة والكيمان حتى تزعزعت الأركان وهدمت فى مرورها حيطان الدور وسقطت فى بعض القصور ونزلت فى البيوت والوكائل وأصمت الآذان بصوتها الهائل فلما عظم هذا الخطب وزاد الحال والكرب ركب المشايخ إلى كبير الفرنسيس ليرفع عنهم هذا النازل ويمنع عسكره من الرمى المتراسل " وبعد توسط المشايخ أمر نابليون بإيقاف القصف وقد استمر الثوار فى الحسينية وما حولها فى المقاومة حتى نفدت ذخيرتهم. وفى اليوم الثالث دخل الفرنسيون منطقة الأزهر التى خربها القصف ومات تحت أنقاضها الآلاف، وهدموا المتاريس ودخلوا الجامع الأزهر بخيولهم وتفرقوا بصحنه ومقصوراته وربطوا خيولهم بقبلته وعاثوا فى أروقته فساداً، وحطموا خزائن الطلبة والكتبة ونهبوا ما فيه من متاع وودائع، وداسوا على الكتب والمصاحف بأرجلهم ونعالهم،[٢٥٨] وحطموا كل ما وجدوه فى طريقهم، ونهبوا البيوت المحيطة بحجة البحث عن الأسلحة،ثم بدأ الانتقام بالقبض على أعداد غفيرة نفذ فيهم جميعا

---

(٢٥٨) أحمد زكريا الشلق: تطور مصر الحديثة فصول من التاريخ السياسى والاجتماعى، ص ٨٦.

حكم الإعدام وكان بينهم الكثير من النساء وقد اعترف سكرتير نابليون فى مذكراته أنه كان يتولى التصديق على أحكام الإعدام وبعد تنفيذ الحكم كانت توضع الجثث فى زكائب ويتم إغراقها فى النيل، وقد أعلن نابليون أنه تم القبض على ثمانين شخصا هم قيادات الثورة سجنوا بالقلعة ثم نفذ بهم حكم الإعدام بدون محاكمة.

غلفت المدينة سحابة كئيبة سوداء وتوالت حوادث الاختفاء والتعذيب والقتل وخبأ النيل فى قلبه المئات من شهداء الثورة المصريين البسطاء الذين هبوا للدفاع عن حقهم فى الحياة وأعلنوا كراهيتهم للظلم وللاحتلال، وكان من ضمن الضحايا الشيخ عبد الوهاب الشبراوى من أهم علماء الأزهر والشيخ سليمان الجوسقى شيخ طائفة العميان وقد قتل من علماء مصر ثلاثة عشر عالما وبلغ عدد ضحايا الثورة ما يقرب من الأربعة الآلاف فى مقابل ٢٠٠ فرنسى بينهم بعض المهندسين الذين استفزوا أثناء تحصينهم مدينة القاهرة مشاعر المصريين بهدمهم للبيوت وخلع الأبواب ونبش القبور فقتل أثناء الثورة كبير مهندسى الحملة "تستيفود"الذى كان يعمل برسم خريطة حديثة لمصر وأيضا قتل بعض الجراحين والرسام دوبرى.[٢٥٩]

وقد جاء فى كتب المؤرخين الفرنسيين أن المصريين من أهل الطبقة الوسطى قاموا بحماية علماء الحملة الذين سكنوا فى وسط المصريين بالأحياء القديمة كالناصرية والسيدة زينب حيث كان يوجد المجمع العلمى بقصر حسن بك كاشف "المدرسة السنية الآن".

(٢٥٩) نرمين خفاجى: ثورة القاهرة الأولى، (الحوار المتمدن - العدد: ٢٥٩٨، ٢٧ /٣/ ٢٠٠٩).

ورغم أن الثورة استمرت ثلاثة أيام فقط وانهزمت أمام التفوق العسكرى الفرنسى إلا أن صداها قد انتقل من القاهرة إلى باقى أنحاء مصر وبخاصة القرى المجاورة للقاهرة والتى شاركت فى الثورة بالرجال والسلاح والتى نالت أيضا حظها من القمع بالاعتقال والقتل مثل ما حدث للشيخ سليمان الشواربى شيخ قليوب الذى اعتقل بالقلعة ثم قتل، كما تم اعتقال بعض الزعماء كرهائن، ولم تسلم القرى الواقعة على النيل من أذى الفرنسيين فأحرقت قرية كاملة من قرى إمبابة بعد تهجير أهلها، بسبب إطلاق تلك القرى الرصاص على السفن الفرنسية، واستمرت المقاومة تصهر الشعب وتمنحه الثقة بقوته التى أهدرت عقود طويلة تحت حكم الأتراك والمماليك حتى جاءت ثورة القاهرة الثانية فى مارس ١٨٠٠م، واندلعت شرارتها من بولاق ومنها انتقلت إلى أنحاء القاهرة والأقاليم، وهاجم الثوار معسكر الفرنسيين فى الأزبكية مستخدمين بعض المدافع العثمانية، واستخرجوا بعض المدافع التى كانت مدفونة فى بيوت المماليك، وأنشأوا مصنعاً للبارود فى الخرنفش وآخر لإصلاح المدافع، وثالثاً لصنع القنابل وصب المدافع من الحديد الذى جمعوه من المساجد والحوانيت، أقاموا معسكراً للأسرى بالجمالية، وأقاموا المتاريس المنيعة فى الشوارع والحارات، وبثوا العيون والأرصاد لكشف خطط المحتلين، وتولى كبار التجار إمداد الثوار بالمؤن والأغذية، وبدا واضحاً أن المصريين جميعاً مصممون على القضاء على الاحتلال الفرنسى لبلادهم،[٢٦٠] واستمرت الثورة مدة شهر كامل ولم تهنأ الحملة ببقائها فى مصر

(٢٦٠) أحمد زكريا الشلق: تطور مصر الحديثة فصول من التاريخ السياسى والاجتماعى، ص٩٥

وظلت تنزف تحت ضربات الإنجليز والأتراك والمقاومة المصرية حتى الجلاء في عام ١٨٠١م.

ولقد رأينا أن المقاومة الشعبية بدأت فى الدلتا بعد نزول الفرنسيين مباشرة، ومالبثت أن امتدت إلى مدن الوجه البحرى الكبرى وريفه على الإطلاق بشكل منتظم ومستمر، بل إن أهالى القرى امتنعوا عن تموين الجيش، وكانوا كلما قدم الفرنسيون إلى قرية طلباً للمئونة وجدوا أهلها قد حملوا متاعهم، وأخذوا مواشيهم، وتركوها إلى القرى البعيدة، وما أن قامت ثورة القاهرة الأولى حتى كان لها صدى واسع فى شتى أطراف البلاد ولا سيما فى الدلتا، فقامت مصر كلها وكأنها على ميعاد لدرجة خُيل إلى الفرنسيين أن الأمر متفق عليه بين المصريين جميعاً.(٢٦١)

حقاً لقد قاتلت القرى المجاورة وأرسلت فلذات أكبادها ومتطوعيها إلى القاهرة، مما جعلها موضعاً لانتقام الفرنسيين الذين أرسلوا إليها الكتائب بعد إخماد الثورة لتجوبها بحثاً عن أعيانها ومشايخها الذين كان لهم ضلع فى الثورة، فقبض عليهم، وحوكموا محاكمات غير عادلة، وأعد بعضهم، فى الوقت نفسه نشط المصريون فى مهاجمة المراكب الفرنسية بين القاهرة ورشيد والإسكندرية، وفتكوا بمن فيها، واستمرت المقاومة فى الوجه البحري وخاصة فى طنطا والمنصورة والشرقية ومن دمياط إلى الإسكندرية، وفى غضون ذلك توسط أعضاء الديوان الوطنى الذى أُبطل بعد الثورة، كما توسط كبار العلماء لدى نابليون ليعيد الطمأنينة إلى النفوس، فطلب إليهم أن يكتبوا بياناً إلى الشعب يناشدونه فيه الإخلاد إلى الهدوء والسكينة وعدم التعرض

---

(٢٦١) أحمد عبد الرحيم مصطفى، وآخرون: كفاحنا ضد الغزاة، ص ٢٥٩.

للفرنسيين وإطاعة أوامرهم، ولكن هذا البيان لم يسفر عن المرجو، فالثورة كانت عامة، وذاعت الإشاعات بأن السلطان العثمانى وخليفة المسلمين قد أعلن الحرب على فرنسا، وأعد الجيوش لإخراج الفرنسيين من مصر، فطالب نابليون العلماء بإعداد بيان آخر يكذبون فيه هذه الإشاعات، فلم يصدق الشعب هذا البيان الأخير لتيقنه أن علماءه إنما كتبوه تحت ضغط ولذلك لم يستجب له، وما كاد نابليون يغادر إلى سوريا ١٧٩٩م، وما كاد المصريون يشعرون بقلة عدد الجند الفرنسيين حتى بدأت تقوم الثورات فى الدلتا من جديد، وبدأت فى الشرقية - كما رأينا من ذى قبل - وامتدت إلى وسط الدلتا وغربيها حيث حدثت عدة معارك فى كفور نجم وسنهور ودمنهور، ولم تهدأ الحال حتى عاد الفرنسيون من سوريا.[٢٦٢] وقمع نابليون الثورات وأُقيمت التحصينات لحماية الملاحة وسحق الثورات الشعبية التى قامت لا سيما فى ميت غمر فأمر بإحراقها وتدميرها " حتى لم يبق فيها حجر على حجر " كما يقول ريبو[٢٦٣] وسار فى مصر كلها لقمع الثورة وإرهاب الناس.

فى الصعيد اعتقد (مراد بك) بعد موقعة أنبابة أن بإمكانه التحصن بالوجه القبلى ومقاتلة الفرنسيين إذا انضم إليه الأهالى وعضدوه وأن بمقدوره أن يقطع الغلال عن القاهرة والوجه البحرى، فعهد نابليون إلى الجنرال ديزيه قبل احتلال القاهرة أن يحتل المنطقة التى فى جنوبى الجيزة، وأن ينصب فيها الاستحكامات

---

(٢٦٢) المرجع السابق، ص ٢٦١.

(٢٦٣) عبد الرحمن الرافعى: مصر فى موجهة الحملة الفرنسية، ص ١٥٠.

استعداداً لما قد يحدث، ولكن مراد لم يفكر فى الهجوم بل انسحب بفلول جيشه نحو الجنوب، وقصد إلى الفيوم، واستقر بالبهنسا.

سارت قوات ديزيه قاصدة الاستيلاء على سفن مراد التى استطاعت الإفلات إلى أسيوط على حين التقت القوة المملوكية والفرنسيون عن سدمنت، وكانت قد انضمت إلى قوات مراد أعداد كبيرة من الأهالى فرساناً ومشاة، وكادت الدائرة تدور على الفرنسيين لولا تفوق مدفعيتهم وحسن قيادتهم.

كانت معركة سدمنت آخر المعارك المنظمة التى قادها مراد، ثم تحولت الحرب بعد ذلك إلى حرب عصابات يقوم بها الأهالى فى طول الصعيد، ومعهم بعض أعراب الحجاز الذين أتوا عن طريق القصير، وفى إبان هذه المعارك نجح الفرنسيون فى تحطيم قوة مراد دون أن يقضوا عليها تماماً ولكنهم لم ينجحوا فى إخضاع الأهالى، فحدثت معارك فى المنيا، أبو جرج، بنى عدى، طهطا، جهينة، سوهاج، الصوامعة، برديس، جرجا، سمهود، الروسية، قنا، أبو مناع، أسنى، قفط، أبنود، أسوان. وهكذا كانت الثورة ضد الفرنسيين مستمرة بانتظام فى طول البلاد وعرضها، حتى تم جلاؤهم عن مصر، فانقلب الشعب ينتقم لنفسه من كل من عاونوا الطغاة الفرنسيين، وتلا الجو لعلو صوته من جديد فى ثنايا الاضطراب العام الذى تلا ذلك.(٢٦٤)

لقد تلقت أقاليم مصر جيش نابليون المتوغل فى الدلتا والصعيد بمقاومة شرسة لا تلين، اضطر الفرنسيون معها للحرب والقتال من

---

(٢٦٤) أحمد عبد الرحيم مصطفى: مرجع سابق، ص٢٦٢ ، ٢٦٣.

قرية إلى قرية ليخضعوا أقاليم مصر، واستخدموا القتل والنهب والسلب والتحريق والتنكيل لكسر روح المقاومة، فنجحوا حيناً وفشلوا أحياناً.

ففى المنصورة، ما إن رحل الجيش الفرنسى عنها بعد أن ترك فيها حامية من ١٢٠ جندياً، حتى بدأ أهالى المنصورة ينصبون الكمائن لجنود الحامية، فبدأوا بقنص ثلاثة منهم، ثم حاصروهم فى ثكنتهم التى تحصنوا بها، حتى نفدت ذخيرة الفرنسيين، فخرجوا من المدينة تحت وابل من الرصاص يأتيهم من كل مكان ويحصد أرواحهم، وألقى بعضهم بنفسه فى النيل هرباً من الطلق. ولم ينج من الحامية المكونة من ١٢٠ فارساً إلا جندى واحد فقط أسره الأهالى ثم أطلقوا سراحه، وهو الجندى مورستون الذى كتب ما حدث فى تقريره إلى كولونيل لوجييه ووردت تفاصيله فى تأريخ كريستوفر هيرولد لحملة نابليون على مصر فى كتابه "بونابرت فى مصر"

وساعد أهالى الدلتا على المقاومة أن كثيراً من قراهم كانت كالقلاع المنيعة لها أسوار وأبواب، مثل قريتى غمرين وتتا شمالى منوف اللتين ثارتا على المستعمر يوم ١٣ أغسطس ١٧٩٨ م وحملوا السلاح وأغلقوا الأبواب فى وجه الجنود، فحاول قائد الحامية اقتحام القريتين ففشل، فطلب المدد من حامية منوف فأرسل له ممداً، وبعد قتال دام ساعتين استطاعت الحامية اقتحام القريتين، واستبسلت قرية غمرين حتى بعد الاقتحام وقاتل الأهالى فى الطرقات حتى امتلأت بجثثهم، واستشهد منهم من أربعمائة إلى خمسمائة بينهم عدد من النساء.

وما حدث فى غمرين حدث فى قرى كثيرة فى مصر، فى كفر شباس عمير وأبى زعبل ومدن طنطا والمحلة ودمياط، ثم امتد إلى الصعيد حيث واجه الفرنسيون ثورة كبيرة بين جرجا وأسيوط وكذلك سوهاج وطهطا وغيرها.

و كانت ثورات الأهالى تأخذ شكلين أساسيين، وهما إما الهجوم على الحامية الفرنسية المرابطة فى القرية أو المدينة، أو التربص بكتائب الفرنسيين المتوغلة فى الأقاليم والمارة بالقرى والمدن على الطريق.

و كانت أسلحة الأهالى لا تتعدى البنادق والمسدسات والشوم والحراب. وكانوا يخرجون بالآلاف لمقاتلة الفرنسيين فى هذه المواجهات، وما أن تسمع القرى المجاورة بخروجهم حتى ترسل النجدة من الرجال والعتاد لنصرة أخوانهم المجاهدين.

و فى كثير من الأحيان كانت الغلبة العسكرية للفرنسيين بفضل تفوقهم العسكرى وتنظيم صفوفهم، وكانت وسيلتهم فى ردع القرى هو إحراقها ونهبها وقتل وأسر مقاتليها.

واتخذ الشعب من ذكرى انتصارات ثورته على الغزاة أعياداً قومية لكنها ليست مجرد تواريخ وأيام للاحتفال، فكل تاريخ يحمل وراءه الكثير من الذكريات، وكل عيد يروى حكاية كتبها المصريون بدمائهم وأرواحهم ليرسموا لنا صورة لما ينبغى أن تكون عليه ملامح البطولة والفداء، و الاحتفال بالأيام المجيدة هو أحد عوامل بناء هويتنا الذاتية وبقدر عظمة الذكرى يكون أثرها الإيجابى فى بناء قوة الأمة ودعم شبكة النسيج الاجتماعى والسياسى والثقافى.

أيام لها تاريخ

فى تلك الأيام جسدوا لنا فى صفحات التاريخ أن المصرى حين يهب للدفاع عن أرضه ووطنه وعرضه وتاريخه وتراثه لا تحركه انتماءات دينية أو عرقية ولا يرهبه فارق القوة والعتاد، فبندقية ومدفع فى يد المعتدى تسقط أمام فأس ونبوت فى يد المدافع عن حقه وكرامته، وجبروت وطغيان محتل غاصب لا مفر من انكسارهما أمام إرادة التحدى المصرية.

وحين نستغرق فى سطور وحكايات الأعياد القومية لمحافظات الصعيد مثلاً تطالعنا ملامح رئيسية تربط بين تلك الأعياد برابط خفى أولها أنها فى معظمها سجلت حدوتة مصرية للصمود والثورة والتحدى فى وجه الاستعمار على مختلف العصور سواء كان ذلك الاستعمار، فرنسيا خلال فترة الحملة الفرنسية على مصر ١٧٩٨ م ١٨٠١م. حيث ارتبطت تواريخ الأعياد القومية لمحافظات أسيوط وسوهاج وقنا بمعارك دارت بين المصريين وقوات الاحتلال الفرنسى التى أرادت بسط سيطرتها الكاملة على مصر وسيرت حملات نحو الصعيد فى الفترة من يناير إلى أبريل من عام١٧٩٩ م , فيما ارتبطت أعياد محافظات بنى سويف والفيوم والمنيا بذكرى ثورة١٩١٩ والتى امتدت من القاهرة إلى مختلف محافظات مصر حيث شهدت خروج أهالى بنى سويف والمنيا فى ثورة كبرى ضد قوات الاحتلال الإنجليزى فى مارس١٩١٩ م.

ولم تكن ثورة بنى عدى فى أسيوط تحت قيادة الشيخ حسن الخطيب فى ١٨ أبريل١٧٩٩، وهو التاريخ الذى تحتفل فيه المحافظة بعيدها القومى كل عام سوى درس قاس فى سلسلة

الدروس التى تعلمها الفرنسيون فى حملتهم إلى الصعيد التى عادوا منها مطأطئى الرؤوس فى النهاية.

وقد ضرب أهالى بنى عدى- التى تقع على طرف الصحراء الغربية لمركز منفلوط وعلى الطريق المؤدى إلى الوادى الجديد- فى ذلك اليوم مثلا رائعا فى البطولة والفداء حيث اجتمع فيها ما يزيد على ثلاثة آلاف من الأهالى تحت زعامة الشيخ حسن الخطيب والشيخ محمد المغربى والشيخ أبو العدوى ,وانضم إليهم٤٥٠ من الأعراب المصريين و٣٠٠ من المماليك لمواجهة القوات الفرنسية التى سارت إليهم بقيادة الجنرال دافو بهدف الاستيلاء على بنى عدى.

وحين وصل الجنرال دافو وجنوده إلى بنى عدى وجدوا الأهالى جميعا يحملون السلاح، وقد استبسل الأهالى فى تلقى هجمات الجيش الفرنسى واشتبك الفريقان فى معركة حامية فى طرقات بنى عدى وفى بيوتها التى حصنها الأهالى وجعلوا منها شبه قلاع، وحين شعر الفرنسيون بالعجز شرعوا فى حرق القرية وأضرموا النار فى بيوتها لتتحول إلى شعلة من النار، وبهذه الوسيلة نجح الفرنسيون فى الدخول إلى بنى عدى بعد أن أصبحت رمادا واحتلوا ما بقى من بيوتها وسلبوا ونهبوا كل ما وصلت إليه أيديهم من أموال وكنوز. وتمثلت أبشع صور الردع فيما حدث فى قرية بنى عدى فى أسيوط، حتى أن الجنرال بارتييه رئيس أركان حرب الحملة الفرنسية أورد فى مذكراته الآتى "أصبحت بنى عدى أكواماً من الخرائب، وتكدست جثث القتلى فى شوارعها، ولم تقع مجزرة أشد هولاً مما حل ببنى عدى" وقدر عدد القتلى من جانب الأهالى بحوالى ألفى قتيل.

ولم تتوقف معارك الفرنسيين مع أهالى الصعيد عند أسيوط بل امتدت أيضا إلى سوهاج ,والتى تحتفل بعيدها القومى فى١٠ أبريل من كل عام تخليدا لذكرى تصدى أبناء سوهاج للحملة الفرنسية التى هاجمت عدة مدن وقرى فى سوهاج عام ١٧٩٩، لتدور معارك طاحنة استبسل فيها أهالى طهطا والصوامعة وبرديس وجرجا وشكلوا درعا مانعا أمام تعزيزات الحملة الفرنسية القادمة من أسيوط لمعركة جهينة التى قهر فيها أهالى سوهاج القوات الفرنسية مما أجبر الحملة كاملة على التراجع من مدن وقرى المحافظة.

وفى قنا كانت الحملة الفرنسية مع درسها الأقسى والذى أثبت لها أن دخول الصعيد وإن كان سهلا فإنه طريق ذو اتجاه واحد, دخول دون خروج، وذهاب من غير رجعة، فدرس الهزيمة - الذى تلقاه الفرنسيون فى ٣ مارس ١٧٩٩ م والذى تحتفل فيه المحافظة بعيدها القومى تخليدا لذكرى انتصار أهالى نجع البارود على القوات الفرنسية- كان قد بدأ قبل ذلك بانتصار زائف للفرنسيين فى٢٢ يناير من العام ذاته فى معركة سمهود إحدى قرى مركز أبو تشت والتى انتصر فيها الجنرال الفرنسى ديزيه على قوات مراد بك وأنهى فيها آخر دور للمماليك فى مقاومة الحملة ليبدأ الدور الحقيقى للمقاومة المصرية الخالصة.

ولم يكن طريق العودة لديزيه بعد تعقبه لفلول المماليك حتى إسنا فى جنوب قنا وإدفو فى أسوان ,بنفس سهولة طريق الذهاب الذى لم يلق فيه من المماليك مقاومة تذكر حيث اكتفوا بالمناوشات الخاطفة على مؤخرة الجيش والفرار فى المواقع التى انتهت بغلبة القوات الفرنسية، ولم يكد ديزيه يتنفس الصعداء ظنا منه أنه

اقترب من تحقيق السيطرة الكاملة على الصعيد حتى كان للصعايدة من أهل قنا رأى آخر، لتبدأ المقاومة والحرب الحقيقية، وتأتى الريح القناوية بما لا تشتهى السفن الفرنسية.

وكانت تقديرات القائد الفرنسى أنه لن يلقى مقاومة من المصريين لميلهم إلى الهدوء وكراهيتهم للمماليك، إلا أن ما فعلته المقاومة الشعبية كان بمثابة المفاجأة التى أذهلت ديزيه وقواته وحولت رحلتهم التى ظنوها ستكون ترفيهية إلى جحيم خلا فيه مسرح الأحداث إلا من الأبطال الحقيقيين، فما أن انتهى دور المماليك حتى شهدت حملة ديزيه على الصعيد ما لم تشهده طوال رحلتها من مقاومة من خلال معركة قنا فى ١٢ فبراير١٧٩٩ ومعركة أبو مناع فى ١٧ فبراير ومعركة إسنا فى ٢٥ فبراير.

وتلك المعارك التى أنهكت قوات الجنرال ديزيه وأحرجت موقفه وجعلته يستنجد بنابليون طالبا المدد والعون، ولما أصابه اليأس غادر إسنا إلى قوص فى طريقه إلى أسيوط حيث قواته طلبا للأمان، وقد سبق الجنرال ديزيه عند سفره إلى قوص أسطوله الذى كان يسير ببطء فى النيل ليلحق بالجيش فى أسيوط، وكان الأسطول مكونا من اثنتى عشرة سفينة تقل ذخائر الجيش ومؤنه تتقدمها السفينة الحربية إيتاليا.

وعند قرية نجع البارود والتى تحول اسمها إلى وصف فى ذلك اليوم، ورغم ما يتمتع به أهلها من طيبة وعطف وهدوء فإن ذلك لم يقف حائلا دون اشتعال الموقف لتتحول القرية فى لحظات إلى موقع قتال وحلبة للصراع، وعلى الرغم من الهجوم النارى الذى شنته عليهم سفينة القيادة إيتاليا بمدافعها الحديثة والتى حصدت منهم الكثير فإن ذلك لم يزدهم إلا إصرارا على الصمود والثأر، ووجدوا أنفسهم أمام خيارين لا ثالث لهما إما النصر للاحتفاظ

بكيانهم وكرامتهم أو الموت مستسلمين لترفع الأعلام الفرنسية على جثثهم وأنقاض قريتهم، ففضلوا الخيار الذى يمجدهم من خلاله التاريخ.

ومن هنا هاجم أهل نجع البارود السفن الفرنسية بضراوة واستولوا عليها وافرغوا شحنتها من الذخائر على شاطئ النيل ,ثم امتطوا ظهور السفن وقصدوا سفينة القيادة إيتاليا للاستيلاء عليها، وحين تأزم الموقف فكر قائد السفينة القومندان موراندى فى الانسحاب لكن الريح عاكسته فجنحت به السفينة ولم يلبث أن هرع إليها الأهالى من كل صوب، وهنا أدرك موراندى الخطر المحيط به فأشعل النار فى مستودع البارود ونسف السفينة لتتناثر شظاياها مختلطة بدماء غير قليل من الأهالى، ليستمر من بقى فى القتال ببسالة حتى مات موراندى متأثرا بجراحه، وقتل جميع الفرنسيين الذين كانوا على ظهر سفن الأسطول الفرنسى، وكانوا أكثر من خمسمائة قتيل، وهى أكبر خسارة منيت بها الحملة الفرنسية على مصر. وإلى وقت قريب كانت هذه الملحمة ذاتها الخاصة بأهالى نجع البارود هى العيد القومى لأهل الأقصر قبل أن تتحول مدينة الأقصر لمحافظة وتتخذ من ١٤ نوفمبر عيدا قوميا لها، تخليدا لذكرى اكتشاف مقبرة توت عنخ أمون الفرعون الشهير، أحد ملوك الأسرة الـ١٨ الفرعونية التى حكمت مصر فى الفترة من ١٣٤٧- ١٣٣٦ ق. م، وقد تم اكتشاف المقبرة على يد الأثرى الإنجليزى هاورد كارتر فى١٤ نوفمبر سنة١٩٢٢ م.[٢٦٥]

---

(٢٦٥) أحمد عبادى: أعياد الصعيد انتصارات على الغزاة، (جريدة الأهرام المصرية، عدد ٤٥٣٢٦ ، الثلاثاء ١١يناير ٢٠١١م). ص الأولى، ملحق الصعيد.؛ وللمزيد عن ثورات الوجه البحرى والصعيد. انظر / عبد الرحمن الرافعى، مصر فى مواجهة الحملة الفرنسية، ص ٨٠ ـ ١٥٥ .

الفصل الرابع

ثورات العصر الحديث ضد الخيانة والاستعمار

". . . . ألم أقل لك إن أولياء نعمتى اثنان:
أحدهما السلطان محمود والآخر الفلاح. وأن
قصدى من هذه الحكاية عدم النظر إلى الفلاح
بعين العداوة وإزالة ذلك من الوجود الآن،
أخذنا وعطاءنا ونيلنا هذا الشرف هو من
وجودهم أى بيهم فعليه - ولكون الفلاح ولى نعم
الجميع – يجب النظر لما فيه أصول رفاهيته

"محمد على ".(٢٦٦)

لعل نابليون الأول، الذى وقف على أرض مصر، ممتطياً جواده الأبيض، ملهباً حماس جنده، وهو يشير بأصبعه إلى أهرامات الجيزة الشامخة، مفاخراً بقولاته :"أربعون قرناً تطل عليكم " فلم تمر سوى ساعات معدودات، حتى يكون هو وجنده قد اجتازوا النيل، ودخلوا قاهرة المعز غاصبين. . ذلك المستبد الظالم الذى

(٢٦٦) كريم ثابت، محمد على، دار المعارف بدون تاريخ صـ٢٥٢

وثقت فيه الثورة الفرنسية، باعتباره واحد من أبنائها، فعهدت إليه بمهمة انقاذ مكاسبها من كيد المعتدين، فإذ به ما أن استقر له الأمر، يغدر بها، متنكراً لمبادئها، فيلغى الجمهورية أهم انجازاتها، وينصب نفسه امبراطوراً قاهراً لشعوب أوربا من موسكو شرقاً، حتى مدريد جنوباً.

ذلك الطاغية المرتد عن مبادئ الثورة: الحرية، المساواة، والإخاء. تلك المبادئ التى لولاها ماكان له شأن يذكر انتهى به الأمر مدحوراً فى مصر، وأضحت حملته على مصر فى نظر الجميع وقت انسحابها، وبالنسبة لفرنسا بالأخص، حملة فاشلة من كافة الوجوه، قد وصفها البعض مثل تيير Thiers بأنها: "أكثر محاولة فى التاريخ تهورا، وأكثر تهورا من حملة بونابرت على موسكو". ولا نكاد نجد فى التاريخ مشروعا بدأ بمثل ما بدأت به هذه الحملة من الطنطنة والمبادئ الرفيعة والأهداف واسعة النطاق، ثم إذ هو بعد بضعة أشهر يتدهور إلى حد أن يهجره صاحبه، بونابرت لمصيره، ولا يكاد خلفه كليبر يفكر إلا فى كيفية تخليص رجاله من الورطة والرحيل.[٢٦٧] لينتهى بهم الأمر إلى الرحيل عن مصر فى سبتمبر ١٨٠١م. بعد فترة احتلال قصيرة لا تكفى لكى يخلفوا مؤثرات ذات أهمية كبيرة من الناحية الحضارية، رغم المبالغات فى الحديث عن هذه التأثيرات.

كانت فجوة زمنية فى التاريخ المصرى مدتها ثلاث سنوات (من يوليو ١٧٩٨م - سبتمبر ١٨٠١م) لها أهميتها لأسباب أخرى، تتمثل فى أن قوة الشعب المصرى ممثلة فى زعمائه من المشايخ والعلماء وكبار التجار الذين كان من أبرزهم السيد عمر مكرم والشيخ السادات والشيخ عبد الله الشرقاوى، والشيخ محمد الأمير

---

(٢٦٧) حسين أحمد أمين، مملوك فى لندن ،مجلة الهلال يناير ١٩٨٦م صـ٨٢ .

وغيرهم، فضلاً عن السيد أحمد المحروقى كبير تجار مصر، قد بدأت تظهر على سطح الحياة العامة بشكل مؤثر إلى حد أن صار لها دور فى إقرار الأمور.

رغم ظهور هذه القوة على نحو واضح خلال الصراع السياسى بين بكوات المماليك قبيل الغزو الفرنسى، حين حصلت على حجة عام١٨٧٥ م. الشهيرة التى أرغمت بكوات المماليك على الإقرار كتابة على إلغاء الضرائب الجديدة وإبطال أعمال النهب. . إلخ فإن هذه القوة الشعبية لعبت دورها فى مقاومة الاحتلال الفرنسى وأشعلت الانتفاضات والثورات ضده، وكان ذلك بمثابة تدريب عملى على النضال، أنضج قوة الأهالى وكرس دور زعمائهم السياسى.[٢٦٨] ووعى المصريون الدرس وعرفوا أن الاحتلال هو الاحتلال مهما تلون بألوان مبهجة من تقدم علمى أو إدارى أو تنظيمى، فالتقدم إن لم يأت بأيدى وعقول أهل البلد، فسوف يأتى تفضلاً من السيد المحتل إلى العبيد أو يأتى مشروطاً بخلع عباءة الهوية المصرية.

من رحم النهاية التعسة للحملة الفرنسية على مصر ظهرت على مسرح التاريخ شخصيات قيادية عديدة واعية بدورها فى التغيير من حال إلى حال وفى مقدمتهم شيخ استرسلت لحيته وعظمت عمامته، تحفه المهابة ويعلوه الوقار هو الإمام وشيخ الإسلام والمسلمين عبد الله الشرقاوى شيخ الأزهر الشريف الذى ثبت على المبادئ التى شكلت وجدانه فى مقاومته للظلم أينما كان.

---

(٢٦٨) أحمد زكريا الشلق: تطور مصر الحديثة فصول من التاريخ السياسى والاجتماعى، ص ١١٣ .

الشعب . يريد . إسقاط النظام

كانت البداية فى صباح يوم أسود لحاكم ظالم مثله مثل كثير من حكام مصر أراد الوالى التركى (خورشيد باشا؛ الذى تولى حكم مصر ١٨٠٤م) - فرض ضريبة جديدة على الشعب ليتمكن من دفع رواتب الجند (الدلاة) حتى يجلوا عن القاهرة إلى الجيزة كإخوانهم، تهدئه للخواطر، فأحدثت هذه الخطوة هياجاً شديدا فى الخواطر (١٢ من صفر سنة ١٢٢٠هـ) فاجتمع الزعماء فى دار المحكمة الكبرى (بيت القاضى) وفى مقدمتهم إمام الجامع الأزهر الشيخ عبد الله الشرقاوى، لاختصام الوالى.

علم الأهالى بالأمر فثار منهم نحو أربعين ألفا منادين بالسخط على الأتراك، وطلبوا من القاضى أن يرسل بإحضار المتكلمين فى الدولة لمجلس الشرع، فحضر الجميع واتفقوا على كتابة عرضحال بالمطالب الشرعية ففعلوا ذلك، وانعقد مجلس الشرع وعرض الزعماء مظلمة الشعب وحرروا مطالبهم وأولها ألا تفرض ضريبة على المدينة بداية من اليوم إلا إذ أقرها العلماء وكبار الأعيان. وذكروا فيه تعدى طوائف العسكر على الناس وإيذائهم، وإخراجهم من مساكنهم،" الفساد الأمنى"، وقبض مال الميرى المعجل "سرقة المال العام" ومصادرة الناس بالدعاوى الكاذبة " فساد القضاء" وغير ذلك. . ورأى الوالى أن هذه الخطوة خطيرة تكاد تقتلعه من منصبه.

لما وصلته رسالة القاضى أراد القبض على بعض العلماء، وأرسل إليهم، ففطنوا لمكيدته ولم يذهبوا، ورفض الوالى إجابة المطالب متجاهلا الإرادة الشعبية وكان ذلك هو المسمار الأخير فى نعش الوالى. الذى ظن أن الشعب "بيتسلى" وعندما ذهب وفد من العلماء لإبلاغ خورشيد باشا بقرارهم بعزله، صاح فيهم بأنه تولى منصبه

بأمر من السلطان العثمانى وأنه لا يعزل بأمر "الفلاحين" وعندما أطلعوه على محضر العلماء بعزله حاجهم بأنه ليس له سند شرعى وأنه لا يعترف به لأنه ليس من السلطان. وبدا الصدام وشيكاً بين الوالى المخلوع والشعب الثائر المستعد بكل وسائل القتال والذى يحاصر القلعة.[٢٦٩] وبدت أحداث عام ١٨٠٥ قريبة الشبه مما عاشته مصر منذ الخامس والعشرين من يناير، إذ اشتعلت ثورة الشعب، تحت قيادة الأزهر ونقابة الأشراف وكبار التجار، وتحددت أهداف الثورة فى شعار واحد " الشعب يريد إسقاط خورشيد باشا" .!!. الذى استمر على عناده على مدى أيام الثورة والشعب المصرى يصرخ فى وجهه بأن يرحل لكن خورشيد تصامى عن سماع صوته وتعامى عن رؤية شرارة غضبه بعد أن أوصلته مفاسد حكمه الجبرى إلى شفير الهاوية، مستمسكاً بشرعية باهته ولم يدرك خطورة المرحلة الحرجة التى يجتازها الشعب المصرى وقتئذ، وأصر على البقاء فى الحكم وقد لفظه الشعب، وأسقط عنه الشرعية!. هذا الصلف وهذا التحدى لإرادة الشعب المصرى آنذاك أنذر بانزلاق البلاد إلى خطر الاقتتال والتصادم، وسفك الدماء. . . فما أشبه الليلة بالبارحة!.

وتوالت الأحداث سريعا وازداد الناس ثورة واجتمع وكلاء الشعب من العلماء وفى مقدمتهم الإمام عبد الله الشرقاوى فى (١٣صفر سنة ١٢٢٠هـ) بدار المحكمة للتشاور فى الموقف، واحتشدت الجماهير فى فناء المحكمة وحولها يؤيدون وكلاءهم، وهناك اتفقت كلمة الشعب على عزل "خورشيد باشا" وتولية محمد على، وأبلغوه

(٢٦٩) أحمد زكريا الشلق: تطور مصر الحديثة فصول من التاريخ السياسى والاجتماعى، ص ١١٦ .

بما اتفقت عليه إرادة الشعب المصرى ونهض الشيخان الجليلان السيد عمر مكرم والشيخ عبد الله الشرقاوى وألبساه خلعة الولاية.[(٢٧٠)]

عاشت مصر أياما متتالية من الفوضى والمواجهات، بين الشعب وخورشيد باشا حتى جاء الفرمان العثمانى، بالاستجابة لمطالب الشعب بإسقاط خورشيد وتعيين قائد عساكره فى مصر محمد على والياً على البلاد استجابة لرغبة الشعب.. هكذا انتهت الثورة بالنجاح وحققت جميع مطالبها، خلعوا الوالى واختاروا واليا جديدا هو محمد على. . بشروط الشعب، وكان ذلك تحت شعار: العدالة والخير، وهو الشىء نفسه الذى حدث فى ٢٥ يناير مع فارق بسيط أن المصرى الآن يطمح فى الحرية المسئولة والعدل والمساواة ولا يرضى بغير حقوقه كاملة. فلسان الثوار ربما يجف بلله حتى يحصل على مبتغاه فى حياة كريمة تزيل من قاموس مجتمعنا عبارة (غير لائق اجتماعيًا!!)[(٢٧١)]، ترفعه لمرتبة البنى أدميين فى نظر كل الطغاة المستبدين.

---

(٢٧٠) عبد الرحمن الرافعى، تاريخ الحركة القومية وتطور نظام الحكم، الجزء الثانى، الطبعة الأولى ١٣٤٩هـ - ١٩٣٠م مطبعة النهضة صـ٧٧ .

(٢٧١) غير لائق اجتماعيًا أشهر عبارة دفعت بأحد ابناء مصر إلى الانتحار هربا من ظلم المجتمع له.. هو الشاب عبد الحميد شتا. والقصه لمن لا يعرفها أن شابا مصريا ظل يكافح طيلة المراحل الدراسية أملا فى مستقبل مشرق وحصل على الإمتياز فى كليته وإنتظر تعيينه فكان الإستثناء لأنه غير لائق إجتماعيا فدفعوه للانتحار خلاصا من الظلم.. انتحر عبدالحميد شتا عقب تلك النتيجة مباشرة... حيث ألقى بنفسه من كوبرى قصر النيل فى العام ٢٠٠٤م ووُجدت جثته متوارية عن الأنظار فى قاع النيل. مما جعل مصر كلها تتعجب من عصر أصبح فيه ابن الموظف غير لائق اجتماعيا للالتحاق بالسلك الديبلوماسى أو التمثيل التجارى أو النيابة أو الحربية أو الشرطة، فى بلد كان رئيس جمهوريتها ورمزها الأعلى ابن محضر!!. خطأ عبد الحميد أنه ولد فى زمن فيه ٨٥ مليون مواطن مصرى غير لائقين اجتماعيًا!!

من المعروف أن العلاقة بين الحكام والمحكومين قبل محمد على كانت قد وصلت إلى الحد الأدنى من العلاقة الشرعية، كما كان العلماء يمثلون العمود الفقرى للمجتمع فى هذا العصر، باعتبارهم همزة الوصل بين الراعى والرعية. وهكذا كان الحال قبل مجئ بونابرت، وهذا يفسر لنا لجوء عامة الناس إليهم والتفافهم حولهم فى النوازل والملمات مما أضفى بدوره على مركزهم أهمية جديدة.(٢٧٢)

انطلاقاً من هذا الدور وقف الإمام الأكبر شيخ الجامع الأزهر مع العلماء والشعب ضد محاولات الباب العالى لخلع محمد على،(٢٧٣) ووقف ضد محاولة هجوم المماليك على القاهرة فى

(٢٧٢) أحمد زكريا الشلق: تطور مصر الحديثة، ص ١٣٠.

(٢٧٣) ومن عجب الأقدار أن يقوم الشعب ممثلا فى جيشه بعد ما يقرب من قرن ونصف باقتلاع أسرة محمد على وخلع حفيده - فاروق الأول - وخروجه فى (٢٦ يوليو عام ١٩٥٢ م)، من مصر محفوفاً بمظاهر التكريم والكرم المصرى المعهود حيث تفقد حرس الشرف وعزفت الموسيقى السلام الوطنى، وتم إنزال العلم الملكى من سارية القصر، وتقدم الضابط الذى يحمل العلم فطواه وسلمه له كما تقضى التقاليد العسكرية، وحلقت أربع طائرات نفاثة مشاركة فى التحية، وأطلقت المدفعية ٢١ طلقة، وأدى حرس الشرف التحية العسكرية. لفاروق لتتجلى حضارة مصر فى وداعها لحاكم مخلوع بإرادة الشعب وجيشه المصرى فهو ملك مطرود بعد انقلاب عسكرى يعامل باحترام، ويودعه قائد الثورة فى ذلك الوقت (محمد نجيب) ومعه بعض من أعضاء مجلس قيادة الثورة (حسين الشافعى وجمال سالم وإسماعيل فريد وأحمد شوقى)، ويخاطبه قائد الثورة بمولانا صاحب الجلالة ، وتؤدى له مراسم الوداع الملكية ويستقل اليخت الملكى " المحروسة" إلى منفاه ومعه أسرته دونما إهانة أو إذلال أو انتقام، لتعبر مصر عن حضارتها الضاربة فى أعماق التاريخ منذ آلاف السنين وقت أن كانت الشعوب التى ترفع الآن شعار حقوق الإنسان تعيش فى خيام بأطراف الصحراء، أو فى الكهوف بجبال أوربا ومازالت يعودها الحنين إلى شريعة الغاب تمارسها بوحشية كلما سنحت لها الفرصة دون مراعاة لمبادئ الإنسانية وحقوق الإنسان التى تتشدق بها وهى تمارس وحشيتها ضمن شعوب مغلوبة على أمرها وكل هذا يحدث على مرأى ومسمع من العالم فشتان بين ما حدث فى مصر لحاكمها المخلوع وبين ما حدث لملوك الشرق والغرب المخلوعين قديما وحديثا مثل الملك لويس ومارى أنطوانيت على يد الثورة الفرنسية - ثورة الحرية =

(أغسطس سنة ١٨٠٥م) ليستولوا عنوة على زمام الحكم ولم يمض شهران على توليه محمد على باشا وبعد هجوم المماليك على القاهرة ودخولهم (المماليك) من باب الفتوح وقصدوا دار السيد عمر مكرم لاستمالة القوى الشعبية ولكنه رفض مقابلتهم، فقصدوا دار (الشيخ عبد الله الشرقاوى) شيخ الجامع الأزهر فرفض الشرقاوى تقديم العون لهم باعتباره الرمز الدينى والإسلامى فى مصر وانتهت هجمة المماليك بالإخفاق.(٢٧٤)

الأسياد والعبيد

وبهذا تمكن محمد على بفضل دهائه من أن يمتلك قوة الرأى العام المصرى من خلال صداقته للزعماء الوطنيين وأن يمتلك السلاح، فشق طريقه إلى كرسى حكم مصر فى يسر، دون أن تبدو عليه الرغبة فى ذلك، كما كان يخطط ليجعل من نفسه شخصاً لا غنى عنه بالنسبة للحكومة العثمانية بأن يعيد سلطتها إلى البلاد.. وهكذا وصل محمد على إلى كرسى الولاية دون أن يطلق رصاصة واحدة ودون أن يعرض نفسه لسخط الباب العالى بفضل انحيازه فى بداية حكمه إلى قوة الإرادة الشعبية وإيمانه بدورها الفاعل.(٢٧٥)

قوة هذا الدور تجلى واضحاً إزاء تولية السلطة السياسية الحكم، وكذلك دورها فى تنحية أو خلع هذه السلطة عن الحكم، فيما جسده الحدثين –تولية محمد على وخلع مبارك – إن إرادة الشعب تتبدى

= والإخاء وحقوق الإنسان!!!! وما حدث لقيصر روسيا وأسرته، وفيصل ملك العراق، وعبد الإله، وشاوشيسكو رئيس رومانيا، وصدام حاكم العراق، والقذافى فى ليبيا، وغيرهم الكثير عندما سقطت عنهم تيجان الملك والرئاسة.

٢٧٤- عبد الرحمن الرافعى، تاريخ الحركة القومية الجزء الثالث عصر محمد على، (ط١، مطبعة النهضة القاهرة ١٩٣٠م)، ص١٥, ص١٦

٢٧٥- أحمد زكريا الشلق: تطور مصر الحديثة فصول من التاريخ السياسى والاجتماعى، ص ١١٧ .

فى هذين الحدثين بوصفها سلطة عليا يمكنها الحد من السلطات المطلقة لسائر ما عداها سواء كان ذلك تشريعيا أو تنفيذيا.

إن السيادة الشعبية هى تقرير سلطة الشعب فى مواجهة سلطة الفرد المطلقة أو سلطة الطبقة الحاكمة، وهذا يعنى ممارسة الشعب إشرافه على من يفوضهم فى تسيير أموره، وتعنى أيضا أنها السلطة التى تعلو كل من البرلمان والحكومة وصولاً إلى السلطة السياسية وصاحب السيادة فيها.

يا عزيز. . يا عزيز. . كبة تاخد الإنجليز

فلم يكد محمد على يقضى فى الحكم أقل من سنتين حتى فوجئ بحملة إنجليزية جاءت لاحتلال الإسكندرية عام ١٨٠٧م. مما أثار فزعه خشية إقصاء الإنجليز له عن الحكم وتسليم البلاد لحلفائهم استطاعت الحملة الاستيلاء على الإسكندرية فى مارس ١٨٠٧م. ولكنها لم تنجح فى الاستيلاء على رشيد نتيجة لمقاومة أهالى رشيد، وفى يوم ٣١ مارس ١٨٠٧، تصدى أهالى رشيد بقيادة محافظها "على بك السلانكى" للحملة الإنجليزية، حيث حشد كل قواته ٧٠٠ جندى، عازماً على مقاومة عساكر الإنجليز. كما استنفر الشيخ حسن كيريت أهالى المدينة للمقاومة الشعبية، فأمر بإبعاد المراكب المصرية من أمام شاطئ النيل برشيد إلى البر الشرقى المقابل بهدف منع الأهالى من ركوبها والفرار من المدينة حتى لا يجد رجال حاميته وسيلة للارتداد أو الاستسلام أو الانسحاب كما فعلت حامية الإسكندرية من قبل.

تقدم الإنجليز ولم يجدوا أى مقاومة، فاعتقدوا أن المدينة ستستسلم حاميتها كما فعلت حامية الإسكندرية، فدخلوا شوارع المدينة مطمئنين، وأخذوا يستريحون بعد السير فى الرمال من الإسكندرية إلى رشيد. وانتشروا فى شوارع المدينة والأسواق للعثور على أماكن يلجئون إليها ويستريحون فيها، وما كادوا يستريحون حتى انطلق نداء الآذان بأمر محافظ المدينة "على السلانكى" من فوق مئذنة مسجد سيدى زغلول مردداً: الله أكبر. . حى على الجهاد. فانهالت النيران من الأهالى وأفراد حامية رشيد من نوافذ المنازل وأسطحها، فقُتل جنود وضباط من الحملة وهرب من بقى حياً وبلغ عدد قتلى الإنجليز،١٧٠ قتيلاً و ٢٥٠، جريحاً، و١٢٠ أسيراً لدى حامية رشيد، وفى ٢١ أبريل ١٨٠٧ تم هزيمة القوات الإنجليزية مرة أخرى فى مدينة الحماد، بعد أن سقط مئات القتلى والجرحى منهم. ومن هنا يتبين أن النصر فى معركة رشيد يرجع إلى الأهالى الذين احتملوا معظم أعباء الجهاد والثورة ضد الإنجليز، وأبلوا أحسن البلاء فى الدفاع عن المدينة.(٢٧٦)

فأرسل فريزر إلى المماليك يطلب منهم المساعدة ولكنهم لم يستطيعوا مساعدته بعد أن تفرقت كلمتهم ومات زعيمهم محمد الألفى فرأى فريزر أنه من العبث مواصلة القتال فتحصن بالإسكندرية، وأرسل إلى محمد على يطلب الصلح فى مقابل أن يجلو عن الإسكندرية فى تلك الأثناء كان محمد على يستعد للزحف على الإسكندرية. سار محمد على بجيشه من معسكره فى إمبابة متوجها إلى الرحمانية ومنها إلى دمنهور فى ١٢ أغسطس عام ١٨٠٧، وهناك التقى بالجنرال شربروك الذى فوضه فريزر لإبرام

٢٧٦- أحمد عبد الرحيم مصطفى وآخرون: كفاحنا ضد الغزاة، ص ٢٦٧.

الصلح بين الطرفين المصرى والبريطانى. وبعد مفاوضات قصيرة عقد الطرفان معاهدة دمنهور فى ١٤ سبتمبر عام ١٨٠٧ والتى بمقتضاها جلت القوات البريطانية عن الإسكندرية، ثم أقلعت السفن البريطانية بما تبقى من جنود الحملة إلى صقلية، وضمت الإسكندرية إلى محمد على بفرمان سلطانى بعد أن كانت تتبع مباشرة السلطان العثمانى وحاكمها يعين من قبله.[٢٧٧]

"حكامنا وأعداؤنا . . إيد واحدة " التاريخ بيقول كده

كان محمد على يؤمن بفكرة الحكم المطلق مثل العثمانيون ولكنه قلد الفرنسيون فى وضع نظام الدواوين الاستشارية التى تساعده فى خطته الإصلاحية ولم يفصل بين السلطة التشريعية والتنفيذية، ويروى لنا التاريخ استبداد محمد على فى التعامل مع المخالفين له فى الرأى والفكر، فكان يستعين بالجيش للتخلص من خصومه، وكان يستعين بمن يستميله من الأحزاب لسحق حزب آخر ثم يستدير على من كان معه فيتخلص منه، وعلى ذلك حتى فسد بأس الأهالى وخمدت روح الثورة فيهم.

عضد من استبداده أسلوبه فى التعامل مع الأجانب، فقد أعلى كعبهم وأغدق عليهم الوظائف ووهب لهم المكانة الاجتماعية حتى ضعفت نفوس الأهالى وتمتع الأجنبى بحقوق المواطن التى حرم منها، وهكذا اجتمع على المصرى ذل الحكومة الاستبدادية المطلقة من ناحية وذل إذلال الأجانب لهم من ناحية أخرى.

أضف لذلك أن إصلاحات محمد على كانت فى مجملها موجهة ناحية الجيش والأغراض العسكرية ولم تكن موجهة ناحية الأمة

---

(٢٧٧) أحمد زكريا الشلق: تطور مصر الحديثة فصول من التاريخ السياسى والاجتماعى، ص ١٩٩.

المصرية، فقد اعتنى بالطب والهندسة لأجل الجيش حتى البعثات العلمية كانت من أجل خدمة أغراضه وبذلك قتل الحرية الفكرية لدى الشعب. ولم تبد من الشعب فى خلال السنين السبع والثلاثين التى قضاها محمد على فى الحكم أية روح للمعارضة ؛ بحيث أن المقاومة لهذا الحاكم التركى لم تخرج عن حيز الهرب من الجندية ولو بإتلاف الأبصار والأطراف، والهجرة من الأرياف إلى الصحراء أو إلى الشام، وتخريب الآلات الزراعية وإهمال الزراعة.

ومهد حكم محمد على لقيام الحكم الخديو المطلق، وفى ركابه نظام إقطاعى يرتكز على أخلاط غير مصرية : من أتراك وشركس وأرمن وأوربيين وبقايا مماليك، واحتكر الجميع لأنفسهم مغانم الحكم والمراكز المهمة فى الدولة، وقامت بينهم روابط من التساند لمواجهة الشعب الذى خضع تحت حكم أسرة محمد على لامتداد الظلم الذى رزح تحته دهوراً طويلة من قبل، وما لبث أن زاد من أثقال كاهله عبء آت من أوربا التى تأثرت فى النصف الأخير من القرن التاسع عشر بالانقلاب الصناعى، وتدفق عل البلاد (الرأسماليون) ورجال الأعمال وأصحاب الشركات، كما تدفقت عليها الجاليات الأوربية على اختلاف أجناسها، وتولدت فيها مصالح ومشروعات أوربية منوعة ساندتها الحكومات الأوربية، ولم يفعل الولاة من أسرة محمد على شيئاً جدياً لدفع أخطارها ؛ بل على الضد نجدهم يمهدون لها سبيل التغلغل بضعفهم وترددهم وميلهم السطحى إلى الغرب. . وأضحت التركيبة السياسية برمتها تركيبة مغرورة استعلائية لا تستمع لأنات المصريين ومعاناتهم ولا تلتفت للفساد والخراب الذى انتشر بكل ألوانه فى مصر، بل كل ما يشغل بالهم هو تسخير مقدرات المصريين لخدمة طبقة طفيلية

طفت على السطح، زادت ثراءً وتوحشا وتغولاً، مستغلين فساد الحكم لتفصيل القوانين والامتيازات التى تحمى فسادهم وتكرس استئثارهم واحتكارهم للسلطة، وثروات البلاد لخدمة نزواتهم.. ووجود عنجهى وعنيد فاسد فى السلطة هو ضمانة لبقاء تلك الفئة فكيف لصلاح مصر أن يخرج من رحم كل هؤلاء؟!.

علاقة محرمة. . يحاكمها التاريخ

وبدت العلاقة غير الشرعية بين السلطة والمال فى عهد محمد على وأسرته قريبة الشبه مما عاشته مصر قبل الخامس والعشرين من يناير حين حرصت الحكومة المصرية المقالة برئاسة نظيف أن لا تنفى صفة "رجال الأعمال"، معتبرة أن تلك التسمية لا تعنى إساءة وإنما تحدد الهوية الاقتصادية للوزراء العاملين بالإنتاج والخدمات الاقتصادية.ا!كان هذا الحرص لافتا ومؤكدا من جانب الحكومة ذاتها التى أعلنت أن الهدف تحقيق تواصل صحيح مع الناس فكانت تجسد ما عرف بزواج السلطة بالمال، وهو زواج أفرز العديد من مظاهر الفساد فكانت السبب الأبرز فى إشعال ثورة المصريين ضد حكم رئيس عنيد وكانت سببا رئيسيا لإشعال نار الغضب فى الشارع المصرى، وربما كانت المسمار قبل الأخير فى نعش نظام استحق وعن جدارة لقب (الديكتاتورية والاستبداد) وشواهد التاريخ تؤكد أن القائد الذى يتخذ العناد والغرور والكبر أسلوب ونهج للتعامل مع شعبه لا يستحق أن يُطلق عليه لقب قائد، ولا العناد من صفات القادة بل هى صفة تلازم الديكتاتوريين وفاقدى العقل الحريصين بغباء سياسى طيلة عقود ثلاثة ألا تبرز للساحة العامة أى شخصيات تكون محل التفاف وحب وثناء الجماهير ,وسرعة تغييبها إذا تحقق لبعضها شىء من ذلك مع استمرار وازدياد وتسارع

الاحتكار السياسى والاقتصادى والجمع بين السلطة والثروة وسيطرة رأس المال على مقاليد الحكم ومقاعد الوزارات والمجالس النيابية وذلك للثقة فى ارتباط هذه الطبقة بالوريث، وأضحى الاستبداد والفساد قرينا التوريث.

نفس المشهد تكرر - من قبل - فى عهد محمد على الذى أسس لفكرة التوريث فى مصر، وظل يناوئ ويهادن السلطان العثمانى حتى انتزع منه ولاية مصر له ولأبنائه وبعدها أسس لفكرة الحكم الأسرى فى مصر وهذا ما خلق فكرة الفرق بين الحاكم والمحكوم وأصبحت فكرة المساواة غير متخيلة. ناهيك بقصة حفر قناة السويس والديون وغير ذلك مما دل على أن الأوربيين جميعاً قد عمدوا إلى إقامة مصالحهم فى البلاد على أشلاء شعبها وميزانيتها فى الوقت الذى تميز فيه أولاد محمد على بالإسراف والبعد عن الاهتمام بمصالح الشعب الحقيقية.[٢٧٨]

وهنا كان لابد من أن يتحرك الشعب من جديد ليبدأ ثورته ضد الطغيان متمثلاً فى زواج غير شرعى بين السلطة والمال. وشق الشعب المصرى فى عهد خلفاء محمد على طريقاً مفروشاً بالأشواك، كان يتطور تطوراً طبيعياً بطيئاً على الرغم من مختلف العراقيل التى استدعاها تفضيل العناصر الأجنبية عليه فى عقر داره، وكانت بذور القومية المصرية بمعناها الحديث قد ألقيت فى عصر محمد على نفسه حين وضعت نواة الجيش الأهلى، وتشكل التعليم الوطنى، وبدأت تبرز الدواوين والإدارات الجديدة، وتقوم المالية الإنشائية والوزارات المختلفة، وإدخال التعليم الحديث وإرسال البعثات وترجمة الكتب وفك طلاسم اللغة الهيروغليفية،

---

(٢٧٨) أحمد عبد الرحيم مصطفى وآخرون: كفاحنا ضد الغزاة، ص ٢٧٨.

وكشف معالم تاريخ البلاد القديم ونشر ما كتبه الأوربيون عن مصر والمصريين، ساهم فى خلق وعى يربط ما بين المصريين وبلادهم، وأوحى بآمال جديدة مستقاة من روح الثورات الأوربية التى انتقل إلينا تاريخها وأثرها فيما نقلته إلينا حركة الترجمة، ثم كان ازدياد الضرائب فى عصر إسماعيل وخاصة تدخل الأوربيين فى شئون البلاد الداخلية مما زاد فى السخط وحرك النفوس إلى ضرورة التصدى لكل هذه الشرور.(٢٧٩)

ثار المصرى على هذا المشهد البائس ورفض الاحتكار والظلم، وثار عليه وتمرد وقاومه بكل طرق المقاومة التى يحترفها، وجرب الثورة والمقاومة جهراً وجرب المكر والخداع ولم يترك سبيلاً من سبل المقاومة إلا طرقه دفاعاً عن حقه وكرامته وحريته ففى مواجهة نظام احتكار محمد على وأسرته لم يكتف المصرى بنظام التخريب الشخصى وحده أو بالمقاومة السلبية دون سواها، إنما خطر بباله ونفذ المقاومة جهراً والثورة لأنها تتفق وطبعه وأصالته وقد فعل كل ذلك من تلقاء نفسه لم يوعظ بها إليه أحد فكان له دوره الإيجابى فى إضعاف نظام الاحتكار وتخريبه من داخله وهو عامل أخطر بكثير من كل العوامل التى اجتمعت على النظام من الخارج هادفة إسقاطه أو الإجهاز عليه(٢٨٠) حتى بدت إرهاصات الثورة المصرية بزعامة عرابى.

لقد خلقنا الله أحراراً.. ثورة تهز الدنيا

الحالة التى عاشها المجتمع المصرى فى عهد محمد على تدعو إلى الدقة والتأمل، وبدون دراسة تفصيلية لتلك المرحلة لن يستطيع

(٢٧٩) المرجع السابق، ص ٢٨٠.

(٢٨٠) أحمد محمد حسن الدماصى: الاقتصاد فى القرن التاسع عشر (ج١ الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٩٤م)، ص ٢٦٧.

الباحث من تفسير الثورة المصرية بقيادة عرابى وإدراك نزعاتها القوميّة والاجتماعية والأدوار الثورية التى لعبتها والتى قام بأدائها زعماء مختلفو الآراء والمشارب الثقافيّة، فقد بات من المؤكّد وكما تشير المصادر التاريخية وتنطق به كتابات عصر النهضة أن هذه الثورة كانت قد قامت على أكتاف أبناء الريف وقبل أن تصبح لسان حال المصريين بمدنهم وأريافهم، كانت قد وجدت لها إرهاصات ومقدمات فى الريف، ومهدّت لها انتفاضات سبقتها وتمردات، اصطبغت جميعها بصبغة اجتماعية ونثرات قوميّة ونزعات وحدويّة، واضحة المعالم... ولكم كانت تحمل توقاً إلى التخلص من الطغيان..١..

وأمام الاستبداد الداخلى والتدخل الخارجى تألفت جمعية فى حلوان من الناقمين على سياسة رياض اشتهرت باسم الحزب الوطنى وكانت مطالبها التى أعلنتها فى أول بيان سياسى لها فى ٤ نوفمبر ١٨٧٩ م كالتالى:

١- أن تعاد إلى الحكومة المصرية جميع أملاك الخديوى وأملاك الأسرة

٢- إلغاء قانون التصفية

٣- تكوين إدارة مراقبة وطنية بديلة للمراقبة الثنائية الأجنبية يكون فيها ثلاثة من الأجانب تعينهم الدول الأجنبية وتوافق عليهم الحكومة المصرية.

و لقد حاول رئيس الوزراء وقتئذ رياض باشا معرفة أفراد الحزب لنفيهم إلى السودان، ولكنه لم يستطع.

كما تأسست جمعية أخرى فى الإسكندرية عرفت باسم مصر الفتاة أصدرت جريدة بنفس الاسم وطالبت الخديو بالحريات العامة.

إن هذه النزعات تفصح عن وعىّ حيناً وعن غير وعىّ حيناً آخر، ولكنه من الثابت عنها رفضها المطلق لنظام محمد على وأسرته الذى أوقع الريف المصرى بأسوأ أنواع الطغيان الذى نال الجميع منه كؤوساً مترعة من الذل والهوان.(٢٨١)

يستعرض نزيه حمزة نقلاً عن أحمد صادق سعد دور القوى الشعبية فى النضال المرير منذ بداية حكم محمد على، ويذكر عدداً من الهبّات المسلحة المثيرة استقاها من مصادر عربية قدم عهدها ولم تطبع مرّة أخرى أو لم تترجم، يقول: إن الصور العنيفة للتحرك الشعبى والتى وجدناها فى ظل الحملة الفرنسية تتكرر فى عهد محمد على، ففى دسوق وفى عام ١٨٠٧ ذبح الجنود المجاورين فى المسجد، وفى عام ١٨١٢ ثار الريف فى وجه الجباة والعساكر فأحرقت الحكومة قرى عديدة وقتلت سكّانها، وفى عامى (١٨٢٠-١٨٢١)، نجح رجل فى محافظة قنا فى تعبئة أربعين ألف رجل واجه بهم الحكومة وعيّن حكاماً من أتباعه وفرض ضرائب على المنطقة التى وقعت تحت سيطرته ولقد دامت ثورته نحو شهرين، وفى القاهرة نفسها أضربت الدكاكين عام ١٨٢٣ احتجاجاً على ضريبة المنازل، وفى قرى المنوفية احتجّ الناس على عمليات التجنيد الإجبارى، غير أن مدفعية الميدان سحقت حركة الاحتجاج هذه بين عامىّ (١٨٢٣-١٨٢٤).

وفى عام ١٨٢٤ تمرّد الناس ضدّ الجباة، وفى منفلوط وفى عام ١٨٣٨ تمرّدت كتيبة الفرسان ورفضت محاربة متمردين على القرعة، وفى عامى (١٨٤٦ -١٨٣٩) قام الأهالى بعدد من التمردات فى أسيوط وفى منطقة الأرز شمال الدلتا الشرقيّة والمنيا.

---

(٢٨١) عمرو عبد العزيز منير: الشرقية بين التاريخ والفولكلور، ص١١٦ .

كانت الانتفاضة المهدويّة أكبر حركة مسلّحة انطلقت من الصعيد وشملت مناطق عديدة منه وكان قد تزعمها رجل اسمه أحمد بن إدريس عام ١٨٢٤ فقد صرخ يحتج على الظلم وجمع حوله مريدين وأنصاراً، والتف حوله ساخطون وغاضبون على القرعة العسكرية، ووصل عدد أتباعه إلى ثلاثين ألف رجل، وليس هذا فحسب فقد التحق بحركته سبع مائة جندىّ فرّوا من الجيش النظامى إلى جانب كتيبة فى أسوان انضمت والتحقت بالثوّار مع كتائب أخرى استولت على مراكب من النيل قاتلت قوّات الحكومة وقُتل مائتان من الجند المتمردين، لقد سحقت قوّات تركية وبدوية هذه الثورة وذبحت آلافاً من الفلاحين، وأعدمت العشرات من صف الضبّاط والجنود الذين انضموا إلى الشعب كما أحرقت قرى عديدة.

إلى جانب هذه الانتفاضات كانت هناك عمليات تخريب عزيت جميعها إلى أسباب احتجاج على حكم محمد على وامتد لهيبها إلى المدن والجيش والمصانع، فأشعل العمّال فى أسيوط النار فى مصنع النسيج، وفى عام ١٨٢٤ شبّ حريق فى مخزن البارود بالقلعة وصل عدد الضحايا فيه إلى المئات، وفى عام ١٨٢٦ انفجر جزء من معمل البارود فى الروضة، وفى السنة نفسها انهارت القناطر المحمودية وكان قد أشيع أن الفلاحين قد خربوها، وفى عامى (١٨٢٩-١٨٣٠) حدث تخريب فى ترسانة الإسكندرية بتحريض من عمّال أجانب، وفى عام ١٨٣٤ احترقت الفرقاطة المصرية فى ميناء الإسكندرية بدوافع تخريبية، هذا إلى جانب أعمال فردية أخرى من السطو وقطع الطرق فى الريف والصحراء، والاعتداء على مخازن حكومية جوبهت جميعها بعقوبات قاسية طالت قرى بأكملها..

ثمة أشكال سلبية أخرى للنضال الاجتماعى، فقد تكررت حوادث الهروب من الأرض واتسع نطاقها، حيث أخذ الفلاحون يهربون إلى بلاد الشام وتركيا ومن الريف إلى المدينة، وبالإضافة إلى ذلك فقد كان أبناء الريف يعمدون إلى تشويه أيديهم وأرجلهم وخلع أسنانهم، وتتحدث المصادر التاريخية عن عمليات سمل عيون الأطفال واتخاذ أسماء نسائية للرجال، كما يروى حوادث هروب إلى المدافن والمستنقعات للإفلات من القرعة أو التعذيب، ومالنا نبتعد كثيراً، فالتاريخ يروى لنا أنه من أسباب حملة محمد على على سوريا القبض على ستة آلاف فلاح مصرى كانوا قد هربوا إلى بلاد الشام.

كان الظلم والجزع وعدم إشراك المصريين فى إدارة البلاد دوافع أساسية لهذه الانتفاضات فى وقت لم يكن فيه تأثير أوروبى أو قدوم الأفغانى وراء كل شىء فى مصر كما يرى باحثون ومؤرخون يرغبون أن يروا كل شىء قادماً من الغرب أو وافداً من الخارج، وبذلك تكون التأثيرات الأوروبية قد لقيت مناخاً وقبولاً، ويكون الأفغانى أيضاً قد وجد أرضاً خصبة مهيأة لبذر بذوره الثورية، ومهما يكن من أمر فما أن جاء منتصف القرن التاسع عشر حتّى سيطرت على الأهالى رغبة عارمة فى ضرورة الإصلاح والتغيير على اختلاف الدواعى والبواعث كانت تدفع للبحث عن الوسيلة.[٢٨٢]

إذن كانت مقاومة الطغيان عميقة الجذور فى المجتمع المصرى وفى الريف منه خاصة، وقد شكّلت هذه الانتفاضات خلفية ثورية للثورة المصرية ولأحزابها السياسية التى بدأت تعبّر عن نفسها فى

---

(٢٨٢) للمزيد انظر/ نزيه حمزة: عبد الله النديم سيرة عطرة وحياة حافلة (اتحاد الكتاب العرب، دمشق ٢٠٠٠م)، ص ٧٧ ـ ٩٠.

النصف الثانى من القرن التاسع عشر على خلاف ما ذكره لوتسكى الذى قرأ تاريخنا وغفل عن كثير من تفاصيله من أنه لم يجرؤ الفلاحون عبر الأجيال على رفع أصواتهم ضد أسيادهم إلى أن جاء عرابى وحفزّهم على التمرد والمقاومة الأمر الذى لم يدر بخلد الفلاحين حتّى ذلك الحين. فى الوقت الذى يجىء فيه صدور كتاب (رسالة الكلم الثمان) للشيخ الأزهرى حسين المرصفى رداً على تلك الاتهامات والذى يعد وبحق من الكتب الأمهات فى علم الدلالة السياسى وقد أصدره الشيخ المرصفى عام ١٨٨١م، عندما كانت الثورة المصرية "العرابية" على الأبواب، والصراع محتدما بين القوى الوطنية المصرية، وبين الخديوى توفيق ومن معه من الأجانب ولا شك انه قد تأثر بالأحداث السياسية فى عصره، وكان تعبيرا عن حلقة من حلقات مشروع النهضة المصرية مثلما كان متعالقاً مع نصوص عديدة سبقته فى نفس السياق.

مجد على ضفاف الوادى

وبالرغم من الركود السياسى والاقتصادى الذى اتصفت به الحياة فى ريف مصر خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر الميلاديين، فما من شك فى أن الأحداث التاريخية التى مر بها الريف المصرى كانت سلسلة متلاحقة متتابعة فى حركة ديناميكية لا تتوقف، ولذلك فلا يمكن من الناحية التاريخية فصل الأحداث التى مر بها فى ثورة ١٩١٩م عن تلك التى مر بها خلال فترة الحرب العالمية الأولى (١٩١٤ -١٩١٨م) عن أحداث فترة الاحتلال البريطانى (١٨٨٢- ١٩١٤م) بل عن أحداث ما قبل عام ١٨٨٢م.

ثورة ١٩١٩م. كان النتيجة المتوقعة لسياسات بريطانيا الاقتصادية والاجتماعية والسياسية قبل وخلال فترة احتلالها لمصر حتى نهاية

الحرب العالمية الأولى، تلك التصرفات التى نجمت فى الأصل عن تحول أوربا إلى النمط الرأسمالى، وانطلاق الرأسمالية الصناعية فى جميع أنحاء العالم ومنها مصر، وتغلغل النفوذ الأجنبى بمقدرات البلاد فى ظل فساد الحكم ورعايته.[٢٨٣] بيد أننا نلاحظ أنه منذ عهد الخديو إسماعيل (١٢٧٩ - ١٢٩٦ هـ/١٨٦٣ - ١٨٧٩ م) سرى فى البلاد نوع من اليقظة والوعى، وذلك لانتشار الصحف والمجلات، ولتعاليم جمال الدين الأفغانى، ونشاط تلاميذه، وكان للمصرى نصيب منها، ووجد المصريون فى عرابى الأمل الذى يرتجى،[٢٨٤] فى ظل نظام قمعى كرس للفساد والاستبداد فعاشت البلاد حالة تراجع منظومى وحضارى على كل صعيد سياسى واقتصادى واجتماعى وقيمى، وعاد بالوطن والشعب إلى الوراء مسافات كبيرة احتاجت إلى عقود طويلة لتصحيحها وتداركها.

وكان لخطورة الدور الذى قام به المصريون فى الثورة أن عزمت سلطات الاحتلال على تصفية قوتهم والعمل على إضعافهم. بل إن ما قاموا به قد أفزع كبار ملاك الأرض. ولذا وجدوا من مصلحتهم التعاون مع سلطات الاحتلال حفاظًا على مصالحهم[٢٨٥].. ومن ثم رأت بريطانيا أن تعتمد على طبقة كبار ملاك الأراضى الزراعية فى تثبيت دعائم وجودها فى مصر، وأن تربط مصلحتهم بمصلحتها.

(٢٨٣) عانى الفلاحون بمصر من تعسف الوجود الأجنبى مثل الخواجة فاكلودى جورج المقيم بناحية فاقوس بمديرية الشرقية الذى كان يستأجر ٣٥٠ فدانًا من أراضى الناحية ويقوم بتحصيل إيجارات أعلى بكثير مما كان يحصل منهم من ذى قبل انظر:على شلبى: الريف المصرى ٣٢٥ .

(٢٨٤) لطيفة محمد سالم، القوى الاجتماعية فى الثورة العرابية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٨١ ص٢٩٧ .

(٢٨٥) محمد محمود السروجى، الجيش المصرى فى القرن التاسع عشر، دار المعارف، ١٩٦٧، صص ٥٢٧- ٥٥٦.

وبدأت تلك السلطات بتصفية كاملة للثورة فى الريف المصرى، فاعتقلت من الفلاحين ما يربو على ٢٩. ٠٠٠ نسمة.[٢٨٦]

كما قامت السلطات بفصل حوالى ٢٥٠ من صغار ضباط الجيش من أبناء المصريين، وجردوهم من رتبهم جزاء عصيانهم - وبدأت تخيم على البلاد فترة من الظلام فى أعقاب فشل الثورة، ونفى وسجن وتشريد القائمين بها.

زلزال فى عابدين!!

ونظرا لتعارض مصالح هذه الطبقة مع مصالح السواد الأعظم من الفلاحين فقد آثرت سلطات الاحتلال الوقوف إلى جانب كبار ملاك الأرض فى أحيان كثيرة مضحية بجموع الشعب. وهنا ظهر التناقض واضحا بين أقوال هؤلاء المحتلين وتصرفاتهم الفعلية، فأدرك المصريون خداع المحتلين فكان لا بد من قيام الثورة المصرى[٢٨٧] بقيادة أحمد عرابى[٢٨٨] ؛ بهدف إحداث تغيير جذرى فى مختلف نواحى الحياة السياسية والاجتماعية والاقتصادية بعد التخلص من النفوذ الأجنبى فى البلاد ولكن انتهت أحداثها بانفراد بريطانيا باحتلال البلاد عام ١٨٨٢م، ذلك الاحتلال الذى دام ٧٤ عاما.

---

(٢٨٦) المصدر السابق، ص٥٨٨.

(٢٨٧) انظر الرافعى: الثورة العرابية والاحتلال الانجليزى، (ط١، النهضة، القاهرة ١٩٣٧م)، ص ـ ص ١٥٦، ٤٩٢، ٤٩٤، ٥٠٥.

(٢٨٨) ولد أحمد عرابى زعيم الثورة العرابية فى ٧ صفر سنة ١٢٥٧ هجرية (نوفمبر ١٨٤١ بقرية "هرية رزنة من أعمال مركز الزقازيق" وعائلته عريقة النسب متعددة الفروع، وأقدم فروعها عائلة "المقالدة" الموجودة بالخطارة الصغرى من أعمال مركز فاقوس، رحل عرابى عن الحياة فى ٢١ سبتمبر سنة ١٩١١ م، وقد وضع قبل وفاته مذكرات عن الثورة العرابية سماها "كشف الستار عن سر الأسرار"؛ انظر عمرو عبد العزيز منير: الشرقية بين التاريخ والفولكلور (دار الإسلام، المنصورة ٢٠٠٥م)، ص ٧٨.

كانت البداية في يوم مشهود من أيام مصر وتحديداً في يوم الجمعة ٩ سبتمبر ١٨٨١م. تفجرت الثورة ثورة الشعب المصرى ضد الحُكم المستبد والوجود الأجنبى ممثلاً فى الخديو الذى يملك من السلطات مالا يقيده نظام أو شرع. . . . متمثلا فى ضرب الفلاحين ونزع الملكيات والضرائب. . إلخ. وتحدى الشعب لظالميه معبراً عن غضبته، وثبت لدى الجميع أن فى مقدور الحركة الوطنية عمل شىء ذى أهمية، فزحف عرابى ووراءه أربعة آلاف جندى يسير خلفهم بضعة آلاف من أبناء القاهرة المدنيين، ولمّا كان عرابى يخشى على المؤخرة من التلاشى والتراخى كلّف النديم بحمايتها، وفى وصف حىّ لهذا اليوم قال عرابى فى مذكراته: " وجاء صديقى الأعز الهمام. . صاحب الغيرة والعزم القوى. . السيّد عبد الله النديم.. ينادى بين الصفوف: وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما، فإن بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التى تبغى حتى تفىء إلى أمر الله فكان معى ثانى اثنين فى حفظ القلوب من الزيغ والارتجاف.. وأخذ الكل يردد هذه الآية كأنهم لم يسمعوها إلا من فمه فى تلك الساعة"(٢٨٩)

وقف عرابى شاهراً سيفه على جواده وعرض مطالب الشعب فى مواجهة الخديو والقنصل البريطانى "كوكس"، قال : " جئنا يا مولاى لنعرض عليك طلبات الجيش والأمة كلها وهى عزل وزارة رياض باشا –وتشكيل مجلس النواب –وزيادة عدد الجيش"، فأنكر الخديو على عرابى طلباته كلها وقال له " أنا ورثت ملك هذه البلاد من أبائى أجدادى وما أنتم إلا عبيد إحساناتنا"

(٢٨٩) نزيه حمزة: عبد الله النديم سيرة عطرة وحياة حافلة، ص ٦٤.

وتحداه عرابى وقال قولته المشهورة التى اهتز لها قصر عابدين - لقد خلقنا الله أحراراً ولم يخلقنا تراثاً أو عقاراً فوالله الذى لا إله إلا هو إننا سوف لا نورث ولا نستعبد بعد اليوم".(٢٩٠) ولم يبرح الجيش ساحة عابدين حتى سقطت حكومة رياض وشُكّلت حكومة رضى عنها الوطنيون.(٢٩١)

أصر المجلس الذى تألف أثناء الثورة فى نهاية عام ١٨٨١م على حقه فى تقرير الميزانية مما كان من نتيجته إسقاط وزارة شريف - التى تألفت بعد يوم عابدين - فى فبراير ١٨٨٢م. وتولى البارودى رئاسة الوزارة فصدر الدستور متضمناً حق المجلس فى تقرير الميزانية فى ٧ فبراير سنة ١٨٨٢م. وكان من أهم المناقشات التى دارت فى اجتماعات المجلس فى دور انعقاده الوحيد هو ما اقترحه أمين بك الشمسى (جلسة١٥ فبراير ١٨٨٢م) بالعمل على الحد من غلاء الأسعار وأسعار الغلال وذلك بمنع تصديرها للخارج ,وقرر المجلس إخطار نظارة المالية لتتخذ فيه العلاج اللازم(٢٩٢) كما اقترح أمين بك الشمسى بتنظيم أعمال السخرة فى الأعمال العامة ومطالبة الحكومة بوضع قانون فى هذا الشأن.(٢٩٣)

---

(٢٩٠) أحمد عرابى: مذكرات عرابى كشف الستار عن سر الأسرار فى النهضة المصرية المشهورة بالثورة العرابية فى عامى ١٢٩٨ و١٢٩٩ الهجريتين، وفى ١٨٨١ و١٨٨٢ الميلاديتين، (ط٢ ، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة ٢٠١١م)، ص ٨٨.

(٢٩١) تحتفل الشرقية بعيدها القومى فى ٩ سبتمبر من كل عام إحياء لذكرى وقفة ابنها الزعيم أحمد عرابى (من قرية هرية رزنة مركز الزقازيق) ضد الخديو توفيق بميدان عابدين بالقاهرة عام ١٨٨١م.

(٢٩٢) جريدة الوقائع المصرية أول مارس ١٨٨٢م.

(٢٩٣) راجع على شلبى: الريف المصرى فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر (الطبعة الأولى، دار المعارف، القاهرة ١٩٨٣م) ص٤٢٢.

وطالما دعا عرابى ذاته إلى إزالة الظلم الذى حاق بالمصريين فى الماضى، بل إن أحد الضباط (صقر أفندى دهب) خاطب الفلاحين فى نواحى الزقازيق والزنكلون وقال لهم :"إن الأرض التى يمتلكها الأثرياء من حقكم أنتم"[٢٩٤] وفى أولى مهامه التى انتدبته لها الحركة الوطنية المصرية، انطلق النديم إلى الريف المصرى ليقيم جسوراً بين الثورة التى نضجت فى المدن وبين الفلاحين الذين كانوا يعيشون حالة غليان وانتفاضات على حكم الأسرة المالكة، فوصل إلى القصى البعيد من البلاد وطاف الأرجاء والأصقاع يندد باستبداد الخديوى ورئيس وزرائه ويبيّن عيوب الحكّام ويدعو إلى إقامة حكومة دستورية يتساوى فيها المصريون والأتراك، وتتمكن البلاد بواسطتها من الوقوف فى وجه المد الأجنبى، وفى الجولة ذاتها دعا إلى الالتفاف حول الجيش وتأييد ضبّاطه العرب لأنهم قد تبنوا بالفعل مطالب الشعب وإلغاء الضرائب عن كاهل الفلاح المصرى، وعن هذه المهمة قال النديم فى مذكراته السياسية: "أعلنت حب العسكر والتعويل عليهم وناديت بانضمام الجموع إليهم وأوغلت فى البلاد ونددت بالاستبداد وتوسعت فى البلاد وعنيت مثالم الحكّام الظّلام لا أعرّفهم إلا بالجهلة الأساقل ولا أبالى بهم وهم ملء المحافل".[٢٩٥]

وإذا كانت هذه العبارات التى وردت على ألسنة بعض خطباء الثورة قد جمعت صفوف الفلاحين من صغار الملاك والمعدومين حولها، فإنها باعدت بينها وبين الأعيان وكبار التجار وجعلتهم يتوجسون خيفة من مواصلة تأييدها بل ذهب البعض منهم إلى حد خيانة الثورة.

---

(٢٩٤) على شلبى: الريف المصرى ، ص٤٣١.

(٢٩٥) نزيه حمزة: عبد الله النديم، ص٦٦ .

ففى أعقاب الثورة المصرية قبض محمد سلطان ثمن خيانته فمنحه الخديو توفيق عشرة آلاف جنيه، كما أنعم عليه بالنيشان المجيدى من الدرجة الأولى، وأنعمت عليه ملكة انجلترا بوسان سان ميشيل وسان جورج الذى خوله لقب "سير". كما قبض عرب الهنادى بالشرقية ثمن خيانتهم، فأقطعهم الخديو خمسة آلاف فدان فى رأس الوادى، مكافأة لهم على الدور - المؤسف - الذى قاموا به فى مساعدة الجيش البريطانى على احتلال البلاد.(٢٩٦)

رأى المصريون فى عرابى محرراً لهم من ظلم كبار الملاك والأتراك والشراكسة، فهو المصرى الوحيد الذى استطاع أن يقف بنجاح ضد الطبقة الحاكمة من الأتراك والشراكسة ويروى البعض أن الثورة المصرية سنتى (١٨٨١م - ١٨٨٢م) التى اصطلح العُرف على تسميتها بالثورة أو الحركة "العرابية" بما فى ذلك من تضييق لنطاق شعبيتها الواضحة،(٢٩٧) غمز من ناحية أخرى بأنها كانت مقصورة على فئة معينة، بينما شواهد التاريخ تؤكد أنها كانت حركة مصرية وطنية بحتة هدفها تحرير المواطن المصرى وأنها كانت موجهة قبل كل شئ ضد حكومة الأتراك والشراكسة.(٢٩٨) وحظيت الثورة بتأييد شعبى عارم، وشقّت صفوفها فى الطرقات والدروب الترابية التى تنساب بين أكواخ الطين، وانحدر الفلاحون إلى القاهرة واكتظت الشوارع بهم حاملين إلى الخديوى الشكاوى من اضطهاد السلطات لهم على نحو لا يطاق، وكذلك فى المدن عمّ الاستياء بين التّجار واشتدت المعارضة؛ لفرض الضرائب عليهم وعلى أصحاب الحرف رغم كساد التجارة وبوار الصناعة، وفى

---

(٢٩٦) عبد الحمن الرافعى: الثورة العرابية والاحتلال الانجليزى ط ٣، ص ٤٩٤.
(٢٩٧) أحمد عبد الرحيم مصطفى وآخرون: كفاحنا ضد الغزاة، ص٢٩٧ .
(٢٩٨) على شلبى: الريف المصرى، ص ٤٣٢.

صفوف الموظفين وبين الفئات الحاكمة كان يسود عدم الرضى فقد أرهقت الديون الجميع، وهكذا عمّت مصر الاتجاهات المعارضة،[٢٩٩] ودافع الشعب عن نفسه وعن ثورته وسع طاقته كما يبدو من المواقف الآتية التى نوردها على سبيل المثال لا الحصر:

التوكيل.. منذ عهد عرابى

كانت أول مشاركة عامة للمصريين فى الثورة هو (تختيم) محاضر بتوكيل عرابى للدفاع عن البلاد (مثلما حدث فيما بعد فى ثورة ١٩١٩م حيث ظهرت حملة التوكيلات لتوكيل سعد زغلول للتحدث باسم مصر) بعد قبول الخديو للمذكرة المشتركة الثانية واستقالة وزارة البارودى (وزارة الثورة) وهى الفترة التى شهدت قدراً من القلق والاضطراب. وكان عبد الله النديم ملهم الثورة المصرية هو الذى قام بتوجيه عرابى للحصول على تلك المذكرة المشتركة والدفاع عن حقوق الفلاحين، وأطلق على هذه التوكيلات (المحضر الوطنى) واتخذه عرابى دليلاً على إنابة الأمة له.[٣٠٠]

وفى هذا المجال قام أحد الفلاحين بالشرقية "بتختيم" فلاحى السخرة العاملين فى ترعة الشرقاوية على محاضر بخلع الخديو نفسه وعدم رغبة الأهالى فيه .وهى محاضر طبعت فى القاهرة وقام بنقلها إلى الشرقية أمين بك الشمسى (رئيس تجار الزقازيق) والشيخ محمد الهجرسى.[٣٠١] كما شهدت المنوفية حركة شعبية مماثلة ويبدو أن توقيع هذه المحاضر كان يتم فى مناطق تجمعات

---

(٢٩٩) نزيه حمزة: عبد الله النديم سيرة عطرة وحياة حافلة، ص ٦٦.

(٣٠٠) على الحديدى: عبد الله النديم خطيب الثورة الوطنية، القاهرة دون تاريخ، ص١٤٢ .

(٣٠١) على محمد محمد بركات: تطور الملكية الزراعية فى مصر وأثره على الحركة السياسية ، القاهرة ١٩٧٧م ، ص٤٢١.

الفلاحين فى عملية سد فم الرياح بمركز أشمون حيث تم تختيم محاضر مماثلة كان نص أحدها: "نحن عمد ومشايخ وأهالى مركز أشمون بالأصالة عن أنفسنا وعن أهالى بلادنا أنه لما سمعنا باللائحة المتقدمة فى حق الوطن المجحفة بحقوق دولتنا العلية وحقوقنا الوطنية حصل لنا قلق واضطراب وضنك شديد وموكلين فى المدافعة عنا أحمد عرابى".[٣٠٢] ويبدو أن توقيع هذه المحاضر كان جزءاً من روح عامة سرت فى جسد الأمة لتأييد الثورة وإضفاء الشرعية على مواقف عرابى فى مواجهة الخديو.

وحين وجد عرابى خزانة الدولة خاوية، قام المصريون من كافة الشرائح والطبقات بتقديم ما يلزم للقوات العسكرية تبرعاً من جانبهم، وشملت هذه التبرعات أصناف الحبوب المختلفة من قمح وفول وشعير وبصل وعدس وغيره، والخيول المواشى والدجاج وعلف الماشية والأخشاب. . فضلاً عن التبرعات المالية بمبالغ مختلفة قام بها الأعيان وكافة المصريين أقباط ومسلمين وغيرهم.[٣٠٣]

وفى أثناء المعارك فى منطقة القناة والشرقية أرسل عرابى يطلب كل أبناء القبائل العربية القادرين على حمل السلاح للتوجه إليه برأس الوادى. وعلى ذلك فقد شاركت القبائل إلى جانب جيش الثورة فى المعارك التى دارت أثناء القتال، وبرغم الدور المؤسف الذى قام به أحد أبناء قبيلة الهنادى بالشرقية،[٣٠٤] فإن بقية قبائل العرب فى مصر قامت بدور إيجابى فى الدفاع عن بلدهم مصر.

---

(٣٠٢) على شلبى: الريف المصرى، ص ٤٣٣.
(٣٠٣) على شلبى: الريف المصرى، ص ٤٣٤.
(٣٠٤) جريدة الأخبار بتاريخ ١٤/ ٢٠٠٦/١٠م السنة ٥٥ العدد ١٦٩٩٩ عن مقالة بعنوان "نحو النور – كيف انتصرت الخيانة.. فى معركة التل الكبير؟" بقلم الأستاذ: سمير عبد القادر.

وهاجم بعض فلاحى قرية الكفر القديم بالشرقية محلات ثلاثة من الأجانب واستولوا على ما بها من سلاح وذهبوا به إلى التل الكبير بعد أن اخطروا عنها ناظر الجهادية[٣٠٥] وتطور الأمر إلى أبعد من ذلك فيما بعد فطرحت قضية تسليح الفلاحين من قبل قادة الثورة فى تلك المناطق حيث كان من المحتمل نزول القوات البريطانية فيها فاشترك ألفان من المصريين فى حراسة بحيرة المطرية ووضع هذا التخطيط موضع التنفيذ فأرسلت لهذا الغرض ٢٠٠٠ بندقية إلى عبد العال حلمى الذى تولى توزيعها على العمد والفلاحين المكلفين بالحراسة، ومما يؤكد ذلك أنه وجدت لدى بعض العمد والمشايخ أعداد كبيرة من الأسلحة عند القبض عليهم فى أعقاب الثورة.[٣٠٦]

معارك بلا ضحايا

وقد واجه انصار الثورة الوطنية بعد الإخفاق إجراءات عنيفة ضدهم فمنهم من صودرت أملاكه وحرم من حق امتلاك أى أملاك فى الديار المصرية سواء بطريق الإرث أو الهبة أو الشراء، مع بيع أملاكهم وتخصيص ثمن البيع لسداد تعويضات من أضيروا من الثورة، ومن هؤلاء أحمد عرابى ومحمود سامى البارودى وعلى فهمى ويعقوب سامى وعبد العال حلمى وطلبة عصمت وعوقبوا أيضاً بالنفى لجزيرة سيلان. ومنهم من حددت إقامته فى بلده تحت رقابة البوليس مع دفع تامين مالى كبير.

رحلة العذاب، طويلة مريرة، خاضها كل صاحب حق، وفكر، والقائمة طويلة منذ رفاعة الطهطاوى الذى نفى إلى السودان، إلى

(٣٠٥) على بركات: مرجع سابق، ص٤٢٥.
(٣٠٦) على بركات: المرجع السابق، ص ٤٢٨، ٤٢٩.

الأستاذ الإمام محمد عبده، والشاعر المجدد محمود سامى البارودى اللذين ألقيا فى السجن خلال الثورة المصرية بزعامة عرابى، وتتابعت الفترات ودخل أصحاب الرأى السجون أفواجاً . .
فالسنن الكونية أثبتت أنه لابد من الصراع بين الظالم والمظلوم، وبين الدعوات الجديدة والأنظمة القديمة . أو حتى الجديدة . وإن فرض السمع والطاعة يخالف السنن الكونية، وقوانين التاريخ الاجتماعى، ولابد فى كل حين من قاتل ومقتول، ومن سجان وسجين وبغير هذا لا يقوم نظام، ولا يتألف مجتمع بشرى!. .

وقانون الغابة . قانون الصراع الدائم . يحكم الكون كله، من أعظم المجرات إلى أصغر نملة تدب على الأرض، فالصراع لن يتوقف فى الكون كله لحظة واحدة، وإن كان ممكنًا "ترشيده" فى المجتمع، والفساد لن ينتهى، وإن كان ممكنًا الالتفاف حوله، وكسر ضراوته وتقليل حجمه.

صياح الجلاد!

ولكن هل سكت هذا الشعب يوماً عن طلب حقوقه أو عن السعى إليها؟

إنه لم يسكت أبداً. . . ظهرت حركات وطنية تهدف لإنهاء الاحتلال واتخذت طرقاً عدة، فقامت جمعية سرية باسم جمعية الانتقام تهدف إلى تحرير الوطن باغتيال الإنجليز، ولكن مالبث أن قضى على أفرادها فى وقت قصير.

كما تأسست جريدة العروة الوثقى على يد جمال الدين الإفغانى والشيخ محمد عبده لمهاجمة الاحتلال، كما تأسست جريدة المؤيد فى إطار الجامعة الإسلامية.

فى بداية الاحتلال منع أعوان الاستعمار دخول جريدة "العروة الوثقى" التى كان يصدرها السيد جمال الدين الأفغانى والشيخ محمد عبده بباريس من دخول مصر. . ومع ذلك كنت تجد هذه الجريدة فى بيوت الكثير من أحرار المصريين يطالعون فيها المقالات المستفيضة ضد السياسة الاستعمارية.

كذلك قام النظام السياسى الفاسد بإيعاز من الاحتلال بإلغاء جريدة الوطن فى ١١ من مارس سنة ١٨٨٤م، وإلغاء جريدة مرآة الشرق بقرار من مجلس الوزراء فى٢٥ من مارس ١٨٨٦م، وجريدة الزمان فى٢٩ من يوليو ١٨٨٦م. هكذا كان السلطة السياسية فى مصر تعامل ألسنة الحق التى تعبر عن رأى الشعب وأحاسيسه.

وفى أول ديسمبر سنة ١٨٨٩م. ظهرت جريدة المؤيد لصاحبها السيد على يوسف، وكانت سياستها وطنية، وكان ظهورها من العوامل المهيئة لتطور الحركة الوطنية.

وفى عام ١٨٩٢ م، تجددت المعارضة الشعبية للاحتلال بظهور مجلة "الأستاذ" للسيد عبد الله النديم ملهم الثورة الشعبية ١٨٨١م. . . ولكن الاستعمار لم يتحمل حملات هذه الجريدة الوطنية فأمر بنفى السيد عبد الله النديم وتعطلت جريدة الأستاذ عن الصدور منذ عام ١٨٩٣م.(٢٠٧)

العشق الرومانسى لمصر

وجاء مصطفى كامل بعد الاحتلال بسنوات قليلة، فقاد نهضة وطنية كبرى. .

(٢٠٧) محمود فتحى عمر: ٢٣ يوليو (الدار القومية للطباعة والنشر، سلسلة كتب قومية، العدد ٢٥٥ ، القاهرة د-ت)، ص ٤١.

إنه هو الذى قال: "لو انتقل فؤادى من الشمال إلى اليمين أو تحولت الأهرام عن مكانها المكين لما تغير لى مبدأ ولا تحول لى اعتقاد بل تبقى الوطنية رائدى ونبراسى ويبقى الوطن كعبتى ومجده غاية آمالى".(٣٠٨)

مصطفى كامل يكاد يكون أول وآخر زعيم سياسى قدم ما يشبه (النظرية) فيما يتعلق بقضايا السياسة والحكم، وهو ما تكشف عنه كتاباته ومقالاته العديدة فى جريدة اللواء أو التى صدرت فى صورة كتب مؤلفة، والتى يذكر منها برنارد لويس كتاب الشمس المشرقة والذى قدم فيه اليابان كنموذج لدولة شرقية استطاعت أن تجدد نفسها بنفسها.

مصطفى كامل إذن كان يعد من المنظرين السياسيين بالرؤية المصرية الخالصة، ولم تكن نظرته شيفونية أو تعصبية ؛ بل كان أكثر الصفوات استنكاراً للفكر المتعصب خاصة بين المسلمين والمسيحيين فى مصر إذ كانت مصر (المتحدة) أحد أحلامه الكبرى والتى ظهرت بصورة جلية ببرنامجه الثورى.(٣٠٩)

والواقع لقد كانت حركة مصطفى كامل أول حركة أرقت نفوس المستعمرين، فلقد تبين منها أن الاستعمار لم يقض على روح الثورة والكفاح بين المصريين. . بل أن هذه الروح قد تأججت تأججاً شديداً عندما كان مصطفى كامل يخطب فى كل مكان وهو يقول :"بلادى بلادى لك حبى وفؤادى لك حياتى ووجودى، لك دمى

---

(٣٠٨) جريدة اللواء فى١٧ من مايو سنة ١٩٠٦م ؛ نقلاً عن / محمود فتحى عمر: ٢٣ يوليو، ص ٤٢.

(٣٠٩) عاطف أحمد فؤاد: الزعامة السياسية فى مصر عرض تاريخى وتحليل سسيولوجى، (ط١، دار المعارف، القاهرة ١٩٨٠م)، ص ١١١.

ونفسى، لك عقلى ولسانى، لك لبى وجنانى، فأنت الحياة ولا حياة إلا بك يا مصر". من هنا تكمن عبقرية مصطفى كامل فى قدرته على تقديم فكر ثورى جديد فى ملامحه، عميق فى أبعاده، رومانسى فى طرحه، يجمع بين الحماس الوطنى من جانب والفكر السياسى محدد الملامح، متميز الهوية من جانب آخر.(٢١٠)

وتجئ حادثة دنشواى فى يونية ١٩٠٦ م.(٢١١) كواحدة من فظائع المعتمد البريطانى اللورد كرومر فى مصر. استغلت الإدارة البريطانية هذه الحادثة لإظهار قسوة شديدة ترهب الحركة الوطنية الصاعدة. فأحالت ٥٢ فلاحاً للمحاكمة وانتهت المحاكمة إلى الحكم بشنق أربعة منهم ومعاقبة ١٢ بالأشغال الشاقة المؤبدة وجلد خمسة.

وينطلق مصطفى كامل للتنديد بالحادثة وبالاحتلال فى كل من مصر وأوروبا، فقامت إنجلترا بسحب اللورد كرومر فى أبريل ١٩٠٧م وعينت جرورست Sir Eldon Gorst معتمداً بريطانياً خلفاً له فى مصر.

كما هاجمت صحيفة اللواء التى أنشأها مصطفى كامل رئيس الوزراء المصرى بطرس باشا غالى لموالاته للإنجليز وإصداره أحكام بالإعدام والجلد فى حادثة دنشواى، مما أهاج المصريين ضده حتى

---

(٢١٠) عاطف أحمد فؤاد: الزعامة السياسية فى مصر، ص ١٠٧.

(٢١١) تعد حادثة دنشواى فى يونية ١٩٠٦ م آخر فظائع المعتمد البريطانى اللورد كرومر فى مصر. وتتلخص الحادثة فى أن بعض الضباط الإنجليز خرجوا لصيد الحمام بالقرب من قرية دنشواى، إحدى قرى المنوفية. فحذرهم الأهالى أن اقتراب البارود من أجران القمح يمكن أن يشعل حرائق كبيرة. و لكن الضباط الإنجليز لم يهتموا. فحدث أن أخطأت إحدى طلقات البنادق فأصابت امرأة وقتلتها. فهاج الأهالى على الضباط وطاردوهم، حتى أصيب أحد الإنجليز بضربة شمس ومات.

قام شاب اسمه إبراهيم الوردانى باغتياله عام ١٩١٠م أثناء خروجه من مقر رئاسة الوزراء،و تم القبض على الوردانى وحكم عليه بالإعدام. وتعد حادثة اغتيال بطرس غالى هى الثانية فى تاريخ مصر الحديث بعد اغتيال كليبر، ثم تتابعت حوادث الاغتيال السياسى فى تاريخ مصر الحديث والمعاصر.

أدرك مصطفى كامل ضرورة تنظيم الجهود الوطنية بعد حادثة دنشواى فأنشأ نادى المدارس العليا والحزب الوطنى فى ديسمبر ١٩٠٧، وأصدر طبعتين إنجليزية وفرنسية من جريدة اللواء للقارئ الأوروبى.

توفى مصطفى كامل فى ١٠ فبراير ١٩٠٨م وهو فى الرابعة والثلاثين من عمره، وخلفه فى زعامة الحزب الوطنى محمد فريد.. نعم لقد مات مصطفى كامل مبكراً، ولكن ترك من بعده حزباً.. هو الحزب الوطنى، كما تـرك من بعده رجالاً على رأسهم محمد فريد.(٢١٢)

لا للوصاية على الشعب المصرى

بدأ محمد فريد زعامته بداية شعبية.. كانت الجمعية العمومية للحزب الوطنى قد تقدمت فى مارس ١٩٠٧م. إلى الحكومة مطالبة بإنشاء مجلس نيابى فردت الحكومة فى ٨ من فبراير سنة ١٩٠٨ مقائلة :"ترى الحكومة أن الوقت لم يحن بعد لتشكيل مجلس نواب يرجى منه النفع العام!! الذى ينتظر من المجالس النيابية ولكنها تشتغل الآن فى توسيع اختصاص مجالس المديريات!!".

(٢١٢) محمود فتحى عمر: ٢٣ يوليو، ص ٤٤.

نجحت الحكومة وقتئذ فى استنفار مشاعر الغضب لدى المصريين بكلامها عن عدم أهلية الشعب المصرى للديمقراطية!. وهو كلام طالما سمعناه أيضاً من نظام الرئيس السابق مبارك ولمسنا ما اتسم به رجال نظامه من غطرسة وتعالٍ وتكبر، فى الوقت الذى لم يجد الناس فيهم أى مبرر للتعالى أو التكبر. كانوا يعاملون الشعب وكأنه يتكون من قُصّر عديمى الأهلية، شديدى الغباوة، ومن ثم يستحقون ما هم فيه من فقر ومهانة.

رئيس الوزراء (د. نظيف) يصدر عنه مرة تصريح. معناه أن الشعب المصرى ليس مؤهلاً للديمقراطية،[٢١٣] وهو كلام مضى وقت طويل على آخر مرة تجرأ فيها حاكم فى أى بلد على أن يصف بها شعبه. إلى أن حدث الانفجار الذى لابد أن من بين أسبابه غضب الناس من هذه الدرجة من التعالى واللامبالاة فالناس لا يجدون من بين الرجال القائمين على هذا النظام من يتمتع بذكاء غير عادى أو حكمة نادرة أو كفاءة منقطعة النظير فى إدارة هذا البلد، والمصريون يعرفون جيداً، أن بلادهم مملوءة بمن يستطيع أن يدير شئونها على نحو أكثر كفاءة وأقل فساداً، فكيف لا يشتد غضبهم حتى يؤدى بهم إلى انفجار من نوع ما حدث فى ٢٥ يناير؟. . . ولكن كعادة الأنظمة المنتهية الصلاحية. . ظهر النظام وكأنه مصمم على التعامل مع الشعب بنفس التعالى، واللامبالاه، وكأن المتظاهرين، الذين ضحى مئات منهم بحياتهم قد قاموا بالمظاهرات لأنهم لم يجدوا شيئاً آخر (يسلّون) أنفسهم به. ولكن لا شئ يمكن أن يرد به رجال النظام عن تكبرهم وتعاليهم حتى وإن مات الشعب كمداً مثلما مات مصطفى كامل من ذى قبل.

---

(٢١٣) جلال امين: مصر والمصريون فى عهد مبارك، (ط١ ، دار الشروق، القاهرة ٢٠١١م)، ص ١١.

بعد هذا الرد بيومين مات مصطفى كامل فما أن تولى رئاسة الحزب الوطنى محمد فريد حتى رأى فى رد الحكومة إهانة للبلاد، فأعد الحزب الوطنى عرائض لتقديمها إلى الخديو بطلب إنشاء المجلس النيابى، وقد أقبلت الأمة على هذا المشروع عن طيب خاطر إقبالاً شعبياً، وقد بلغ عدد الموقعين على الفوج الأول من العرائض حوالى ٤٥٠٠٠ شخص، ثم تلاها الفوج الثانى منها وعليها ١٦٠٠٠ توقيع.

وقد حنق الاحتلال على هذه الحركة الشعبية الجارفة وحاول إحباطها لكن الشباب تعاونوا فى متابعتها وتظاهروا فى مصر وطنطا ,وكانت هذه المظاهرات هى النبضة الأولى لقلب مصر بعد أن خفتت منذ عام ١٨٨٢م عام الاحتلال البريطانى.

محمد فريد والجهر بحب مصر

وتحرك الشباب والطلاب المصريون فى أوربا على عهد محمد فريد فعقدوا مؤتمراً للشبيبة المصرية فى جنيف فى سبتمبر ١٩٠٩م. وقد نظم هذا المؤتمر محمد فهمى، وعلى الشمسى، ومحمد لطفى جمعة، ومحمد سامى كمال، وحامد العلايلى، والأمير العطار، وحلمى سليم، وعثمان فايد، والدكتور سيد مرعى. . وقد قرر هذا المؤتمر الاحتجاج على الاحتلال البريطانى والمطالبة بالجلاء والدستور.

ولجأ محمد فريد إلى وسائل آخرى لزيادة الوعى لدى الشعب، فعمل على توسيع دائرة نشاط الحزب الوطنى بحيث لا تقتصر عضويته على المثقفين من أبناء المدن، بل إنه عمل على ضم النقابات العمالية إلى الحزب، كما أسهم فى تكوين نقابة عمال

الصنائع اليدوية عام ١٩٠٩م، كما عمل على تثقيف عامة الشعب وتعليمهم فى مدارس ليلية.

ولكن جورست المهادن مات فى ١٩١١م، وخلفه كتشنر الذى أعاد سياسة القبضة الحديدية والحكم المطلق، فعادت سياسة انجلترا ومطاردة الوطنيين.

وحدث أن كتب محمد فريد مقدمة لديوان شعر بعنوان "وطنيتى" للشاب الوطنى على الغاياتى فقدم للمحاكمة بسبب العبارات الوطنية الواردة فى المقدمة وسُجن محمد فريد لمدة٦ أشهر.[٣١٤]

وأخذت السلطات الإنجليزية تتعقبه فى كل تحركاته، واعتقلته مرة أخرى عام ١٩١٢م، فآثر محمد فريد الخروج من مصر فى ٢٦ مارس ١٩١٢م ليواصل نضاله ضد الاحتلال البريطانى فى المحافل الأوربية إلى أن مات فى برلين فى خريف ١٩١٩م.

خليل عفيفى. . شرقاوى فى ألمانيا!!

وفاة محمد فريد وحيداً خارج مصر. . دفع (الحاج خليل عفيفى) التاجر بالزقازيق أن يسافر إلى ألمانيا ويتولى بنفسه وعلى نفقته الخاصة نقل رُفاته إلى مصر[٣١٥]، وقد وجد الحاج خليل عفيفى أن الأمراء والزعماء وأعضاء الحزب الوطنى لم يفكروا فى تنفيذ أمنية الزعيم محمد فريد كى يدفن فى تراب مصر وتساءل

(٣١٤) محمود فتحى عمر: ٢٣يوليو، ص ٤٥.
(٣١٥) عبد الرحمن الرافعى، محمد فريد، رمز الإخلاص والتضحية، ط٤ ، دار المعارف، ١٩٨٤، ص ٤١٩. وانظر:الطحاوى سعود: الخيول العربية فى أعين عرب الطحاوية ,مجلة الفنون الشعبية ، العدد ٦٦،٦٧ القاهرة ٢٠٠٤ م.

كيف يليق بالأمة أن تترك زعيمها البار بها بعيداً عن أحضان أمه الرؤوم مصر بعد أن جاهد بماله وحياته فداءً وحباً لمصر وتراب مصر، فباع كل ما يملك واستطاع أن يجمع ٥٠٠٠ جنيه وسافر إلى ألمانيا سنه ١٩١٩م، حينما وصل ألمانيا أصيب بالتهاب رئوى لمدة ٣ شهور وعلم الزعيم سعد زغلول بمرض الحاج خليل عفيفى وكان فى ذلك الوقت بإنجلترا فأرسل له طبيبه الخاص (حامد محمود) ليشرف على علاجه واستطاع الحاج خليل عفيفى الحصول على أذن من الحكومة الإنجليزية لنقل جثمان محمد فريد إلى مصر ورفضت ألمانيا فكرة نقل الجثمان لأن القوانين الألمانية كانت تمنع نقل الجثث خارج ألمانيا، فجأة مات ضابط فرنسى فى ألمانيا وطلبت فرنسا من ألمانيا بصفة استثنائية نقله إلى فرنسا ووافقت الحكومة الألمانية.

اغتنم خليل عفيفى تلك الفرصة وطالب بنفس الاستثناء، وانتقل الجثمان فى موكب مهيب فى يوم ممطر إلى القطار وشارك فى الجنازة أعداد كبيرة من الطلاب المصريين والعرب بألمانيا، ووضع الحاج خليل صندوق جثمان محمد فريد فى غرفته بالسفينة ونام بجواره باعتباره مغنماً وطنياً.

وفى مصر استقبلت مصر رفات ابنها وشهيدها محمد فريد فى جنازة مهيبة فى الإسكندرية وأخرى فى القاهرة، كان الحاج خليل عفيفى موضع تقدير من الجميع، قام الأمير عمر طوسون رئيس لجنة استقبال الجثمان وأهداه خاتمه. ودفن الزعيم محمد فريد فى مقبرة بجوار السيدة نفيسة وتم نقل الجثمان مرة أخرى سنة ١٩٥٣م لكى يدفن بجوار الزعيم مصطفى كامل ليظل حياً فى قلب ووجدان مصر.

عودة الروح. . من المنفى الأخير!!

فهل آن الأوان أن يعود (عبد الله النديم) إلى حضن الوطن الذى أعطاه النديم كل قطرة من دمه وكل لمسة من عبقريته؟ ألم يحن الوقت لكى نسترجع رفات رجل دافع عن الاستقلال السياسى والاقتصادى للوطن أمام التدخل الأجنبى والاحتلال العالمى ممثلاً فى انجلترا بالتحالف مع قوى أخرى. ، فإذا كان البارودى شاعر السيف والقلم/ فالنديم بلا شك مجاهد بالقلم فى عصر كثر فيه الطغيان وعلا فيه الظالمون وكادت إرادة الشعب تسحق لولا بقية من إيمان بأن دولة الظلم فانية ودولة الحق باقية.

النديم ذلك الروائى القصاص كاتب المنشورات السياسية والكاريكاتيرات اللاذعة - داعية الثورة وشاعرها وملهمها ولسانها الشعبى- استطاع أن يؤرق الاحتلال والمتعاونين معه وهو يجوب مصر متخفيا من دار إلى دار، احتضن مصر فاحتضنه المصريون، وأينعت ثمرته فإذا هو الآن يجد نفسه إزاء هذا الجمع من محبيه العارفين بفضله وهم ينادون بعودة جثمانه إلى مصر ليستقر فيها.. لأنهم يعرفون قيمة بطلهم النديم الذى كان خطيبهم وكاتبهم وشاعرهم وممثلهم ومضحكهم ومبكّتهم فشالوه فى أعينهم، بعيداً عن أعين العسس وهم مصرّون على حمايته وتمكينه من استكمال مسيرة الثورة بعيداً عن أعين الأعداء. ولا يجب أن نكون نحن أقل تقديراً للنديم الذى فتح طاقة الحرية لوطن محتل أيام كان الجهر بالحق لا جزاء له إلا القتل أو النفى والتشريد، وقد نال النديم العقابين الثانى والثالث، فنفى وشرد ومات غريبا وحيدا عن وطنه وكأنى به يبكى وحدته وغربته وكربته.

الأمم العظيمة هى التى تصل ماضيها بحاضرها لتعبر منهما إلى المستقبل، ولعل أحد أهم مشكلاتنا فى مصر المعاصرة أن من يعمل بجد واجتهاد يعد التكريم ضربا من النوادر إن لم تكن المستحيلات، أما الأمم المتوثبة المتقدمة فتحرص على تكريم أبنائها المجتهدين حتى تشيع روح العمل بين الناس، فتنتقل الأمة بكاملها من اليأس إلى الرجاء.

فلنكرم رموز الماضى تكريما عملياً لا نقتصر فيه على التذكر، بل نتعداه إلى التفكر، ولا يقف جهدنا عند التعرف إلى مكان دفن النديم بل إلى العمل على أن يعود إلى مصر، كنا غرباء فى وطننا فأصبحنا أحراراً. . وحق على من نادى بالحرية منذ مائة عام أن يجد راحته فى وطنه الحر.

"الله حى، عباس جى"

قامت الحرب العالمية الأولى عام ١٩١٤ م، وكان الإنجليز يريدون حشد موارد مصر لخدمتهم فى الحرب لذلك وجدوا أن عباس حلمى لن يساعدهم فى ذلك، فانتهز الإنجليز وجود عباس حلمى خارج مصر فى تركيا وسارعوا بإعلان انفصال مصر نهائياً عن الدولة العثمانية وإعلان الحماية البريطانية عليها وإسناد الحكم إلى عمه حسين كامل أخو توفيق ولقبوه بلقب سلطان ، ولم تخمد روح الشعب، ولم يخمدها الحكم العسكرى الذى فرض على البلاد وقتئذ. لقد قام الحكم العسكرى باعتقال الكثيرين فى السجون ونفى البعض الآخر إلى مالطة وأوربا.

حفلت سنوات حكم السلطان حسين كامل (١٩١٤-١٩١٧م) بعدم الاستقرار، وذلك بسبب الرفض الشعبى للحماية البريطانية على

مصر ونزعها من الخلافة العثمانية، هذا الرفض الشعبى الذى تمثل فى عدة محاولات لاغتيال السلطان حسين كامل والعديد من وزرائه، وأيضاً بسبب محاولات العثمانيين المتكررة اقتحام قناة السويس وطرد البريطانيين من البلاد سنة ١٩١٥م، مما أعطى الأمل للمصريين فى عودة الخلافة العثمانية والخديوى عباس حتى انتشرت الأهزوجة الشعبية " الله حى، عباس جى ".

فاعتدى تاجر خردوات من المنصورة اسمه محمد خليل على السلطان حسين بان أطلق عليه عياراً نارياً أخطأه وحكم عليه بالإعدام ونفذ الحكم فى ٢٤ إبريل ١٩١٥م.[٢١٦]

كذلك ألقيت قنبلة على السلطان حسين وهو فى موكبه بالإسكندرية، واتهم فيها محمد نجيب الهلباوى، ومحمد شمس الدين، وحكم عليهما بالإعدام شنقاً إلا أن الحكم خفف بعد ذلك إلى الأشغال الشاقة المؤيدة، كذلك اعتدى أحد الشبان الوطنيين على إبراهيم فتحى وزير الأوقاف فى ٤ سبتمبر ١٩١٥م إذ طعنه الشاب صالح عبد اللطيف الموظف بوزارة المالية بخنجر عدة طعنات جرحته جروحاً بليغة فى كتفه وقد نفذ فى هذا الشاب حكم الإعدام شنقاً فى ٣ أكتوبر ١٩١٥م.[٢١٧]

وجاءت ثورة ١٩١٩م

---

(٢١٦) محمود فتحى عمر: ٢٣يوليو، ص ٤٦.
(٢١٧) المرجع السابق، ص ٤٧.

الفصل الخامس

المصرى المسلم ثائر ومعه شريكه المسيحى

تعتبر المظاهرات والمسيرات الشعبية، هى البوتقة التى انصهر فيها حمية النضال وحماس الثوار، فقد خرج المتظاهرون فى اليوم التالى لاعتقال سعد زغلول، خرجوا بأعداد كبيرة، بدأت بطلاب المدارس، ثم تزايدت فى الأيام التالية من شهر مارس، لتشمل كل فئات وطوائف الشعب المصرى، لا فرق فى ذلك بين غنى وفقير، صغير أو كبير، رجل أو امرأة، مسلم أو مسيحى. فالكل فى الثورة واحد، ولا أحد يذكر غير مصر، ومالبث شرارة الثورة أن انتقلت من القاهرة إلى الإسكندرية ثم مدن وقرى الوجه البحرى فمدن وقرى القبلى، فقد انتقلت شرارة الثورة بسرعة فائقة كما تنتقل النار فى هشيم هش سريع الاشتعال، فالثورة ثورة شعبية شاملة، نابعة من إحساس مصرى أصيل، ووطنية فائقة وحماس زائد من أجل بلوغ الهدف ونيل المراد.

وهدف الثورة والثوار استقلال مصر حرية البلاد، وكان سعد زغلول ملهم الثورة وقائد المسيرة رمزاً للكفاح ومثلاً للتضحية والنضال جاء اعتقاله صدمة للأمانى الوطنية، وجرح غائر عند كل مصرى ومصرية، ومن ثم خروجهم للنضال والكفاح لتفجر الثورة قوية عارمة، وابتدأت المظاهرات سلمية هادئة تردد شعارات وطنية مطالبة بالإفراج عن سعد وصحبه، ودوت هتافات الشعب صداحة عالية لتملأ سماء مصر معبرة عن الإصرار وروح الفداء، ومن ذلك ترديدهم شعار "الاستقلال التام أو الموت الزؤام"، "نموت وتحيا مصر" إلى غير من تلك الهتافات التى تلهب الحماس، وتدفع الثورة قدماً إلى الأمام فى تحد وإصرار.

وكان انفجار الثورة على هذا النحو مفاجأة لسلطة الاحتلال، ولم يكن فى تقديرهم أن اعتقال سعد زغلول وصحبه سيصل بالأمور إلى هذا الحد وبقدر ما كانت المفاجأة، بقدر ما كان عنف التصدى ومواجهة الثورة، وأصبح جيش الاحتلال وقواده فى جانب، والشعب فى ثورته من جانب آخر، والتقيا فى صدام عنيف مروع، صدام أحد أطرافه شعب أعزل من السلاح خرج يدافع عن حريته وكرامته وحقه الوطنى فى نضال سلمى مشروع. وطرفه الآخر جيش الاحتلال بأعداده الكبيرة وقواده العظام، وقد تسلحوا بأسلحة متطورة حديثة، من بنادق آلية ومدافع رشاشة، ودبابات مدرعة، حتى الطائرات استخدموها فى ضرب المظاهرات، كما استخدموا المراكب النيلية المسلحة للوصول إلى الأماكن النائية والتى انقطعت عنها المواصلات. وأصبحت الصورة وكأن جيش الاحتلال فى معركة عظمى من معارك الحرب العالمية وأخذ القادة فى التخطيط ودراسة الأسلوب الأمثل لقمع الثورة وقهر الثوار، مهما سالت دماؤهم وكثرت تضحياتهم.

وكانت الخطة ما إن تبدأ المظاهرات، إلا وتخرج قوات وجنود السلطة الإنجليز فى تعقب الثوار ويحيطون بهم من كل اتجاه، ومع شرارة حادث واحد، ينهال جنود السلطة على الثوار ضرباً بالرصاص الحى، ويحصدون الأعداد الكبيرة منهم، فيسقطون مدرجين فى دمائهم بين قتلى وجرحى، لتنسال تلك الدماء عطرة ذكية تشهد للثوار بالشرف والكرامة، وتسطر بحروف من نور أسماءهم فى سجل البطولة والفداء.

الثوار فى الميدان

ولم يرهب الثوار رصاص الإنجليز ومدافعهم الحديثة، ولم يرهبهم أيضاً رؤية أبطالهم يتساقطون الواحد تلو الآخر قتلى وجرحى، بل يخرجون فى الأيام التالية فى إصرار كامل بغية التصدى والانتقام والأخذ بثأر شهدائهم وأبطالهم، وكأن حوادث القتل تدفع بعضها بعضاً نحو مزيد من العنف فمزيد من تزايد أعداد القتلى والجرحى وفى بعض المعارك وصل عدد الشهداء المئات فى معركة واحدة - كما حدث فى مجزرة بدو وثوار الفيوم - كما وصل عددهم فى معارك أخرى بالعشرات - مثل مجزرة منيا القمح أو ميت القرش أو أسيوط - وكل هذه الأعداد الكبيرة كانت تتساقط فى كل معركة وإن تفاوتت من واحدة إلى أخرى. وأخذ المتظاهرون ينقلون قتلاهم بالجملة على نقالات جماعية، كما استخرجت تصاريح الدفن بالجملة أيضاً، وكان الموقف ارتباك وسوء حال.[٣١٨]

---

(٣١٨) نبيل عبد الحميد سيد أحمد: شهداء ثورة ١٩١٩م، (الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٨٤م)، ص ٥.

وهى مشاهد لم يسبق لها مثيل، وإن كانت أشبه بما حدث يوم ٢٦ يناير ٢٠١١ م حين اشتبكت قوات الأمن مع آلاف المصريين الذين رفضوا مغادرة ميدان التحرير إمعانا فى الاحتجاج على حكم انتهت صلاحيته، حيث استخدمت العصى وقنابل الغاز والقنابل المسيلة للدموع" وخراطيم المياه لتفريق المتظاهرين، وأعلنت وزارة الداخلية أن قوات الأمن ألقت القبض على زهاء ٥٠٠ متظاهر على مدى اليومين. واستمرت المظاهرات فى القاهرة وزادت الاحتجاجات بمدينة "السويس" حدة بعد أن انضم للثوار الشيخ حافظ سلامة" القائد التاريخى لقوات المقاومة الشعبية فى حرب أكتوبر ١٩٧٣م. فى صباح "جمعة الغضب" يناير ٢٠١١م، عندما قام نظام مبارك بقطع وسائل الاتصالات اللاسلكية (الهاتف المحمول/الموبايل) والإنترنت لمنع تنظيم المظاهرات وتواصل الجماهير الغاضبة.

ورغم ذلك خرجت مئات الآلاف من مختلف المساجد عقب صلاة الجمعة" متجهين صوب "ميدان التحرير" فضلاً عن عديد من المدن المصرية؛ منها "الإسكندرية، والسويس، والمنصورة، والإسماعيلية، ودمياط، والفيوم، والمنيا، ودمنهور، ومحافظة الشرقية، وبورسعيد، ومحافظة شمال سيناء. أدت إلى استشهاد ما لا يقل عن ٨٠٠ شخص وإصابة أكثر من ألف بعد قيام الشرطة المصرية بالاعتداء على المتظاهرين فى شتى أنحاء مصر، وكان النصيب الأكبر من الشهداء فى هذا اليوم بالإسكندرية حيث استشهد ٨٧ شهيدا، ثم السويس ١٣ شهيداً.

الأمر الذى أدى لفشل قوات القمع الشرطية مع مرور الوقت فى التعامل مع المتظاهرين حيث انسحبت الشرطة من جسر كوبرى

قصر النيل بالقاهرة وانتصر المتظاهرون على رموز القهر وحماية الفساد[٣١٩] ولم يبق إذن إلا الخيول والجمال التى يقودها مجموعة من المأجورين الذين اعتادت وزارة الداخلية استخدامهم لضمان تزوير الانتخابات، وإرهاب القضاة الذين يحاولون مقاومة هذا التزوير، ولكن حتى هذا العمل الممعن فى حقارته لم يسفر إلا عن عدد كبير من القتلى والجرحى، دون أن يجبر الشباب على ترك مواقعهم فى ميدان التحرير أو أى ميدان آخر.[٣٢٠]

المشهد لم يكن بعيداً كذلك فى ثورة مصر سنة ١٩١٩م، فلم يترك جنود الإنجليز أحداً فى المظاهرات إلا وأطلقوا عليه الرصاص فقتلوا الشيوخ والنساء والأطفال، ناهيك عن قتلهم للثوار الأبطال وقد بلغ تقدير عدد القتلى وشهداء ثورة ١٩١٩م. ، نحو ثلاثة آلاف قتيل هذا بخلاف عدد كبير من الجرحى والمشوهين.

ولم تكتف سلطة القمع الاستبدادى للإنجليز بقتل الثوار، بل ما لبثت أن أقامت محاكم عسكرية إنجليزية لمحاكمتهم، فحكمت على كثير من الثوار بأحكام الإعدام ونفذ الحكم فى أعداد منهم شنقاً ورمياً بالرصاص، وصدرت أحكام أخرى بالأشغال الشاقة المؤبدة والجلد والغرامة، وفى كل هذه الأحكام واجه الثوار الذل والمهانة، وفظاعة الانتقام فى تحد وإصرار.[٣٢١]

ولم يستكن الشعب فى ثورته أو يتراجع عن قضيته فمثلما زادته حوادث قتل الثوار إصراراً، زادته أحكام المحاكم العسكرية عناداً

---

(٣١٩) نقلاً عن الموسوعة الحرة ويكيبيديا: التسلسل الزمنى لثورة ٢٥ يناير.

(٣٢٠) جلال أمين: مصر والمصريون، ص ١٦.

(٣٢١) نبيل عبد الحميد سيد أحمد: شهداء ثورة ١٩١٩م، ص ٧.

وإصرارًا. وكان الشباب فى طليعة الثوار فقد كان يعرف ما يريد، ولما لا؟ فشباب الأوطان فى الغالب لا يضلون الطريق.

تعظيم سلام لهؤلاء الأبطال

وللشباب طريقة مباشرة فى العمل لا يعرفها غير الشباب. . وحين تعيد النظر فى ملف ثورة ١٩١٩م تجد أن رؤية الشباب الساذجة المباشرة كانت أوضح من رؤية الشيوخ، وهذه الرؤية أنارت الطريق وأزالت كثيراً من العقبات التى وضعها الشيوخ فى الطريق. ولكى نفهم هذا نعود إلى تتبع مشاهد براقة فى ثورة الشعب المصرى.[٣٢٢]

فى صباح الأحد ٩ مارس أضرب طلاب كلية الحقوق والهندسة والزراعة وخرجوا فى مظاهرة من الجيزة إلى شارع قصر العينى حيث تقابلوا مع طلبة الطب والتجارة العليا وفى ميدان السيدة زينب قبض على الكثيرين واقتادهم رجال الشرطة برياسة وكيل الحكمدار الضابط آرشر الإنجليزى إلى المحافظة. وفى الطريق انضم إليهم طلبة التجارة المتوسطة ودار العلوم ومدرسة القضاء الشرعى والإلهامية الثانوية وغيرها من المدارس.. وحدثت معركة فى الطريق.. إلا أنها لم تسفر عن شهداء.

وفى اليوم التالى أضرب جميع طلبة المدارس والأزهر ولما مر المتظاهرون بشارع الدواوين أطلق الجند طلقات نارية على المتظاهرين وسقط أول شهيد فى الثورة المصرية وهو ابن الأستاذ عبد المجيد البيومى المحامى الشرعى بالمنصورة. واشتدت

---

(٣٢٢) حسين مؤنس: دراسات فى ثورة ١٩١٩م، (دار الرشاد، القاهرة ٢٠٠٥م)، ص ٩٠.

مظاهرات الشباب فى الأيام التالية.. وحاولت السلطات أن تمنع المظاهرات والاحتجاجات ولكن كانت كلما حاولت ذلك كثر الشهداء.. وأصبحت شوارع القاهرة أما مكتظة بشباب المتظاهرين أو مكتظة بالشباب المتجمعين خلف نعش أحد الشهداء..

وفى ١١ مارس بدأ إضراب المحامين ثم إضراب عمال العنابر.. وفى ١٦ مارس خرج نحو ثلاثمائة سيدة فى مظاهرة وظلوا لمدة ساعتين يردن الدخول إلى بيت الأمة (بيت سعد زغلول) إلا أن الجنود الإنجليز منعوهن من ذلك وسددوا إليهن بنادقهم حرابهم مهددين فتقدمت سيدة مصرية من بينهن وهى تحمل العلم صائحة: "نحن لا نهاب الموت، أطلق بندقيتك فى صدرى لتجعلوا فى مصر مس كافل ثانية"[٣٢٣] وخرجت نساء أخريات من قراهن فى أسيوط والفيوم والمنصورة، استشهدت منهن شفيقة محمد من بولاق، وجنب النساء شارك أطفال المدارس فى الثورة فأرسلوا برقيات احتجاج إلى وزير المعارف ورئيس الوزراء، كما شكا بعض المواطنين من عدم تمكينهم من السيطرة على بناتهم، فيما كن أكثر عنفاً وإصراراً.[٣٢٤]

ثورة فى الظل

امتدت الثورة إلى الأقاليم فقامت المظاهرات فى الإسكندرية وطنطا ودمنهور والمنصورة وشبين الكوم والزقازيق وبنى سويف، والمنيا والفيوم وأسيوط وبدأ الثوار فى الأقاليم يقطعون خطوط

---

(٣٢٣) مس كافل : ممرضة انجليزية أسرها الألمان فى الحرب العالمية الأولى، اتهموها بالتجسس وعدموها رمياً بالرصاص.

(٣٢٤) محمد حافظ دياب: انتفاضات أم ثورات فى تاريخ مصر الحديث، (ط١ ، دار الشروق، القاهرة ٢٠١١م)، ص ١٤٩.

السكك الحديدة وأسلاك البرق والتليفون فانقطعت المواصلات بين القاهرة والأقاليم، وكان أول خط قُطع؛ هو الخط الحديدى الذى يربط طنطا وتلا.

ولما اتسعت حركة قطع السكك الحديدية وتدمير المحطات وجهت السلطة العسكرية البريطانية حملات لقمع الثورة. هذا بينما استمر فى القاهرة إضراب عمال الترام وسائقى سيارات الأجرة والحوذية وعربات الأومنيبوس وكان للأزهر فى إشعال نار الثورة نصيب كبير.. لقد أصبح معقلاً للثورة فحاصرته القوات الإنجليزية لتمنع الدخول أو الخروج منه.

واستمرت المظاهرات الثورية.. وقامت السيدات مرة أخرى بالسير فى مظاهرة للاحتجاج يوم ٢٠ مارس وازداد عدد الشهداء.. وأصبح مشهد تشييع جنازات الشهداء مألوفاً.

وكان أشد الحوادث عنفاً فى الثورة كلها ما حدث من مهاجمة الثوار يوم ١٨ مارس القطار القادم من الأقصر إلى القاهرة، وقد وقع الهجوم فى ديروط ثم فى دير مواس وكان به بعض الضباط والجنود البريطانيين فقتلهم الثوار وبلغ عدد هؤلاء القتلى ثمانية وعندئذ ألقت السلطة العسكرية القبض على المئات وحكموا وسجنوا. .

ومما يذكر أيضاً لمعرفة مدى الثورة وقوتها أن الإنجليز أرسلوا طائرتين فى ٢٤ مارس إلى أسيوط وألقت هاتان الطائرتان القنابل على الأهالى الثوار فقتلت عدداً منهم. . واستمرت ثورة الشعب منذ مارس إلى أغسطس عام ١٩١٩م. ثم تجددت حوادث الثورة من أكتوبر حتى ديسمبر من هذا العام.[٢٢٥]

---

(٢٢٥) محمود فتحى عمر: مرجع سابق، ص ٤٩.

يقدم المؤرخ عبد الرحمن الرافعى وصفاً لروح الشعب قريب الشبه بروح ثوار مصر يوم ٢٥ يناير حين استخدم أفراد الأمن كل أشكال البطش لتفرقة المتظاهرين، بدءاً من العصا، مروراً بخراطيم المياه والرصاص المطاط، وصولاً للرصاص الحى.. فيقول: "رأيت الجماهير يشتركون فى المظاهرات ولا يبالون ما يستهدفون له من الأخطار كانوا يواجهون رصاص البنادق والمدافع الرشاشة (المتراليوزات) بشجاعة لا تقل عن شجاعة الجند فى ميادين القتال وسقط كثيرون منهم قتلى أثناء المظاهرات... كان إذا سقط رافع العلم فى مقدمة موكب المظاهرة مضرجاً بدمائه تقدم غيره ورفع العلم بدله منادياً بحياة الوطن فيردد أخوانه نداءه.

كان الجرحى منهم لا ينفكون ينادون بحياة مصر والدم ينزف منهم وكثيراً ما شاهد المارة مركبات الإسعاف تحمل جريحاً يسيل دمه ومع ذلك يرفع ستار المركبة وهى تسير إلى مركز الإسعاف ويطل على الناس وينادى :"نموت ويحيا الوطن".[٢٢٦]

المهم لدينا أن هذه الثورة كانت هزة عنيفة صدرت من أعماق مصر كلها، فأما الذين كانوا أيقاظاً من أبنائها فقد ساروا فى طريق الحرية الجديد، وأما الذين كانوا نياماً فقد نهضوا وأخذوا مكانهم فى ركب النهوض..

أفاقت مصر إلى نفسها من نوم القرون، وتفجرت كوامن القوة فى كيانها فى صور شتَّى، فلم تبق ناحية من نواحى النشاط إلا شملها النهوض والتجديد.

---

(٢٢٦) عبد الرحمن الرافعى: ثورة ١٩١٩ . تاريخ مصر القومى . (مكتبة الأسرة، القاهرة ١٩٩٩م)، ص ٤٥.

وتجلّى للناس أن كيان مصر كان ينطوى على عبقريات ومَلَكات صافية خلاّقة فى كل الميادين، وكأنما كانت مصر مارداً فى قمقم حبيساً من عشرات القرون، فلما زال السداد خرج المارد وحجب عين الشمس، وقلبَ أرض مصر وأرض العروبة كلها رأساً على عقب. .

هذا المارد هو شباب ثورة سنة ١٩١٩م، ممن فجَّرت الثورة كوامن العبقرية فى كيانهم، فأتوا بكل عظيم من الابتكار عجيب.

ولا عجب أن يكون ما حصل فى مصر يوم ٢٥ يناير وبعد ذلك، مفاجأة لمعظم المراقبين والمحللين، من حيث حجم، وشكل، وتفاعلات ذلك الحدث. ولكن مؤرخى الأفكار مستقبلاً، لن يستغربوا ما حدث، حين يبدأون الحفر والبحث عن ميراث وتاريخ وأصول مكونات عقل شباب٢٥ يناير ٢٠١١. وهو عمل أشبه بعمل علماء الآثار، الذين يحفرون، وينقبون، ويبحثون عن الدلائل المسببة للحدث التاريخى أياً كان إذن، فمرد ما حصل فى مصر فى٢٥ يناير وما بعدها، ليس كله بسبب ثورة المعلومات، وفتوحات الانترنت، كما يظن، ويكتب معظمنا. ولو كان الأمر كذلك، لفعلت ثورة الانترنت فعلها ذاته، فى شباب باقى بلدان العالم العربى التى تعانى من وطأة الدكتاتورية، كما كانت تعانى مصر منها، منذ عقود طويلة.

لا زلت أعتقد أن هذا التطور الرائع الذى طرأ على الشباب المصرى يتعلق بتلك البيئة الكريمة المعطاءة التى ما زالت ترفد المصرى بزاد لا ينتهى وتسقيه من كوثر جنة الثوابت القيمة وتطبع على بطاقته الجينية أبرز الصفات المنتقاة من سلالة الفراعين البنائين المحاربين والسمات المصطفاة من مجد وسؤود وجسارة ونفحة الثوار الأوائل الذين سبقوهم إلى مذبح الحرية والكرامة. وبعبقرية الشعب المصرى الكامنة فى الأساس فى الريفيين من

المصريين، باعتبارهم هم المخزون الأساسى الذى تترسب فيه خلاصة قرون متتالية من الحضارة المصرية، فإذ بهذا المخزون يظهر فجأة على السطح بمجرد أن رفعت عنه بعض الأثقال التى كانت جاثمة فوقه.(٢٢٧)

لم تملك صحيفة الأهرام آنذاك سوى أن تخصص مساحات واسعة عن دور الأقاليم فى تلك الحركة... فى عدد الأهرام الصادر يوم ٢٩ يونيو من ذلك العام وتحت عنوان "المظاهرات السلمية للسودان فى مصر- تأثر الرأى العام واحتجاجه " أفردت الأهرام مساحة كبيرة لمظاهرات الشرقية والغربية والدقهلية والبحيرة والقليوبية والمنيا وقنا. فيذكر د. يونان لبيب رزق فى ديوان الحياة المعاصرة الحلقة رقم ٣٥٤ بجريدة الأهرام" ٧ / ٩ / ٢٠٠٠ يبدو أن أهل الزقازيق كانوا الأكثر حماسا فقد أفردت الأهرام لما جرى فيها مكانا خاصا فى عدد اليوم التالى تحدثت فيه عن المظاهرة الكبرى التى اخترقت شوارع الزقازيق تهتف لجلالة ملك مصر والسودان ولأنصار وحدة وادى النيل فى القطر السودانى الشقيق ووزع الطلبة إعلانا بمقاطعة البضائع الإنجليزية والصقوها على جدران الشوارع، ولم تقتصر المظاهرات العنيفة على الزقازيق بل شاركت الزنكلون وأبو حماد وبلبيس.(٢٢٨)

العيد القومى لمنيا القمح!!

أما مدينة منيا القمح فقد قدمت العزيز من أبنائها فى أرض المعركة ووطيس الثورة. وكان ذلك فى معركة كبيرة يوم (الأحد ١٦

(٢٢٧) جلال أمين: مصر والمصريون فى عهد مبارك، ص ٢٢.

(٢٢٨) جريدة الأهرام ٢٠٠٠/٩/٧م.

مارس ١٩١٩م)،[٣٢٩] وبلغ عدد قتلى معركة ذلك اليوم نحو ١٥٠ قتيلاً وعددا آخر وقد سبق تلك المعركة مظاهرة كبيرة من طلبة المدارس يوم السبت ١٥ مارس، وفى تلك المظاهرة طاف الطلبة[٣٣٠] بشوارع المدينة وهتفوا لمصر وحرية البلاد أمام المحكمة الشرعية والمحكمة الأهلية، كما تصدوا ديوان المركز وقابلهم هناك معاون الإدارة وأسدى إليهم النصائح بالتزام الهدوء والسكينة.[٣٣١]

أما حوادث اليوم التالى (الأحد ١٦ مارس) فكانت دموية ورهيبة، فقد حدث أن جماهير المدينة قد خرجت بأعداد كبيرة تزيد عن ٥٠٠٠ متظاهر هذا بخلاف أعداد أخرى جاءت على منيا القمح من القرى المجاورة للاشتراك فى المظاهرة. وسارت تلك الجموع الكبيرة فى موكب ضخم واتجهت إلى مبنى المركز وهناك أطلقوا سراح المسجونين والمعتقلين ثم اتجهوا بعد ذلك إلى محطة السكة الحديد وهناك حدثت الواقعة حيث أطلق الجنود الإنجليز والاستراليون بالمحطة الرصاص عليهم فسقطت الأعداد الكبيرة من القتلى والجرحى.

---

(٣٢٩) حنان حسن جمعة: شهداء الوجه البحرى، شهداء ثورة ١٩١٩ ، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٤ ، ص ١١٥

(٣٣٠) نستطيع أن نقول: إن الطلبة كانوا هم الطليعة لثورة ١٩١٩م فى الأقاليم وبخاصة الشرقية، ورحلة الألف ميل تبدا بخطوة، ومما ساعد على انتشار الثورة فى الأقاليم مثل طنطا، وزفتى، منيا القمح، الزقازيق، شبين الكوم... إلخ. هو انتقال كثير من طلبة القاهرة إلى بلادهم وقراهم بعد إضراب مدارسهم وإغلاقها فحملوا معهم إلى أهليهم ومواطنيهم الأفكار الثورية وأساليبها، ولقد شارك طلبة المعاهد الدينية بالأقاليم بدور أساسى فى حركة الطلبة كما حدث فى الزقازيق وطنطا ودمياط واسيوط والمنيا والإسكندرية وغيرها

(٣٣١) حنان حسن جمعة: المرجع السابق، ص ١١٥،١١٦

الأحياء يتكلمون!!

وبلغ عدد قتلى ذلك اليوم نحو ١٥٠ قتيلاً، وبذلك تكون مدينة منيا القمح،(٢٣٢) المدينة الصغيرة قد قدمت هذا العدد الكبير من القتلى الشهداء، وأصبح يوم ١٦مارس يوما مشهورا بالمدينة، وأصبح ذلك اليوم عيداً قوميا لمركز منيا القمح يجتمع فيه أبناء منيا القمح كل عام لإحياء ذكرى الشهداء البواسل. وليتذكر كل وطنى أحداث ذلك اليوم المؤلم عندما أطلق الجنود الإنجليز والاستراليون الرصاص على جماهير المدينة التى اجتمعت فى ساحة المحطة وما لبثت يد الغدر والخديعة تحصرهم حصراً.

وذلك بعد أن أحكموا حصارهم بإغلاق مزلقان المحطة وفتح الكوبرى الصغير الموجود على بحر مويس فأصبحت الجماهير بذلك محصورة بين بحر مويس ومحطة السكة الحديد وبعد لحظات من حصارهم على هذا النحو مرت إحدى طائرات السلطة

---

(٢٣٢) مدينة منيا القمح: قاعدة مركز منيا القمح، هى كانت من القرى القديمة أسمها الأصلى منى القمح وردت به فى قوانين ابن مماتى وفى تحفة الإرشاد وفى التحفة من أعمال الشرقية وورد فى الانتصار محرفا باسم (منى القمح) وفى تاريخ سنة ١٢٢٨هـ منية القمح وهو اسمها الحالى فى جدول المساحة القديم وعلى الخريطة وأما (منية القمح) وهو المتداول فهو اسمها فى جدول الداخلية وكانت منيا القمح من توابع مركز العزيزية إلا أنه لوجود بلدة منيا القمح على السكة الحديدية وتوسطها بين بلاد المركز صدر امر فى سنة ١٨٧٥ بنقل ديوان المركز والمصالح الاميرية الأخرى من العزيزية إلى منيا القمح وسمى المركز بها من تلك السنة ومن البلاد الحديثة العهد التى ألحقت بمركز منيا القمح عددها ٢٧ قرية ومنها كفر الصعايدة وكفر الزقازيق القبلى، كفر ايوب عوض وكفر بدوى رزق، كفر حسن عكاشة، كفر ميت بشار، كفر نسوة، كفر يوسف سمرى. وعدد القرى القديمة اللاحقة بمركز منيا القمح ٤٧ قرية منها كفر على غالى، كوم حلين وملامس شلشلمون وبنى هلال ، بيشة عامر، الميمونة، القراقرة، العزيزية انظر: محمد رمزى، القاموس الجغرافى، الجزء الأول، القاهرة، ١٩٥٤-١٩٥٥ ، ص ١٤٦.

وألقت عليهم إشارة بضرب المتظاهرين، وفى لحظات أخذ الرصاص ينهال عليهم من كل اتجاه، فسقطت تلك الجماهير الكبيرة من القتلى والجرحى، أمام المزلقان، فى منحدر كبير، وأصبح يعرف بعد ذلك عند أبناء المدينة باسم "جوزة الإنجليز" والتى تشبعت بدماء الثوار التى سالت أنهارا وهى تنادى باسم مصر ولا تحمل من السلاح إلا العصى وأغصان الأشجار، تنادى باسم مصر لتجابه بأسلحة حديثة ومدافع متطورة.

وبعد سقوط هؤلاء القتلى، قام الجنود الإنجليز بتقليب وتفتيش تلك الجثث وسرقوا من الأصابع والأيدى والجيوب ما وجدوه من محافظ أو ساعات أو خواتم ذهبية، وكان نقل الجثث بالجملة، وأخذ مفتش صحة المركز فى استخراج تصاريح الدفن لكل عشرة منهم. وبعد مرور ٥٠ عامًا على ثورة ١٩١٩م نقلت لنا جريدة المصور شهادات بعض ممن عاصروا المذبحة فى١٦ مارس ١٩١٩م.

فيقول الحاج أحمد المصرى (فلاح ٧٥ سنة. شاهد عيان للمذبحة): "... أيامها كانت مصر كلها تسير فى مظاهرة وفى يوم ١٥ مارس، عسكرت فى الليل الفرق الاسترالية والإنجليزية فى المحطة، فى اليوم التالى ١٦ مارس خرجت المظاهرة، وكان عددها ٢٠٠ رجل أخذت تكبر وتكبر حتى أصبحت أكثر من ٥٠٠٠ رجل، فمشيت وراء المظاهرة وعدينا السكة الحديد فى طريقنا إلى المركز لإخراج المعتقلين ووجدنا عساكر الإنجليز تحاصر المكان وقفلوا بوابة المزلقان وفتحوا الكوبرى ومرت طيارة من فوقنا ورمت إشارة للعساكر الإنجليز، وفى نفس الدقيقة أطلقوا علينا رصاص البنادق

والمدافع من كل جهة... ودكتور المركز الدكتور صبرى نبيه يعطى تصاريح الدفن لكل عشرة مرة واحدة وفى اليوم التالى١٧ مارس منع الإنجليز المرور فى شوارع البلد بعد الساعة الثامنة مساءً".(٢٣٣)

وعن بطولة الشهيد الشرقاوى على عسكر :تروى السيدة مباركة عسكر شجاعة أخيها الشهيد على عسكر فتقول : " كان أخى على عسكر قد خرج للمظاهرة وفى الطريق طلبت منه أن يعود ولكنه صرخ فى وجهى قائلاً :"إحنا رجالة وموش نسوان". وعاد بعد ذلك إلى آخى محمولا على باب خشبى، ومنذ ذلك اليوم لم ينطفئ نار الحقد فى قلبى من ظلم الإنجليز.(٢٣٤)

حكاية شمشون مصر!!

ويقول آخر عن ذكرياته :"مضت أيام كنا نسمع فيها عن جنود إنجليز وجدوا مقتولين فى شوارع المدينة المهجورة فى الليل.. ونشطت المخابرات الإنجليزية نشاطاً كبيراً لمعرفة شياطين الليل الذين يغتالون جنودهم، وصدرت أوامر بألا يمشى الإنجليز إلا فى جماعات لا تقل الجماعة منهم عن ثلاثة ومع هذا فقد ظلت عملية الاغتيال مستمرة، وكلما زاد على ذلك أنه بعدما كان الاغتيال يقع على جندى بمفرده أو جنديين، أصبح الإنجليز يجدون أن القتل يشمل كل جماعة من ثلاثة!!

ومضت شهور على ذلك، والإنجليز يكاد يصيبهم الجنون لتوالى اغتيال جنودهم. إلى أن حدث ذات يوم ما كشف عن سر البطل الذى روع المحتلين وأرغمهم على ألا يغادروا ثكناتهم بعد غروب

---

(٢٣٣) عاصم محروس عبد المطلب، دور الطلبة فى ثورة ١٩١٩، سلسلة مصر النهضة، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٠ ، ص ٦٦.

(٢٣٤) حنان حسن جمعة، مرجع سابق، ص ١١٧.

الشمس... كان اليوم يوم عيد من أعياد المسيحيين. وخرج الجنود السكارى يجوبون الشوارع وأسلحتهم فى أيديهم. واشتد السكر باثنين منهم فصاروا يضربون كل من يصادفهم فى الطريق، سواء كان امرأة أو رجلاً أو طفلاً. . وهاجوا وأخذوا يطاردون الناس حتى اضطر أصحاب المتاجر لإغلاق متاجرهم. وأخذ الأهالى العزل يفرون أمام الرصاص الطائش الذى كان يطلقه الجنديان المخموران.

ولسوء حظهما وصلا إلى قرب شارع الدوينى والأهالى العزل يفرون أمامهما، فخرج محمد أبو العلا من دكانه الذى يمارس فيه صناعته كبيطار يصلح حوافر الخيل والحمير وسأل الأهالى عن سبب فرارهم. . وقبل أن يسمع الجواب رأى الجنديين السكرانين، فدخل دكانه وأغلق بابه بغير مفتاح وما كاد الجنديان يدخلان أول شارع الدوينى، حتى خرج محمد أبو العلا من الدكان بكل هدوء وأمسك بعنقى الجنديين من خلف بقبضتين من حديد، وأخذ يضرب رأس كل منهما بالآخر، حتى سالت دماؤهما، ولم يكتف بذلك، بل وضع رأسيهما فى طين الشارع ولم يتركهما حتى صارا جثتين هامدتين. وبعد ساعات جاءت الشرطة العسكرية الإنجليزية، وخرج الإنجليز بأسلحتهم ينتقمون من الأهالى الأبرياء، وقبض على أصحاب الحوانيت التى وقع الحادث بالقرب منها وعذبوا تعذيباً وحشياً دون أن يبوح أحدهم باسم البطل العملاق (محمد أبو العلا).

وقع هذا الحادث أمام حانوت حلاق اسمه (الأسطى حافظ بدوى) وأمام بيت أحد أعيان المنيا واسمه رحمى بك الدوينى.

فقبض عليهما وبرغم التعذيب لم يبوحا بشىء . وكاد الحادث يعتبر من فعل مجهولين، لولا أن بعض فتيان وغلمان المنيا ,الذين كانوا مفتونين برجولة محمد أبو العلا وشجاعته، أخذوا يتغنون بهذه البطولة، ويتفاخرون بأن شاباً واحداً استطاع أن (يفقش جوز إنجليز زى ما بيفقش البيض) ووصلت همسات الفخر إلى أسماع الإنجليز فقبضوا على محمد أبو العلا، ومن التحقيق ثبت أنه هو الذى كان يرتكب معظم حوادث الاغتيال. وكان يهاجم الجنديين فيصرعهما ببساطة مهما كانا قويين، فلما صار الإنجليز لا يسيرون إلا فى جماعات أقلها ثلاثة، كان يصرع أولهم بضربية عصا واحدة ، ثم ينقض على الاثنين الآخرين فيضرب رأس كل منهما بالآخر حتى يموتا.!! ولم يتمكن أى جندى إنجليزى من استعمال مسدسه، لأن محمد أبو العلا كان سريع الحركة خفيف الوثبة كأنه الفهد.

وحكم على محمد أبو العلا بالإعدام. وحزنت المدينة على ابنها البطل، وبدأ الرجال والشبان يعدون العدة لمهاجمة السجن وإنقاذه. . فشددت الحراسة عليه. . وبلغ مسامع الإنجليز من رجال مخابراتهم أن المدينة كلها مصممة على أن تنتقم لمحمد أبو العلا، فأوعزوا إلى قائدهم العام (لورد اللنبى) بأن يخفف الحكم إلى السجن المؤبد، حتى لا تتصاعد حوادث الانتقام.

وظل محمد أبو العلا فى السجن إلى عام ١٩٢٤م. عندما تولت وزارة سعد زغلول الحكم وصدر عفو عن المحكوم عليهم السياسيين وشمل العفو بطل منيا القمح العملاق (محمد أبو العلا البيطار) أو شمشون البلد كما لقبه أهل بلده!!.[٣٣٥]

---

(٣٣٥) مجلة المصور عدد ٢٣١٧، ٧ مارس ١٩٦٩م.

إنجليزى بعين زرجة. . فى الوابور!!

إخبارى آخر يروى مشاهد حاسمة فى ثورة ١٩١٩م فيقول:" ذات يوم علمنا أن قطاراً قادماً من قبلى يحمل عدداً من كبار الشخصيات الإنجليزية، معظمهم من المفتشين ومديرى البنوك. خافوا على حياتهم فى مدن الصعيد الثائرة ، فركبوا القطار إلى القاهرة، فتجمع أهل منيا القمح على محطة السكة الحديد، وقد صمموا على أن يفتكوا بهؤلاء الإنجليز، انتقاماً للضحايا الذين شاع خبر استشهادهم برصاص الإنجليز فى القاهرة والإسكندرية وغيرها من العواصم.

لكن الألوف الذين تجمعوا على محطة منيا القمح بالشرقية أصابتهم خيبة الأمل، لأن أهل بلدة (ديرمواس) سبقوهم إلى الثأر للشهداء، إذ هجموا على القطار، ووقفوه عنوة، ثم اقتحموه وفتكوا بمن كان فيه من الإنجليز.

ومن أطرف ما حدث خلال هذه المأساة، أن مستر (بوب) مفتش السجون كان بين الراكبين فى القطار فلما أحس بالخطر قال لجندى المراسلة الذى كان يصاحبه: "خبينى يا منطاوى" فأخذ منطاوى ملاءة أحدى السيدات، وغطاه بها، ولما اقتحم الثوار عربة القطار قال لهم منطاوى: " اعملوا معروف حاسبوا أحسن مراتى حامل وتعبانة" .

ولكن أحد الثوار أدرك الكذبة بذكائه وقال لمنطاوى: "هو فيه عسكرى بيركب مراته درجة أولى مفتخرة؟!" . وسمع مستر بوب هذا الحوار فأدرك الخطر ورفع طرف الملاءة وتطلع من تحتها فلمحه أحد الثوار وصاح: "إنجليزى بعين زرجة.. اضرب يا ولد".. وهرب

بوب والضرب ينهال عليه حتى وصل إلى سائق القطار وقال له (اعمل معروف سوق وخد ١٠٠ جنيه) ولكن لم تمض غير لحظات حتى سقط بوب قتيلاً. . ومع هذا فإن الثوار لم يمثلوا بالجثث كما كان الإنجليز يفعلون عندما يفتكون بالمصريين. ودفن الإنجليز القتلى فى اليوم التالى فى مقابر المسيحيين عند جسر نعوم فى منيا القمح.

السفاح!!

وأدرك الثوار أن الإنجليز لابد أن يرسلوا حملة تأديب فقطعوا قضبان السكة الحديد لمسافات طويلة، وبهذا عجز الإنجليز عن إرسال النجدة بطريق السكة الحديد، ولكنهم أرسلوها فى باخرة ضخمة حملت مئات من الإنجليز والهنود المدججين بالسلاح.. وعلى رأسهم البكباشى محمد شاهين الذى اشتهر باسم السفاح؛ لأنه كان لا يفرق المتظاهرين إلا بضرب الرصاص (فى المليان) وكان إذا وقع فى يداه أحد من الطلبة المتظاهرين، ربطه من يديه بحبل فى سرج جواده، وظل يجره خلفه حتى يهشم جسمه ويموت.

وعلم الثوار أن الإنجليز قادمون فى باخرة، فأسرعوا إلى حجز المياه خلف بعض القناطر وبهذا تعطل وصول الحملة بضعة ايام إلى أن استطاع الإنجليز إطلاق المياه واستطاعت الباخرة أن تواصل سيرها.

ووصلت الباخرة على شاطئ منيا القمح وهو شاطئ مبنى من الحجر، منحدر فى ميل شديد، وكان ألوف من المتظاهرين على الشاطئ. وبعد أن رست الباخرة ولم يكن يظهر على سطحها أى جندى، برز محمد شاهين السفاح والمسدس فى يده. وفى جرأة

أشار برأسه إلى جنود كانوا فى داخل الباخرة فبدأوا يخرجون ويصعدون السلم الحجر، والبنادق فى أيديهم... وبهت المتظاهرون فلم يفعلوا شيئاً.

وبعد لحظات دوى صوت كالرعد يقول: "ساكتين ليه يا رجالة... اضرب يا ولد" وفى لحظة تخاطفت ألوف الأيدى مئات الأحجار الكبيرة التى كانت مرصوصة ومعدة لبناء بعض المنشآت الحكومية فى هذه المنطقة المسماة (بلاس) وتساقط الإنجليز فى النهر كالذباب وكانت خسارتهم كبيرة لأنهم كانوا محصورين فى حيز ضيق من السلم الحجرى، فكان من السهل اصطيادهم.

وأطلق شاهين الرصاص فتبعته مئات الطلقات من الجنود الذين احتموا وراء جدران الباخرة وتساقط الضحايا من المتظاهرين. وكان كلما اشتد إطلاق النار وتفرق المتظاهرون، عاد الصوت المدوى يقول: "أجمد يا واد. . اضرب ولاد الكلب دول" فيعود الثوار إلى التجمع وقذف الأحجار. . ولم يكن هذا الصوت إلا صوت بطل منيا القمح وشمشونها (محمد أبو العلا البيطار).[٢٣٦]

واستمرت المظاهرات وأعمال الثورة فى كل نجوع وقرى مصر رغم قيام جنود الاحتلال بحرق قرى العزيزية والبدرشين ونزلة الشوبك، وقتل الأهالى ونهب المنازل وانتهاك أعراض النساء، وإلقاء الطائرات الإنجليزية بقنابلها على عريان الفيوم، وقتلها قرابة ٤٠٠ منهم.

وكانت تلك بعض من ملامح صور البطولة ببعض مدن مصر وقراها فكانت ملحمة حب من أجل مصر.

---

(٢٣٦) مجلة المصور ٧مارس ١٩٦٩م.

مع أن الإفراج عن سعد زغلول وصحبه قد تم بإعلان فى ٧ إبريل ١٩١٩م من نائب جلالة ملك بريطانيا اللورد اللنبى إلا أن الثورة استمرت ولم تنقطع حوادثها.

الثورة الحقيقية.. من هنا نبدأ..

والواقع لقد كان الشباب دائماً مرآة للضمير الشعبى الحر.. أحس الشباب بالضائقة الاقتصادية التى بدأت تعم البلاد فى سنة ١٩٣٠م. ورأى كيف كان الإقطاعيون لا يبالون فى هذه الأزمة إلا بأنفسهم. بل رأى كيف أن بعضهم يتخذ منها وسيلة للنيل من خصمه . فوقف الشباب فى وجه العاصفة يحاول أن يحمى الشعب منها.. وعبر عن ذلك بأسلوبه فى إنشاء الجمعيات التى كان هدفها الخلاص الاقتصادى للشعب.. ألف الشباب فى سنة ١٩٣٠م. وما بعدها جمعية المصرى للمصرى وجمعية مشروع القرش وجمعية الاستقلال الاقتصادى وجمعية عيد الوطن الاقتصادى.

قام الشباب وحده بكل هذه المشاريع الاقتصادية واقتنع أن كل البلايا لها مصدر واحد هو الاستعمار.. ففى٩ نوفمبر ١٩٣٥م. خطب السير صموئيل هور وزير الخارجية البريطانية خطاباً تناول فيه أحداث مصر إذ ذاك فقال:"عندما استشرنا أشرنا بعدم إعادة دستور ١٩٢٣م. ودستور ١٩٣٠م. ما دام الأول قد ظهر أنه غير صالح وأن الثانى لا ينطبق على رغبات الأمة ".

قال الوزير البريطانى هذه العبارة فى الوقت الذى كان فيه شعب مصر يطالب بعودة الدستور الأول وإقامة حياة دستورية نزيهة

فجاءت عبارته كزيت سكب على نار.. فاندلع اللهيب وكانت فورة بلغت حد الثورة..

دفع شباب الشعب ثمن ثورتهم عرقاً وأعصاباً ودماً فقتل منهم من قتل برصاص الكونستبلات الإنجليز فى الشرطة المصرية وجرح من جرح واعتقل من اعتقل. .

وإن ننسى فلا ننس كيف أن عبد الحكم الجراحى الطالب بكلية الآداب وقتئذ قد كتب رسالة إلى الشعب بدمائه وهى تنزف. . وذلك قبل أن يستشهد، كما لن ننسى بطولة وشجاعة عبد المجيد مرسى الطالب بكلية الزراعة، وعلى طه عفيفى الطالب بدار العلوم وغيرهم من شهداء ثورة ١٩٣٥م. .

وتحدد يوم الخميس ٢٨ نوفمبر يوم إضراب حداداً على الشهداء فأغلقت المتاجر فى القاهرة، واحتجبت الصحف، وبدت العاصمة فى حزن رهيب. وأقام الطلبة نصباً تذكارياً لشهداء الجامعة فى فنائها واحتفلوا يوم السبت٧ ديسمبر بإزاحة الستار عنه وسط مظاهرات ضخمة هائلة تجاوزت حدود الجامعة وتصدى لها قوات الأمن. وكانت هذه المظاهرة أول انفصال ظاهر من الشباب عن الأحزاب الرخوة القائمة وقت ذاك، إعلاناً للكفر بالحزبية..

والعجيب أن هذا كله كان يحدث فى القطاع الشعبى بينما كان فى القطاع الحكومى رئيس وزارة يقول: "إن الحكومة البريطانية أظهرت حسن النية بالمبادرة إلى إزالة ما أحدثته تصريحات سير صموئيل هور من سوء التفاهم، وإن كان الوزير البريطانى قد أدلى بهذه التصريحات عن غير قصد!!.

ولم يفت نسيم باشا فى بيانه الثناء على سير مايلز لامبسون المندوب البريطانى لما أظهره من تقدير صحيح للموقف حتى أوشكت مفاوضاته إلى عودة دستور عام ١٩٢٣م!!.

هكذا كان دهاقين الساسة والحكام يلقون الماء البارد على حرارة الشعب.. ليس حتى لحساب أنفسهم بل لحساب المستعمر.. وهى ظاهرة لانزال نعانى آثارها الوبيلة إلى اليوم فما أكثر الخدمات التى قدمها للنظام السابق رجال هانت عليهم أنفسهم وفقدوا احترام الناس، فباتوا لقمة سائغة فى فم النظام، يفعل بها ما يشاء يمضغها أو يلفظها فإذا بوزراء وعبيد النظام يتفننوا أكثر وأكثر فى ابتداع الأرقام التى أثبتت أن أحوال الفقراء لا تسوء بل تتحسن بل وقد يصدقوا هم أنفسهم ذلك لما يرونه مما حدث لهم هم شخصياً.

وثبت بما لا يدع مجالاً للشك أن مثل هذا النظام لا يستحى وبعد انقضاء أسبوعين على قيام ثورة ٢٥يناير٢٠١١م، ظهر بما لايدع مجالاً للشك أن هذا النظام الذى ثار الناس ضده لم يعد يثير الغضب فقط، ولكنه أصبح أيضاً يثير الاحتقار الشديد، إذ ما الذى يمكن قوله عن حكومة تخاف ولا تستحى؟ ولا تختلف كثيراً عن سليلتها كوزارة نسيم باشا.. ومع هذا فقد سار الشباب فى طريقهم إلى جمع الكلمة، ولكن بعض الذين التقطوا هذه الكلمة الجامعة قد تحولوا بها إلى طريق آخر أملت فيه بريطانيا على المصريين معاهدة ١٩٣٦م.

حار الشعب وضاق بهذه المعاهدة جملة وتفصيلاً ثم خرج من هذه الحيرة بالانصراف عن نداءات الأحزاب...

واضطر الشباب إلى التعبير عن رأيه بوسائل عنيفة.. فألفت الجمعيات السرية لقتل الإنجليز أثناء الحرب العالمية الأخيرة، وكذلك قتل أعوانهم مثل الوزير المتجلنز صاحب نظرية الزواج الكاثوليكى بين مصر وبريطانيا.(٢٣٧)

وكثرت المنشورات السرية حتى أن أحد هذه المنشورات انقلب إلى كتاب ضخم اسمه "الكتاب الأسود فى العهد الأسود". ولئن بدت هذه الحركات على شئ غير قليل من العنف فقد كانت رد الفعل الطبيعى لما وصلت إليه البلاد على أيدى المسئولين من المهالك والمهاوى.

يا عم حمزة إحنا التلامذة

فى فبراير ١٩٤٦ عندما حاولت الحكومة المصرية إلغاء معاهدة ١٩٣٦.. رفضت الحكومة البريطانية ولم تقبل إلا ببعض التعديلات وهو ما اعترض عليه الطلبة فى وقتها.. وعقدوا مؤتمرًا قرروا بعدها التوجه فى مظاهرة كبرى إلى قصر عابدين لرفع مطالبهم إلى الملك. وما كاد الطلاب يتحركون على كوبرى عباس حتى فتحه البوليس الذى هاجمهم من الخلف فأصيب الكثير منهم مما أدى إلى جرح أكثر من مائتى طالب، منهم أربع وثمانون أصيبوا إصابات خطيرة.

---

(٢٣٧) جلال أمين: مرجع سابق، ص ١٤.

- هو: أمين عثمان باشا، وزير المالية المصرى فى حكومة حزب الوفد ٤ فبراير ١٩٤٢، ٨أكتوبر "١٩٤٤" ورئيس جمعية الصداقة المصرية - البريطانية (الصفحة غير موجودة)" جمعية الصداقة المصرية - البريطانية وكان من أشد المطالبين ببقاء القوات الإنجليزية فى مصر، وكان له قول مشهور يشرح فيه العلاقة بين مصر وبريطانيا واصفًا إياها بأنها "زواج كاثوليكى" بين مصر وبريطانيا لا طلاق فيه، تعرض للاغتيال من الجمعية السرية بعضوية الرئيس المصرى السابق محمد أنور السادات" أنور السادات، وتمت العملية بنجاح فى السادس من يناير عام ١٩٤٦ على يد حسين توفيق.

وكما حدث عام ١٩٣٥، أدت مواجهة المظاهرة الطلابية السلمية بالعنف إلى استمرار المظاهرات حتى (١٠فبراير) وامتدادها إلى الإسكندرية، والزقازيق، والمنصورة، وأسيوط. وقام الطلاب بتحطيم الزينات التى علقت على الجامعة بمناسبة الاحتفال بعيد ميلاد الملك فاروق، وانتزعوا صورته وداسوها بالأقدام. وقدم النقراشى باشا استقالة وزارته فى١٥ فبراير ١٩٤٦. وقد أعلن الطلبة يوم ٢١ فبراير ١٩٤٦ يوم الإضراب العام فى كل مصر للتمسك بالجلاء وللاعتراض على سلوك حكومة صدقى باشا، واستجاب الشعب استجابة كاملة. فشلت حركة المواصلات وتوقفت جميع المصانع والمحال التجارية عن العمل، وأقفلت المدارس والكليات. وخرجت من الأزهر مظاهرة كبرى شاركت فيها الجماهير اتجهت إلى ميدان الأوبرا ثم زحفت إلى ميدان قصر النيل (التحرير الآن)[٢٣٨] حيث الثكنات البريطانية (موقع فندق الهيلتون الآن)، واتجه قسم منها إلى ساحة عابدين. وكانت المظاهرات تسير فى نظام تام دون

---

(٢٣٨) لعب ميدان التحرير أكثر من دور فى الفترة السابقة لتاريخ ٢٥ يناير ٢٠١١، فقد كان مسرحاً للاحتجاج والتجمع منذ وقت الاحتلال البريطانى، وشهد مقتل ثلاثين متظاهراً عند قصر النيل، وذلك قبل انسحاب القوات البريطانية من قصر النيل وتسليم المعسكرات للسلطة المصرية بين سنتى ١٩٤٦ و١٩٤٧ ورغم أن توسع القاهرة قدّم بدائل عديدة يمكن لحركات الاحتجاج الشعبى أن تتجمع فيها إلا أن ميدان التحرير لم يفقد رمزيته الاحتجاجية والتجمعية، ففى السبعينات شهد الميدان نزول حوالى مليونى مصرى فى جنازتى جمال عبد الناصر وأم كلثوم، وفى سنة٢٠٠٣ شهد الميدانَ تظاهرات حاشدة ضد الغزو الأميركى للعراق، وقُدّر عدد المتظاهرين فيها بنحو٣٠.٠٠٠ متظاهر، وظل الميدان رمزاً للحركة الدؤوب للأشخاص والمواصلات فهو بالقرب من محطات الحافلات (الأتوبيس) ومحطة المترو الرئيسة، وهو الميدان الواصل بين القاهرة الكولونيالية والقاهرة المتروبولوتيانية بمبانيها الشاهقة التى تحجب رؤية النيل وربما ساهم موقع ووظيفة الميدان فى احتفاظه بحيويته مكانا معيشا بدلاً من أن يكون مكانا جامداً وتاريخياً وحسب.

اعتداء على أحد ودون التعرض للممتلكات أو جنوح نحو التخريب، فإذا ببعض السيارات العسكرية البريطانية المسلحة تخترق الميدان وسط الجماهير فجأة لتدهم بعضهم تحت عجلاتها. وكان الرد الطبيعى من جانب المتظاهرين رجم الثكنات البريطانية بالحجارة. فرد الجنود البريطانيون بإطلاق الرصاص. فكانت مذبحة أثارت ثائرة الجماهير، فأشعلوا النار فى معسكر بريطانى بالميدان (كان يحتل موقع مبنى المجمع الآن)، وبعض المنشات العسكرية البريطانية الأخرى. .

وانتقلت المظاهرات لجميع أحياء القاهرة والمحافظات الكبرى واتخذت أحيانا طابع العنف والمواجهات مع جنود الاحتلال التى ردت بعنف أكبر ودمويه شديدة أدت لسقوط العديد من الضحايا فاستشهد ثلاثة فى الإسكندرية وواحد فى المنصورة وقدمت الشرقية ثلاثة من خيرة أبنائها الطلبة بمدرسة الزقازيق الثانوية العسكرية وهم الشهيد البطل على الغندور بالسنة الخامسة أدبية,والشهيد محمد الغنيمى شاهين بالسنة الخامسة علمية , والشهيد سعد حسن سرحان بالسنة الرابعة. وأقام طلاب المدرسة نُصباً تذكارياً فى بهو المدرسة تخليداً لدماء الشهداء. . . واليوم يعانى نُصب شهداء الطلبة الإهمال بوضعه بجوار سلة المهملات بالمدرسة!!. مما يعد مؤشراً خطيراً عن مجتمع أصبح عاجزاً عن تحقيق قدر من التوازن فى أقدار وأدوار أبنائه.

وأصدرت الحكومة قرارًا بتعطيل الدراسة ثلاثة أيام وفى الأيام التالية استمر اتساع الأحداث فى القاهرة والإسكندرية وبور سعيد وشبين الكوم والزقازيق والمحلة الكبرى وطوخ وأسيوط وعطلت الدراسة فى الإسكندرية أسبوعًا وفى١٥ فبراير قامت المظاهرات

بعد صلاة الجمعة تهتف بالجلاء وبحياة الشهداء وبدأت الجماهير تتجمع من الغورية والموسكى والعتبة وشارع فؤاد وتألفت مظاهرة كبيرة من الشباب والعمال طافت بحى بولاق أبو العلا تهتف بسقوط الاستعمار كما قامت مظاهرة عنيفة فى بورسعيد بعد صلاة الجمعة تصدى لها البوليس بوحشية فأصيب عدد كبير من المتظاهرين واعتقل ٦٥ متظاهراً.

وبدأ يظهر جليًا فى المظاهرات أنها لم تعد قاصرة على الطلبة ولا الشباب إنما ضمت جماهير من كافة الفئات وبدأ معظمها فى الأحياء الشعبية وفى ١٦ فبراير أغلقت المحال العامة فى الأحياء الوطنية التى يسكنها أغلبية من المصريين احتجاجًا على الحوادث وحدادًا على القتلى وقامت مظاهرة فى حى الأزهر وكلما مرت بالشوارع يتزايد عددها وتجمعت بعض المظاهرات من الشباب والطلبة أمام القصر الملكى بعابدين تهتف بالجلاء والوحدة مع السودان وسقوط الاستعمار.

وفى ميدان قصر النيل، تجمعت المظاهرات فى مواجهة قوات الاحتلال، وكانت لا تزال تحتل ثكنات العباسية وقصر النيل والحلمية والقلعة وحلوان، فضلاً عن معسكرات ومحطات جوية أخرى فى القاهرة والإسكندرية، وقامت بإطلاق الرصاص على المتظاهرين، فسقط ٢٣ شهيداً، وجُرح ١٢٣. وحمل المتظاهرون قمصان شهدائهم، وهاجموا المؤسسات العسكرية المنتشرة فى المدينة.

الجماعة!!

وفى محاولة لإيقاف المظاهرات، نزل إسماعيل صدقى صباحاً فى سيارة، وإلى جواره الشيخ حسن البنا المرشد العام لجماعة

الإخوان المسلمين، ووقف مصطفى مؤمن زعيم هذه الجماعة بالجامعة، يدعو الطلبة لإعطاء صدقى فرصة جديدة، وأمعن فى تضليلهم حين شبه صدقى بالنبى إسماعيل، مستشهداً بالآية الكريمة: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولاً نَبِيًّا﴾ (مريم : ٥٤)

جماعة الإخوان لعبت دورًا تخريبيًا داخل الثورة وكانوا الجناح من الحركة الوطنية الأكثر استعدادًا للتحالف مع الملك ضد الجماهير.. من أجل مصلحتها أولاً وأخيرًا.. فعندما اشتعلت الاحتجاجات الطلابية فى فبراير أنشأت الجماعة بمساعدة الحكومة اللجنة القومية للطلبة كمحاولة لإيجاد قوى موازية للجنة الوطنية للعمال والطلبة تعمل على تفتيت الحركة وإضعافها وأكثر من ذلك عندما ذهب وفد من اللجنة الوطنية للعمال والطلبة إلى الشيخ حسن البنا أثناء الإعداد للإضراب العام فى٢١ فبراير طالبًا مساهمة الإخوان فى هذا الإعداد رفض حسن البنا على أساس أنه غير مستعد!.

وبذلت محاولات من جانب جوالة الإخوان، ومعهم بعض من شباب السعديين والدستوريين وجبهة مصر، لبث الفرقة، وصرف المظاهرات، لكنها استمرت، وشملت مدناً كثيرة، وعلت الهتافات بسقوط صدقى، والخونة عملاء الاستعمار. والتنديد "بالباشوات السمان"، و"الكفاح بالسلاح"، و"المفاوضات طريق الخيانة"، وأرسلت صرخة مدوية إلى الملك حين هتفت :"أين الكساء يا ملك النساء؟". ورفض الجيش المصرى الاصطدام بالمتظاهرين، وصدرت أوامر صدقى بتفريقهم بالقوة، ومنع الاجتماعات العامة.[٣٣٩]

(٣٣٩) محمد حافظ دياب: انتفاضات أم ثورات فى تاريخ مصر الحديث، ص ١٨٧.

دعت اللجنة الوطنية للعمال والطلبة إلى إضراب عام يوم ٢١ فبراير أطلق عليه اسم "يوم الجلاء" وفى ذلك اليوم تجمع حشد يضم حوالى١٠٠ ألف متظاهر واصطدمت قوات الاحتلال البريطانى بهذه الجموع المحتشدة وأسقطت ٢٣متظاهرًا قتيلاً و١٢١جريحًا وفى اليوم التالى دعت اللجنة الوطنية للعمال والطلبة للقيام بإضراب عام ثان فى الرابع من مارس أطلقت عليه اسم "يوم الشهداء". ورغم أن مظاهرات ٤ مارس كانت محدودة داخل القاهرة إلا أن أماكن أخرى مثل الإسكندرية والمحلة شهدت اشتباكًا بين حشد كبير من المتظاهرين وبين القوات البريطانية سقط فيها ٢٨ متظاهرًا قتيلاً و ٣٤٢آخر جريحًا وأغلقت الصحف والمصانع والمتاجر والمدارس أبوابها احتجاجًا فى مختلف أرجاء مصر.

وفى الاجتماع التأسيسى لاتحاد الطلبة العالمى فى أغسطس ١٩٤٦م، شارك فيه طلبة مصريون، اتخذ قرارا باعتبار يوم ٢١ فبراير هو "يوم الطالب المصرى" و"يوم التضامن العالمى مع طلاب مصر"، فى كفاحهم من أجل القضاء على الاستعمار.(٢٤٠)

تصاعدت الروح الثورية فى تلك الفترة تصاعداً هائلاً - المظاهرات الكاسحة ضد المفاوضات - بداية من إضرابات العمال وصولاً إلى المعلمين وضباط البوليس وإضراب طلبة الجامعات وتمزيق صور الملك لتتخطى الحركة الشعبية كل الأطر القديمة ووقفت وجهاً لوجه أمام المعسكر الاستعمارى تنادى بالحرية وبالكفاح المسلح وبالتأميم وبالجمهورية وبإسقاط النظام الإقطاعى.

لم يعد فى مقدور النظام استعمال العصا الغليظة عبر أحزاب الأقلية من سجن واعتقال وتشرد أو استعمال المخدر المستمر فى

---

(٢٤٠) محمد حافظ دياب:.انتفاضات أم ثورات فى تاريخ مصر الحديث، ١٨٨.

تسريب حركة الثورة عبر مسارات جانبية على طريقة الوفد. ووجدت الروح الشعبية نفسها فى ظرف تاريخى خاص يدفعها دفعاً إلى الانتفاض.

فلقد كان الظلم الاجتماعى والأزمة الاقتصادية والأخلاقية رهيبة وكانت قوى الغليان الشعبى فى تصاعد مستمر مما أعطى للحركة الثورية سنداً هاماً فى العمل.

وبات على جموع المصريين أن يتصدوا للإقطاع، فانتفض الفلاحون فى كفر البرامون وزمام كفر البرامون، ٧٥٠ فدانًا يملكها جميعاً الأجانب ما عدا ١٢٠ فداناً يمتلكها ٣٠٠٠ فلاح.

وكان الأجانب يسيمون الفلاحين أسوأ أنواع الظلم، لا يقبلون إلا بأن يعمل الفلاحون عندهم كأجراء يبيعون لهم قوت عملهم مقابل ثمن بخس ومستغلين الإدارة العمدة فى إرغام الفلاحين على العمل لدى الأجانب بشروطهم وعلى إثر ذلك الاضطهاد والظروف السيئة التى لاقاها الفلاحون قاموا بمظاهرة تهتف ضد العمدة والأجانب هتافات عدائية فاستنجد العمدة برجال البوليس وحضرت قوات البوليس وأطلقت النيران على الفلاحين فقتلت اثنين منهم.

عنانى عواد... صوت من الريف

وفى الشرقية نجد ملحمة الفلاح (عنانى عواد)[٣٤١] ابن كفور نجم الذى حمل لواء الثورة على الإقطاع وثار على الظلم ممثلاً فى

(٣٤١) تعاظمت حركة الفلاحين فى الفترة من عام ١٩٤٨ حتى قيام ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢، وتجسدت فى معارك الفلاحين ضد الظلم والسخرة فى "بهوت وكفور نجم وساحل سليم وميت فضالة والسرو ودراوة والبدارى ودرين وأبو الغيط".. والعشرات من قرى مصر شمالاً وجنوباً. واستشهد فى هذه المعارك =

أعوان الأمير الإقطاعى (محمد على) الذى كان يسيطر على أراضى (كفور نجم)، فثار مطالباً بحقوق أهل قريته بعد أن ثارت فى أعماقه كبرياء كل الفلاحين وعُوقِب بطرده ونفيه وتشريد أهله، ثم عاد ليوضع تحت المراقبة هو وخمسة من زملائه كالمجرمين والقتلة، ولكن ثورته لم تهدأ، فأعدوا له كميناً فى الفجر وقتلوه وهو خارج من نقطة البوليس، وشهد الشهود بذلك فى التحقيقات التى كانت تجرى آنذاك، ولكن عواد الذى لبى نداء الحرية ترك وراءه رمزاً لروح المقاومة الشعبية عند الفلاح المصرى[٣٤٢] فكان نفساً ذكية وملحمة بطولية تحولت إلى طاقة روحية تتوارثها الأجيال جيلا بعد جيل تبعث كوامن الحياة ودوافع العمل فى شعب كاد يفقد ثقته بنفسه وبالقدرة على النهوض.

وفى٢٢ يونيو ١٩٥١م وكنتيجة طبيعية لزيادة وعى أهل الريف تجاه قضاياهم ومع انتشار خبر اعتداء عبد المجيد بك البدراوى ـ كبير عائلة البدراوى بالدلتا ـ على الفلاحين ضرباً بالكرباج. ارتفعت الدعوة للانتفاضة.. وخرج الأهالى إلى قصر البدراوى وأطلق عبد

= والانتفاضات الكثيرون من القيادات المناضلة من أجل حق الفلاح فى الحياة، سواء من الأجراء ومعدمى وفقراء الفلاحين أو من أبنائهم المثقفين، أمثال الشهداء، عنانى عواد وغازى أحمد والمحامى عبد الحميد الخطيب. و أدى الوعى التلقائى للفلاحين -المتزايد بقدر ما يعانونه من عسف واضطهاد- والذى ازداد إدراكا وإصرارا بزيادة الوطأة عليه خاصة فى كهوف فقراء الفلاحين والأجراء بعد الحرب العالمية الثانية،مما أدى إلى قيام حركة نضالية فلاحية متسعة تستهدف استرداد حقوقهم الطبيعية فى الأرض والكرامة والحياة الإنسانية. فتحى خليل: نضال الفلاحين، دار الكاتب العربى، ١٩٦٧، ص٥ .

(٣٤٢) فتحى خليل: نضال الفلاحين، دار الكاتب العربى، ١٩٦٧، ص ٦٠ – ٨٠ بتصرف. وأنظر: محمد مورو: الحركة الإسلامية فى مصر، طبعة أولى، الدار المصرية، القاهرة، ١٩٩٤، ص ١٠١ ، ١٠٢. وانظر: أحمد خاطر ,مقدمة ديوان فريد طه، ط١ الزقازيق ١٩٩٩م بتصرف.

العزيز بك البدراوى النار على الفلاحين فسقط وكيل شيخ الخفراء شهيداً كما سقط عشرات المصابين. وجاء البوليس يكمل حلقة الحصار على النار وعمل فيها قتلاً وذبحاً واستخدموا التفتيش وسيلة تأديب عشرات الفلاحين غير المرغوب فيهم وبالغ رجال الأمن فى تحطيم أثاثاتهم وإفساد تموينهم وتمزيق ثيابهم خلال التفتيش.

وقام الأمن بمحاصرة بهوت ومنع الدخول إليها ومنع الصحافة من الوصول إليها، وتم شراء الصحافة لتضليل الرأى العام، واستعملت أسرة البدراوى نفوذها وأموالها للتأثير على القضاء واستطاعت العائلة بمساعدة الهجانة والبوليس بطرد ١٢ أسرة من بهوت نهائياً تحت إرهاب البوليس والهجانة... هذه الانتفاضة فى حقيقتها تبين إلى أى مدى وصل النظام إلى حالة الانهيار والفساد الذى تمثل فى علاقات ونفوذ العائلة الإقطاعية بالبوليس والوزراء والملك.

مشهد شديد الشبه لما حدث فى الثلاثين سنة الماضية حين ترسخت تقاليد التعذيب واقتحام المنازل واختفاء المعتقلين القسرى وإذلال الخصوم السياسيين، وعقد المحاكم العسكرية التى حكمت بإعدام أكثر من مائة شخص وهو نوع من القتل باسم القانون، وظل آلاف المعتقلين السياسيين لعشرات السنين بلا محاكمة ولايزالون حتى فجر ثورة ٢٥ يناير.

وفى قرية أبو الغيط فقد كانت الأوقاف فى تلك القرية تؤجر أرضها إلى صغار الفلاحين، ثم قررت أن تطرد ٥٠٠ منهم من الأرض لتؤجرها إلى صهر وزير التموين، فتصدى الفلاحين للأمر، وكالعادة اتصل صهر الوزير بالبوليس فنشبت معركة بين الفلاحين وبين البوليس قتل فيها ١٢ فلاحاً.

وفى ١٧ سبتمبر ١٩٥١م. بدأت انتفاضة شعبية فى ميت فضالة حين أمر عبد اللطيف باشا طلعت - كبير أمناء الملك - الذى يمتلك ٧٠٠ فدان فى ميت فضالة بأن يجعل ثلاثة قناطير عن كل فدان قطن وحيث إن الأرض لم تغل هذا القدر فقد امتنع الفلاحون عن جنى المحصول.

فتعرض الفلاحون للاعتقال والتعذيب ومنع الطعام والماء عنهم.. فتجمهر الفلاحون وتظاهروا ضد الإدارة والسراى، فبادر رجال الأمن فأطلقوا الرصاص عليهم وفى ثورة تلقائية كان الفلاحون يهجمون على مبنى التفتيش هاتفين بسقوط دولة البوليس والقمع، وهاجم الأهالى القصر واشتد ضغطهم على البوليس وبعد ساعة بدت قرية ميت فضالة كميدان قتال.

وبدأت نجدات البوليس تتدفق من المنصورة وميت فضالة وميت غمر والسنبلاوين لتأذيب الفلاحين وبدأت طلقات البنادق والمسدسات تنهال من بنادق الجنود والضباط بينما راحت قوة تقبض على كل من يحاول الهرب من نهر الموت الرهيب.. وعاشت ميت فضالة تحت رحمة قوة البوليس عدة أيام.(٣٤٣)

وهكذا فإن وجه مصر قد غطاه الانتفاضات الفلاحية فى الريف لينضم الفلاحون لحركة الشعب المصرى ضد الملك والاستعمار والإقطاع والرأسمالية.

زاد الإحساس لدى المصريين منذ أواخر أربعينيات القرن العشرين بانتشار الفساد بصور شتى فى أجهزة البلاد، وأدى ذلك

---

(٣٤٣) محمد مورو: الحركة الإسلامية فى مصر، ص ١٠٦ - ص ١٠٨.

إلى شعور قومى ينمو فى النفوس للتخلص من هذا الفساد، والقضاء على رأسه الذى تمثل فى الاحتلال الإنجليزى أولاً ثم السراى وأعوانها ثانياً. ونما هذا الشعور القومى أيضاً داخل الجيش كأحد القطاعات المتأثرة بما يجرى فى البلاد، وغداة حرب فلسطين ١٩٤٨ مترجم الجيش هذا الشعور القومى إلى كيان منظم أطلق على نفسه "الضباط الأحرار" وكان مشكلاً من مجموعة صغيرة من الضباط ذوى الرتب الوسطى فى الجيش المصرى وفى غضون سنتين تمكن هذا التنظيم من اكتساب أنصار جدد داخل صفوف الجيش.(٣٤٤)

وحدث آخر واجه مصر فى تلك الفترة وكان له تأثير كبير على إشعال فتيل الثورة وهو إلغاء معاهدة ١٩٣٦م.(٣٤٥) فى الثامن من أكتوبر ١٩٥١م. فمنذ ذلك اليوم بدأت مرحلة جديدة مع كفاح الشعب ضد الاحتلال البريطانى لمنطقة القناة وكانت الحوادث تتدرج وتتدافع يوماً بعد يوم نحو الثورة، وكان الكفاح الشعبى الذى قام به الطلبة والفدائيون على ضفاف قناة السويس من أكتوبر ١٩٥١م. إلى أواخر يناير ١٩٥٢م. ضد القوات الإنجليزية الذين اعتبر الشعب وجودهم فى مركز الغاصب المحتل لمنطقة القناة تجب محاربتهم حتى يرحلوا عن البلاد.

---

(٣٤٤) ناصر الأنصارى: المجمل فى تاريخ القانون المصرى، (سلسلة مكتبة الأسرة، القاهرة ١٩٩٨م)، ص٣٤٨ .

(٣٤٥) على الرغم أن وزارة النحاس أبدت تعاوناً كبيراً مع الملك فى تصريف مصالحه، إلا أن الملك ما لبث أن مل منها وأراد التخلص منها و تحميلها وزر الظروف الاقتصادية المتردية و كانت وزارة النحاس تحس بدنو أجل إقالتها فعمدت إلى لعبة سياسية إنقاذا لشعبيتها، فقامت بإلغاء معاهدة ١٩٣٦م، و تم ذلك فى مساء ٨ أكتوبر ١٩٥١م. و أقدمت الحكومة على هذه الخطوة فى ذلك التوقيت حتى تمنع الملك من إقالتها، لأن إقالتها فى ذلك الوقت سيجعلها تبدو أمام المصريين شهيدة الوطنية.

وقد استشهد فى هذه المواجهة عدد من شبابنا وطار صواب الإنجليز كل مطار، فارتكبوا على عادتهم الجرائم التى نذكر منها على سبيل المثال إزالة قرية كفر عبده فى السويس، وقتل السيدة أم صابر(٢٤٦)؛ وقد سقط فى هذه الأيام عدد من شهدائنا منهم الطيار أحمد عصمت، والصبى الصغير نبيل منصور(٢٤٧).

حين كانت الشرطة فى خدمة مصر

وقد بلغت الفدائية المصرية ذروتها فى وقفة بلوك النظام بالإسماعيلية ؛ فقد صدرت لهم الأوامر بألا يسلموا مبنى المحافظة للقيادة البريطانية، فحاصرت القوات البريطانية هذا المبنى فى الخامس والعشرين من يناير سنة ١٩٥٢م، وسددت إليه فوهات المدافع الثقيلة - وكان هذا وحده كفيلاً بأن تتخلع له قلوب جنودنا البُسلاء ممن لم يعدوا للمعارك الحربية، ولكنهم اعتصموا بالمبنى القديم، ووقفوا بالبنادق الصغيرة، ودافعوا عن مواقفهم فى قوة وثقة بالنفس، ولم يتخلوا عن مواقفهم وهم يتساقطون الواحد إثر الآخر حتى بلغ عدد شهدائهم خمسين!.

ولم يكن ممكناً وقد وصلت الحوادث إلى هذا المبلغ أن تسير فى خطاها الوئيدة، ولذلك لم تكد تطلع شمس ٢٦ من يناير سنة

---

(٢٤٦) وشكلت مجموعة من النساء المصريات أول لجنة نسائية للمقاومة الشعبية تعاون وتساند الفدائيين فى كفاحهم المسلح ضد الاحتلال البريطانى فى القناة وقد سقطت عدة شهيدات أثناء عمليات المقاومة الشعبية فى القناة أشهرهن (أم صابر) التى استشهدت فى مدينة أبى حماد و (سيدة بندارى) التى استشهدت فى التل الكبير.

(٢٤٧) أحد الفدائيين الأبطال استطاع أن يشعل النار فى معسكر الانجليز ولم يتجاوز عمره الحادية عشرة سنة ووقف ببطولة ضد الجنود الانجليز فى قاعدة القنال "معسكر الجولف فى بورسعيد" ..... فى أكتوبر سنة ١٩٥١، فكان أول شهيد للمدينة، أشعل قتله، نار الحماس والمقاومة.

١٩٤٢م. حتى ماجت القاهرة بحركة عنيفة من المظاهرات الثائرة بدأتها قوات بلوك النظام المعسكرة فى ثكناتها بالعباسية: فقد خرجت منها إلى الجامعة حيث حياها طلابها، واجتمعا معاً، ثم تدفق الجميع كالسيل إلى مقر رياسة مجلس الوزراء والحكومة فى حيرة من أمرها: أتساير هذا الاتجاه القوى، وتبلغ به مداه، وتأخذ للمعركة أهبتها، أم تتحول إلى حكومة بوليسية تقمع المظاهرات، وتعمل على استتباب الأمن؟ وكان كلا الأمرين يكلفها الكثير: فالتهيؤ للمعركة أمر شاق يدعو إلى الخروج من نطاق المسائل الشخصية والاعتبارات الحزبية، ويدعو إلى السهر والتعب، والتعرض للخطر والأذى، وقمع الحركات الشعبية يستتبع تحمل مسئولية هذا العمل، المادية إذا لم ينجح، ومساءلة التاريخ لو نجح.. ولذلك آثرت الحكومة، وآثر البوليس معها ـ ترك الأمور تضطرب وتتفاقم على غير هدى، وهيأت بذلك الفرصة لخصوم البلاد، ولغير المسئولين، وللطامعين من كل لون وجنس، فاشتعلت القاهرة ناراً!!..

ولم يكن أحد يدرى أن هذه النار تأكل بألسنتها التى أحاطت بالدور الكبرى، والمحال التجارية والفنادق،... تأكل الملكية والأحزاب، والاتجار بالوطنية والتمضمض بدماء الشهداء، والفُرقة، وتفتح الطريق لعالم جديد، ومبدأ جديد، ومصر جديدة[٣٤٨]..!!.

ففيما يشبه سكرات الموت طلب الملك إعلان الأحكام العرفية،[٣٤٩] ورحبت الحكومة بها، فاعتقلت قبل صدورها

---

(٣٤٨) أحمد عبد الرحيم مصطفى وآخرون: كفاحنا ضد الغزاة، ص ٢٩٦ ـ ص ٢٩٩.

(٣٤٩) عرفت مصر الأحكام العرفية لأول مرة عام ١٩١٤ إبان الحرب العالمية الأولى، ففى نوفمبر من ذلك العام فرضت قوات الاحتلال البريطانى الأحكام العرفية فى جميع أنحاء البلاد لحماية مصالح بريطانيا وقواتها الموجودة فى مصر، ولم =

خصومها، والفدائيين، وغيرهم، وغيرهم. . وفى ظل هذه الأحكام العرفية التى أعلنتها . . أقالها الملك.

وتوالت الوزارات : وزارة تحكم من ٢٧ يناير حتى آخر فبراير، واخرى تحكم من الأول من مارس حتى آخر يولية، وثالثة من الأول من يولية حتى ٢١ منه، وفى يوم ٢٣ يولية، والنظام القديم يفكر ويدير، ويبدئ ويعيد، وينقض ويبرم، كان مولود قد اكتملت شهور حمله، وتهيأ لاستقبال نور الحياة. . .

ثورة.. جيش.. أم ثورة شعب؟

ومع خيوط الفجر الأولى - كان النظام القديم، قد أسلم أنفاسه، وكان الطفل الجديد بين يدى أمه الحانية العطوف "مصر" تستقبله

= ترفع هذه الأحكام إلا بعد سنوات من نهاية الحرب العالمية المذكورة، وبعد إصدار السلطات المصرية عام ١٩٢٢ لما عرف بقانون التضمينات والذى يحمى الحكومة البريطانية وسلطاتها فى مصر من أية مسؤولية مدنية أو جنائية يمكن أن تترتب على الأحكام العرفية المذكورة.وفى أبريل ١٩٥٠ بادرت آخر وزارة وفدية برئاسة مصطفى النحاس إلى إعلان إنهاء الأحكام العرفية مع الإبقاء عليها جزئياً ولمدة سنة قابلة للتجديد بالمناطق الحدودية مع فلسطين وفى محافظتى سيناء والبحر الأحمر، على أن الوزارة نفسها عادت بعد أقل من عامين يوم ٢٦ يناير ١٩٥٢ إلى إعلان الأحكام العرفية فى جميع أنحاء البلاد ابتداء من مساء ذلك اليوم، وعين رئيس مجلس الوزراء مصطفى النحاس حاكماً عسكرياً عاماً لممارسة السلطات الاستثنائية المنصوص عليها فى القانون، ثم لم يلبث أن حل محله فى ذلك رئيس الوزراء التالى نجيب الهلالى بعد إقالة الوزارة الوفدية. واندلعت ثورة يوليو ١٩٥٢ ومصر تحت الأحكام العرفية، ولم تكن الثورة بحاجة إلى هذه الأحكام لتأمين نفسها وتحقيق أهدافها بعد أن ركزت الثورة السلطات جميعها فى يد مجلس قيادة الثورة، وحلت الشرعية الثورية محل الشرعية الدستورية بعد إلغاء الدستور الملكى القائم فى العاشر من ديسمبر ١٩٥٢، واستمر حكم البلاد بقرارات وإعلانات صادرة من مجلس قيادة الثورة إلى تاريخ العمل بدستور ١٦ يناير ١٩٥٦ الدائم فى شهر يوليو من ذلك العام.

بعد طول العناء والسهر وجهد عظيم من الآلام ومرير الصبر. وتأمل العالم كله فى وجه هذا المولود، وأخذ كل يستقرئ ملامحه ويحاول أن يتكهن: ماذا يكون؟ وكيف يحيا؟ وأى شىء يريد؟...

كانت قد توفرت فى مصر كل شروط "الروح الثورية" عدا التنظيم القادر على قلب الأمور، وفى فجر ٢٣ يوليو ١٩٥٢م قامت مجموعة يطلق عليها اسم "تنظيم الضباط الأحرار" بانقلاب عسكرى أعلن فى بدايته أنه حركة تصحيحية داخل الجيش، وبرز اللواء محمد نجيب كزعيم للضباط الشبان أو كزعيم مختار منهم ليقود البلاد. وفى السابعة والنصف صباحاً سمع المصريون البيان الأول للحركة يلقيه محمد أنور السادات باسم القائد العام للقوات المسلحة يفسر فكرهم عن سبب الانقلاب للشعب ورد فيه: "اجتازت مصر فترة عصيبة فى تاريخها الأخير من الرشوة والفساد وعدم استقرار الحكم، وقد كان لكل هذه العوامل تأثير كبير على الجيش، وتسبب المرتشون والمغرضون فى هزيمتنا فى حرب فلسطين. وأما فترة ما بعد الحرب، فقد تضافرت فيها عوامل الفساد وتآمر الخونة على الجيش، وتولى أمره إما جاهل أو فاسد حتى تصبح مصر بلا جيش يحميها، وعلى ذلك فقد قمنا بتطهير أنفسنا، وتولى أمرنا فى داخل الجيش رجال نثق فى قدرتهم وفى خلقهم وفى وطنيتهم، ولابد أن مصر كلها ستتلقى هذا الخبر بالابتهاج والترحيب.".

وفى ٢٥ يوليو ١٩٥٢م. وصلت قوات الجيش المصرى إلى الإسكندرية حيث كان الملك فاروق فى قصره. وفى اليوم التالى أُرغم على التنازل عن العرش لابنه أحمد فؤاد، وسُمح له بمغادرة البلاد دون أذى، وأبحر يخته فى السادسة مساء متوجهاً إلى

إيطاليا، حيث عاش هناك حتى مات، وتم تكليف على ماهر برئاسة الوزارة، وتم تشكيل مجلس وصاية على الملك الصغير.

جاء تدخل الجيش بانتهاء عهد، وبدء عهد جديد من تطور مصر السياسى، فمع ثورة ١٩٥٢م، بدأت صفحة جديدة من تاريخ مصر ونظامها السياسى. وانعكست خصائص تنظيم الضباط الأحرار على سمات نظام الحكم الذى تبلور بعد عام ١٩٥٢م.(٣٥٠)

شعر قادة ثورة يوليو ١٩٥٢ فور وصولهم الحكم أنهم بحاجة لتنظيم شعبى يمثلهم فى المجتمع بعد أن كان حزب الوفد هو أكبر حزب سياسى يحوز الأغلبية فتم حله كما تم حل جميع الأحزاب عام ١٩٥٣، واستثنيت حركة الإخوان المسلمين فى البداية ثم ما لبثت أن حُلت بعد أن اصطدمت بالثورة عام ١٩٥٤.

وأنشأ ثوار يوليو أول تنظيم سياسى يعبر عنهم وكان اسمه "هيئة التحرير" من عام ١٩٥٣حتى ١٩٥٦، وبعد حرب السويس عام ١٩٥٦ أنشأ الثوار تنظيما جديدا تشرف عليه الدولة أطلق عليه اسم "الاتحاد القومى" واستمر هذا التنظيم فى العمل من أوائل عام ١٩٥٧ حتى ما بعد انفصال مصر عن سوريا وانتهاء تجربة الجمهورية العربية المتحدة عام ١٩٦١.

فى نوفمبر١٩٦١ عقدت اللجنة التحضيرية للمؤتمر الوطنى للقوى الشعبية اجتماعها الاول، وفى مايو ١٩٦٢ عُقد المؤتمر الوطنى للقوى الشعبية لاختيار قيادات من النقابات المهنية والعمالية والاتحادات الطلابية موزعة جغرافياً، وتم إعلان "الميثاق الوطنى" والإعلان عن تأسيس "الاتحاد الاشتراكى العربى" كتنظيم سياسى شعبى جديد بدلاً من "الاتحاد القومى".

---

(٣٥٠) راجع محمود عزت: ثورات مصرية، مجلة ذاكرة مصر المعاصرة، العدد السابع، الإسكندرية ٢٠١١م)، ص ٦٨ - ص ٧٦.

وبعد سنتين من تأسيس "الاتحاد الاشتراكى العربى" الذى يقوم على تحالف قوى الشعب العاملة تم تأسيس تنظيم داخل الاتحاد الاشتراكى سراً لمن يضمن ولاءهم سمى "التنظيم الطليعى" ولا أدرى ما حاجة نظام يتحكم فى الدولة كلها إلى إنشاء تنظيم سرى.

فى نفس العام ١٩٦٤ تم تأسيس "منظمة الشباب الاشتراكى" كتنظيم مكتمل من القاعدة للقمة لكنه يتبع الاتحاد الاشتراكى أى أحد تنظيماته وإن كانت تشكيلاته شبه مستقلة عنه، ويتبع أمين الاتحاد الاشتراكى الذى كان فى ذلك الوقت على صبرى.[٣٥١]

تشكل وعى الشباب فى المنظمة على أفكار هى خليط بين الماركسية والاشتراكية والقومية والإسلام وإن كان المكون اليسارى الماركسى أكبر فمال معظم خريجى المنظمة إلى الفكر اليسارى الماركسى، وقاد عدد من قيادتها فيما بعد مظاهرات عام ١٩٦٨ احتجاجاً على محاكمات ضباط الطيران المتسببين فى الهزيمة، وكان هذا دافعاً للرئيس عبد الناصر لأن يأمر بتجنيد بعض قيادات المنظمة الموالين للنظام الحاكم فى "التنظيم الطليعى" التشكيل السرى، ومنع منظمة الشباب من النشاط فى الجامعات والسماح فقط للتنظيم الطليعى. وكل هذه التنظيمات لم تكن أحزاباً سياسية حقيقية، بقدر ما كانت منظمات تقوم على حشد وتعبئة الملايين وتدار عادة بطريقة بيروقراطية سلطوية بحيث تغيب عنها تقاليد الديموقراطية الحزبية؛ للتضييق على الحريات ومنع الأحزاب والقوى السياسية المخالفة وذلك منذ حل الأحزاب جميعاً ثم حل الإخوان واعتقالهم واعتقال الشيوعيين وانتهاك حقوق الإنسان بشكل كبير فى السجون والمعتقلات. قامت الدولة بتأميم السياسة

---

(٣٥١) نقلاً عن منشورات مركز الدراسات الاشتراكية الثورية بمصر.

واختزالها فى حزب واحد هو حزب السلطة بمراحله الثلاث (هيئة التحرير، الاتحاد القومى، الاتحاد الاشتراكى).

سنوات الانكسار..

فى عصر ثورة يوليو - مع الاعتراف بأنها مارست السلطوية بمعنى احتكار العمل بالسياسة لتنظيمات الثورة المختلفة (هيئة التحرير، الاتحاد القومى، الاتحاد الاشتراكى العربى) - الثورة كان لديها مشروع أساسى وهو تطبيق العدالة الاجتماعية، وتقنين سياسة تكافؤ الفرص، والنهوض بالطبقات الفقيرة، ورفع الحصار الذى كان سائداً فى العصر الملكى عن الطبقة الوسطى.

كان هناك للأمانة والتاريخ مشروع ثورى للنهضة، ولكنه تعثر لأنه طار بجناح واحد هو العدالة الاجتماعية التى أشبعت حاجات أساسية لدى الجماهير، ولكنه أغفل الجناح الثانى وهو الحرية السياسية.

ولعل فى ذلك يكمن أحد الأسباب العميقة لهزيمة حزيران ١٩٦٧، لأن التضييق على الحريات السياسية ومنع حرية التفكير وحرية التعبير وسيادة الإعلام الموجه، هى ما مكن مراكز القوى الفاسدة من أن تهيمن على المجتمع، مما أدى إلى الانحراف فى مجال تحقيق برنامج ثورة يوليو ١٩٥٢.

وتزامن الأمر مع جود شرائح أخرى معادية للنظام ممن تأثروا بالتأميم أو مصادرة الأراضى أو حل الأحزاب والجماعات، وكان آخرهم اعتقال الإخوان عام ١٩٦٥، اعتقال الإخوان المسلمين فى أغسطس ١٩٦٥ بالآلاف، وجرت محاكمات وأُعدم عدد من قادة الجماعة على رأسهم المفكر والكاتب سيد قطب، وسُجن وشُرد الكثير وتم استئصال الإخوان من الحياة السياسية وبالطبع هؤلاء

أثروا فى دوائر محيطة بهم ومتعاطفة معهم مما وفر مناخاً سلبياً كان بمثابة تهيئة سلبية لأجواء ما قبل هزيمة يونيو ١٩٦٧.

ترك إخفاق ٦٧ أثراً كبيرا على الحالة الشعبية فى مصر التى كانت قبل الحرب هى الرائدة للحالة العربية، وفى بقية العالم العربى عموما. لم يكد الشعب المصرى يستيقظ من صدمة الإخفاق التى ألقتها إسرائيل بجيوش ثلاث دول عربية هى الأردن وسوريا ومصر واحتلالها للضفة الغربية وهضبة الجولان وشبه جزيرة سيناء خلال حرب يونيو ١٩٦٧، حتى بقرار الرئيس جمال عبدالناصر يوم ٩ يونيو بالتنحى عن منصب الرئاسة سبب الهزيمة.

وبعيد انتهاء عبد الناصر من إلقاء خطاب التنحى خرج مئات ألوف المصريين إلى الشوارع فى مظاهرات استمرت يومين مطالبين ناصر بالعودة عن قراره. واعتبر المراقبون الزخم الشعبى المتمثل بالمظاهرات عامل شحن حفز الجيش المصرى على القتال لاستعادة الأرض المحتلة.

لم يكن عام ١٩٦٧ سوى "بروفة ثورية" للانتفاضة، فازدادت عدد المظاهرات الطلابية المنددة بالهزيمة، واقتحامات مراكز الشرطة، وإضرابات عمالية ضخمة فى المحلة وحلوان وتمرد شباب الجامعات المصرية بقيادة منظمة الشباب الاشتراكى التى أنشئت لتكون الذراع الشبابية للنظام الناصرى وذلك مرتين فى سنة واحدة عام ١٩٦٨ فى فبراير عقب محاكمات الهزيمة،[٣٥٢] وفى نوفمبر من

---

(٣٥٢) وفى فبراير ١٩٦٨ خرج عمال النسيج الحربية ومصنع الطائرات بحلوان فى مظاهرات كبيرة احتجاجًا على الأحكام الهزيلة التى أصدرتها إحدى المحاكم على قادة الطيران فى حرب ١٩٦٧ فى تهمة تسببهم فى الهزيمة. كانت تلك هى أولى بوادر النهوض الثورى بعدما يقرب من ١٥ عامًا من السبات فى ظل حكم القبضة القوية لعبد الناصر. وفى السنوات التى تلت ١٩٦٨ وحتى عام ١٩٧٧ شهدت الحركة العمالية موجتين احتجاجيتين فى ٧١ – ١٩٧٢ و٧٥-١٩٧٧.

نفس العام احتجاجاً على قمع طلاب المدارس الأزهرية والثانوية فى مدينة المنصورة، وكانت مطالب الشباب تتركز على الحريات ومواجهة مراكز القوى والفساد والسعى لتحرير الأرض المحتلة.

وبرحيل عبد الناصر المفاجئ عام ١٩٧٠، وقع انقسام فى صفوف النخبة الحاكمة المصرية حول المنهج الذى يجب إتباعه إزاء قضايا الاقتصاد، وإسرائيل، والغرب (أمريكا)... فرأى جناح من البيروقراطية ضرورة التمسك بالنهج الناصرى القديم، فى حين رأى جناح آخر بزعامة السادات ضرورة التقرب إلى الغرب، وإسراع خطى تحرير الاقتصاد. واستمر الانقسام قائمًا حتى بعد خروجه منتصرًا فى "ثورته التصحيحية" فى١٥ مايو ١٩٧١.

سنوات النصر والانفتاح

ولكنه كان قد نادى بأن١٩٧١ هو عام الحسم لتحرير الأرض المحتلة، ومر عام ١٩٧١ دون حسم فخرجت مظاهرات غاضبة من طلاب الجامعات فى فبراير١٩٧٢ وتصادمت مع السلطة وأجهزة الأمن واعتقل العشرات، لكنها كانت وسيلة ضغط ناجحة وكانت دافعاً لحدوث معركة العبور عام ١٩٧٣م

وساهم هذا الارتباك – فى صفوف النخبة الحاكمة – فى إعطاء الفرصة للحركة الثورية الشعبية كى تتصاعد وتنضج... فاشتعلت الحركة الطلابية ابتداء من عام ٧٢ لتصبح كابوسًا يجثم على صدر السادات وطبقته الحاكمة تزامن ذلك مع ازدياد حالات الفساد التى كان "الماس الكهربائى" كفيل لإخفاء معالمها... رغم أن الفساد كان موجودا فى مصر قبل ثورة ٢٣ يوليو عام ١٩٥٢ وبعدها، فإن الجديد منذ عام ١٩٧٤م هو تحول الفساد من مجرد انحرافات شخصية آخذة فى الاتساع إلى بنية مؤسسية متكاملة

طالت المؤسسات الصناعية وغيرها.. ليدخل عمال المصانع إلى ساحة الثورة والاحتجاجات بحلول عام ١٩٧٥ بإضرابات ضخمة فى أهم المناطق الصناعية بحلوان والمحلة وشبرا الخيمة والإسكندرية.

كان قد تبلور تيار ماركسى فى الجامعات أوائل السبعينيات كل رموزه وقادته من خريجى منظمة الشباب الاشتراكى. وظهر تيار قومى ناصرى بدأ يبتعد عن تجربة الدولة الناصرية ويوجه لها نقدا وخاصة فيما يتعلق بالحريات وحقوق الإنسان. صاحبه ظهور تيار إسلامى جديد مستقل عن الإخوان تقاسم السيطرة على الحركة الطلابية فى السبعينيات مع التيارين الآخرين، ثم انضم عدد كبير من رموز التيار الإسلامى إلى الإخوان نهاية السبعينيات.

شهدت مصر فى ١٨ و١٩ يناير ١٩٧٧ انتفاضة شعبية[٣٥٣] على نظام الرئيس أنور السادات فى جميع المدن الرئيسية تقريبا من الإسكندرية إلى أسوان مرورا بالقاهرة بسبب مضاعفة أسعار مواد غذائية أساسية بينها الخبز.

---

(٣٥٣) اندلعت الشرارة الأولى لانتفاضة يناير بخطاب نائب رئيس الوزراء للشئون المالية والاقتصادية، الدكتور عبد المنعم القيسونى، أمام مجلس الشعب فى ١٧/١ بمناسبة تقديم مشروع الميزانية ١٩٧٧ حيث أعلن إجراءات تقشفية لتخفيض العجز، ومنها تخفيض الدعم للحاجات الأساسية بصورة ترفع سعر الخبز بنسبة ٥٠٪ والسكر ٢٥٪ والشاى ٣٥٪ وكذلك بعض السلع الأخرى ومنها الأرز وزيت الطهى والبنزين والسجائر وربط هذا بضرورة الاتفاق مع صندوق النقد الدولى والبنك الدولى لتدبير الموارد المالية الإضافية اللازمة. وقد بدأ التنفيذ الفعلى فى يومها أى قبل الإعلان أمام مجلس الشعب، فرفع التجار وبعض المحلات أسعار المواد الغذائية، وكذلك فعلت المطاعم الصغيرة على الفور، فأحست الجماهير بالكارثة مباشرة فضلاً عن إذاعة الخبر فى الراديو والتليفزيون.

السبب المباشر لقيام الانتفاضة هو استيقاظ الشعب المصرى فى صباح ١٨ يناير على قرار حكومى يقضى برفع أسعار سلع أساسية مثل الخبز والشاى والأرز والسكر واللحوم والمنسوجات وغيرها من السلع الضرورية بنسبة تصل إلى الضعف.

وفرض حظر التجوال ونزل الجيش إلى المدن للسيطرة على المظاهرات وأعمال التخريب التى استهدفت المبانى الحكومية والمحلات التجارية واعتقل الآلاف من المتظاهرين من العمال والطلبة.

ورغم اضطرار الحكومة للتراجع عن قرار رفع الأسعار ,واصل السادات وصف الانتفاضة فى خطبه بـ"انتفاضة الحرامية" بسبب أعمال سلب استهدفت المجمعات الاستهلاكية خلال الأحداث.

ويمكن القول بوضوح أن ما حدث لم يكن "أعمال شغب" أو كما أسماه السادات "انتفاضة حرامية"، فقد تحركت الجماهير بطريقة عفوية نزلوا إلى الشوارع فى مظاهرات قوية، وبشعارات ثورية تتعلق بالحريات السياسية والعدالة الاجتماعية، وتدخلوا أكثر من مرة (بشهادة تقارير المباحث) لوقف أعمال التخريب، ولم تتعرض الجامعات والغالبية العظمى من المصانع لأعمال تخريب.

لقد بدأ العنف الشعبى عندما أطلقت الحكومة وسائل قمعها ضد المظاهرات السلمية، فاستخدمت قوات الأمن الرصاص الحى والمطاطى وقنابل الغاز، والركل والسحل ضد المتظاهرين معًا أدى سقوط ما يقرب من ٨٠ شخصًا وأثبتت التحقيقات والدراسات أن من قاموا بأعمال التخريب والنهب كانوا بالأساس عناصر من المهمشين فى المدن والأحداث، وليس العمال أو الطلبة وحتى هؤلاء لم يستهدفوا مصالح عشوائية، بل وجهوا تخريبهم وعنفهم لرموز

السلطة والفساد مثل مراكز الشرطة، مقر الحزب الحاكم، الكازينوهات الليلية الخ. . .

ما أشبه اليوم بالبارحة، فالظروف الموضوعية لاشتعال انتفاضة ثورية فى شوارع وميادين مصر قبل ٢٥ يناير كانت موجودة بصورة أقوى من السبعينات. فالأزمة الاقتصادية كانت تنهش دعائم النظام وتدفعه إلى الهجوم بشراسة على حقوق ومكتسبات الشعب. وعمّ الارتباك صفوف الطبقة الحاكمة المصرية إزاء التصرف حيال تلك الأزمة، وقد سقطت شرعية مرتكزات برنامج النظام فى التسعينيات، والمعتمدة على "الإصلاح الاقتصادى" فى الداخل، ومشروع "السلام" فى المنطقة ولعبت القضية الفلسطينية والمنشآت الحدودية مع فلسطين دورًا تثويريا قويًا فى الساحة السياسية العربية والمصرية، كاشفة بوضوح رخاوة الأنظمة العربية، بالإضافة إلى مشاعر السخط العنيفة التى عمت الشارع المصرى إزاء الهيمنة الأمريكية وهمجيتها تجاه دول المنطقة. وإزاء الخنوع المذل الذى أظهره نظام الرئيس مبارك وباقى الأنظمة تجاهها.

بعد انتصار أكتوبر ١٩٧٣ والانفتاح الاقتصادى والتعددية الحزبية المقيدة التى أطلقها السادات، فاجأ الرئيس الجميع بذهابه إلى القدس فى نوفمبر ١٩٧٧، ثم التوقيع على إطار السلام فى كامب ديفيد عام ١٩٧٨ ثم اتفاقية السلام عام ١٩٧٩ بين مصر وإسرائيل، وخرج من الموقف العربى الموحد إلى الموقف المنفرد، وهو الأمر الذى أحدث منذ ذاك الوقت وحتى الآن شرخا بين توجهات الحكومة المصرية وتوجهات الشعب.[٣٥٤]

---

(٣٥٤) أبو العلا ماضى: الحالة الشعبية العربية بين حرب ٦٧ واليوم، الجزيرة، المعرفة ٢٠٠٧/٥/٢٤م.

المخاض..

وشهدنا الصعود التدريجى فى عدد الإضرابات الشعبية فى السنوات القليلة الماضية (بالرغم من اتسامها بالعفوية) والانفجاريات التظاهرية الشعبية فى أحداث ضرب العراق، ثم التضامن مع الانتفاضة، يوضح جليًا حالة الغليان الشعبى ضد النظام، ووجود فرص جيدة لبث الروح الثورية فى المشهد السياسى، والجسد المصرى العليل.

ولم يعد مستحيلا إذن أن تعود مصر إلى روحها. فهى ليست استثناء فى التاريخ. ولا هى أول مرة تغفو فيها. فطالما مرت عليها فترات مشابهة إلى أن يظهر فيها روح مصرية تثور.. ضد القهر.. ضد اللامألوف واللاإنسانى.. ضد الجموح.. الهيمنة.. ضد الطبقية. . حالة الموت ما قبل الموت. لتغيرها، وتعيد الثقة إلى نفسها، وتجسد سياسات بديلة، وتصحح مسارها، وتعيدها إلى تاريخها، وتبعث روحها، ولتجسد الحلم العربى، وترد إلى العرب وجودهم وثقلهم فى التاريخ.

ولم لا؟.. لقد تم تخصيب مصر من قبل ضد فترة العقم الأخيرة. وبدأ الطلق منذ اعتصام الطلبة فى ميدان التحرير عام ١٩٧١، ومظاهرات يناير ١٦، ١٧ يناير ١٩٧٧، والأمن المركزى[٢٥٥] فى

(٢٥٥) انفجرت انتفاضة جنود الأمن المركزى فى منطقة الأهرامات مساء يوم الثلاثاء ٢٥ فبراير ١٩٨٦ وتطورت على نحو واسع فوجئ بها الجميع، وقد انطلقت الانتفاضة من معسكرين من معسكرات الأمن المركزى يقع أولهما على الطريق بين القاهرة والفيوم، ويقع الثانى على الطريق بين القاهرة الإسكندرية. ففى السادسة من مساء ذلك اليوم بدأ ثمانية آلاف جندى مظاهرات احتجاجية بعد أن ترددت بينهم أنباء تفيد بأنه تقرر مد فترة التجنيد الإجبارى لأفراد الأمن المركزى من ثلاث سنوات إلى أربع سنوات، وأن تخفيضا صغير سوف يلحق بمرتبات الجنود لسداد ديون مصر!! وتطورت الأحداث بعد ذلك فيما يشبه =

١٩٨٦حتى مظاهرات عمال المحلة فى أبريل ٢٠٠٨. وشهدت عام ٢٠٠٩م، أكثر من (١٨٥) احتجاجاً عمالياً، و(٨١) اعتصامًا، و(٣٧) إضرابًا، و(٣٦) مظاهرة، و(٢٥) وقفة احتجاجية، و(١١) تجمهراً. وتحتل مصر المركز (١٤٣) من بين (١٧٥) دولة فى العالم، من حيث تقييد حرية الصحافة، ومطاردة الصحفيين المعارضين بالدعاوى القضائية، خاصة فى ظل سريان قانون الطوارئ الذى بدئ العمل به بشكل متصل منذ عام ١٩٨١م، بما افقده صفة الاستثنائية،[٣٥٦] نتيجة طول فترة العمل به، ومعه أو ضده يتسارع الطلق ويحمى. وبدأت الولادة لتعود مصر إلى روحها مع نسمات يوم ٢٥ يناير.

اختيار الخامس والعشرين من يناير لإطلاق المظاهرات لم ينبع من الصدفة. والزلزال الذى ضرب أجهزة الشرطة من الثامن والعشرين إلى يومنا هذا ليس نابعا من الفراغ. فقد تعود المصريون منذ سنين على الشرطى الذى يقبل بقشيشا، على ناصية الشارع، مقابل التغاضى عن مخالفة مرورية وعلى صور الفيديو التى تنقل حفلات التعذيب داخل الأقسام، وعلى البلطجية أيام الانتخابات والمظاهرات.

وبات الأمن العام بغياب أجهزة الشرطة أوعودتها على استحياء، عملية مقايضة مفادها إما الديمقراطية والانفلات الأمنى أو الشرطة بشروطها التى كانت عليها فيما قبل. وبقراءة التاريخ يمكن

= انتفاضة شاملة امتدت إلى ستة معسكرات مختلفة من الجمهورية (القاهرة، والجيزة، والقليوبية، وسوهاج، وأسيوط، والإسماعيلية).كان طبيعياً أن يثير خبر مد فترة التجنيد ثائرة جنود الأمن المركزى، الذين تراوح عددهم الإجمالى فى تلك السنة بين ٣٠٠ و٤٠٠ آلف جندى، معظمهم من أبناء معدمى الريف وفقراء الفلاحين الذين تفضل القوات المسلحة إحالتهم إلى قوات وزارة الداخلية لقضاء تجنيدهم الإجبارى بها.

(٣٥٦) محمد حافظ دياب: انتفاضات أم ثورات، ص.٢٢٧

أن نكتشف أن هيئة الشرطة تمتعت فى مصر القديمة باستقلالية كاملة عن الجيش والقضاء وكان لها منهج تسير عليه يضعه الملك بنفسه. ففى وصايا الملك تحتمس الثالث لوزيره نجده يقول له" تذكر أن منصب الوزير مر كالصبر، لا تتخذ أفراد الشعب عبيدا، يجب أن تراعى من لا تعرفه كمن تعرفه، وأعلم أن هيبة الأمير فى أن يكون عادلا". وهى نفس المبادئ التى أصبحت إنسانية آلاف السنين فيما بعد وهى ذاتها التى نادت بها مظاهرات الشعب المصرى فى ثورة ٢٥ يناير.

يجب قراءة ما يحدث الآن على ضوء تاريخ طويل من المد والجزر فى علاقة لم تكن يوما فى إطار وردى. ويمكن المجازفة بالقول أن ما يحصل الآن هو أكبر منعطف فى هذه العلاقة التى وصلت إلى أسوأ مستوياتها فى الثلاثين سنة الماضية لدرجة لجوء رجل الأمن إلى استعمال سلاحه حتى فى حالات فض نزاعاته الشخصية. وهو ما يمكن تسميته بالعنف العشوائى حيث يتوحد الضابط مع السلطة و"ينتقل من العمل للحفاظ على القانون ليصبح هو نفسه القانون". وهذا ما حدث مثلا عندما أطلق ضابط شرطة الرصاص على سائق ميكروباص بسبب خلاف مرورى شخصى.

مرد العنف الذى يكمن فى تكوين الشرطى" الذى يتعلم فى كلية الشرطة أن ممارسة العنف سوف تصبح جزءا أصيلا من عمله المستقبلى". يتم هذا التعليم وفق آليات محددة تقنع الطالب نفسيا أن العنف وسيلة مشروعة وتقضى على أى مساءلة للذات. " يحمل الفرد بيقين لكونه يعمل لصالح الوطن ولفرض النظام والأمن والاستقرار ومن ثم تصبح ممارسة العنف والتعذيب ضد كل من يرغب فى زعزعة المفردات السابقة أمرا واجبا ومشروعا...".

وتندرج بالتالى أى معارضة للنظام تحت طائلة زعزعة الأمن "إذ لنا أن نتصور أن عمل الشرطة بات يتلخص فى حماية النظام من المجتمع...". ودخلت العلاقة بين الشرطة والمواطن فى دائرة السيد والعبد بفعل ما أعطى للجهاز من سلطات وقوة مفرطة اتخذت أبعادا واسعة على مر السنين خاصة تحت نظام مبارك لدرجة أن العنف أصبح ممنهجا.

هذه العلاقة فى عهد عبد الناصر لم يكن العنف سمة هذه العلاقة بالعكس حيث كان " الشرطى والمواطن فى مركب واحد". وانصب الهجوم الأمنى فى هذه الفترة على معارضى السلطة والنظام عن طريق جهاز أنشئ لهذا الغرض سنة ١٩٦٨م. الا وهو مباحث أمن الدولة.

فى عهد السادات تراجع العنف ضد الخصوم السياسيين ليتحول تدريجيا إلى المواطن العادى فى بعض الحوادث لكنها " ظلت مجرد استثناءات لا تشكل منهجا ولا سلوكا". لكن بطش النظام بمعارضيه لم يتوقف فى الحقبتين حيث أن أوامر الاعتقال وصلت إلى ١٤ ألفا فى ظل عبد الناصر وزادت فى عهد السادات لتطول شرائح أوسع " هذا التزايد ربما يعكس بداية الخلل فى تصنيف النظام لأعدائه وتوسيع دائرة الخصوم". الدائرة وصلت فى عهد مبارك إلى المجتمع بأسره ليبدأ عهد من العنف المنهجى، تجلى فى الصور التى سجلت أيام الثورة.

هذا العنف أخذ صورا مختلفة على مدى ثلاثين عاما، تجسدت فى العقاب الجماعى لمنطقة أو قرية تحاصر مثلا لمدة أيام أو إطلاق الرصاص بصورة عشوائية على حى عقابا له إثر احتجاج ما. ناهيك عن التعذيب فى أقسام البوليس الذى تطور إلى عنف

خارجها " صار من الأوفق أن يُعذب الشخص أمام جمع من الناس أو تصويره بحيث تكسر إرادته. . . إذ يتأكد الجميع من عدم جدوى المقاومة" بهذه الأساليب نصبت الشرطة نفسها فوق القانون.(٢٥٧)

استشعر العديد من الكُتاب والمحللين بحدس غامض أن هذا الوضع لن يستمر بعدما دمر نظام مبارك القوة الفاعلة لمصر تماماً وبغباء سياسى نادر نجح فى استعداء وتوحيد ٨٠ مليون مصرى ضده حتى الفسدة منهم، لأن الجميع اكتشف أنه يحتاج إلى أن يعيش فى دولة حقيقية مهما كان مكسبه من الفساد، فقد الجميع الشعور بالأمان واحترام الذات القوت الأساسى للشخصية.

لعل عند هذه النقطة تجيء مسئولية علماء الاجتماع والتاريخ، فهم لم يشرحوا لنا بما يكفى آلية التمرد والثورة داخل تاريخ هذا الشعب، تلك الغريزة التى تنطلق فجأة كغريزة النمل، كالرائحة لتدفع بالمصريين جميعاً من دون اتفاق مسبق إلى فعل معين فى وقت معين. ليفاجئوا الجميع فى لحظة معينة بالتمرد والثورة يكاد يكون تاريخنا الحديث كله- باستثناءات قليلة - مفاجآت من هذا النوع غريزة غير متوقعة، تنشط فجأة يتنادون بها ويتفقون لأن يفعلوا شيئاً واحداً بغير زعماء، ولا توجيهات ولا أفكار كبرى أو فلسفات كلية، أمر يفاجئ المثقفين والمهتمين طوال الوقت.

واسطة العقد.. ثورة شعب ٢٥ يناير

بعد ساعات قليلة وقف العالم مشدوهًا مشدودًا أمام ثورة ٢٥ يناير ٢٠١١م كأول ثورة شعبية مصرية خالصة فى القرنين العشرين

---

(٢٥٧) لمزيد عن علاقة الشرطة بالشعب راجع الدراسة القيمة لبسمة عبد العزيز: "إغراء السلطة المطلقة" (مسار العنف فى علاقة الشرطة بالمواطن عبر التاريخ)، ط ـ.دار صفصافة للنشر والتوزيع والدراسات، القاهرة ٢٠١١م).

والواحد والعشرين، تنجح فى قلب نظام الحكم، وإعادة صياغة مصير الشعب المصرى، لتبدأ كثورة شعبية شبابية سلمية صباح يوم الثلاثاء ٢٥ يناير ٢٠١١م والذى وافق عيد الشرطة المصرية. حددته عدة جهات من المعارضة المصرية والمستقلين، من بينهم حركة شباب ٦ إبريل، وحركة كفاية، ثم انضم شبان الإخوان إضافة لعدد من الحركات الشبابية المحدودة، وكذلك مجموعات الشبان عبر موقع التواصل الاجتماعى"facebook" احتجاجًا على الأوضاع المعيشية والاقتصادية والسياسية السيئة وكذلك على ما اعتبرته فساداً فى ظل حكم الرئيس محمد حسنى مبارك.

الثورة أيضًا كانت تتويجا لعقد كامل من النشاط السياسى؛ إذ تميز العقد الأول من القرن العشرين بنشاط شبابى كبير؛ حيث شارك الشباب بشكل بارز فى العديد من الحركات والأحزاب التى لعبت دورا رائدًا فى هذه الفترة مثل اللجنة الشعبية لدعم الانتفاضة وحركة كفاية وحزب الغد كما قام نشطاء من الشباب بتأسيس العديد من الحركات الخاصة بالشباب مثل حركة شباب من أجل التغيير، وحركة٦ أبريل، وحركة تضامن، وحركة مايحكمشى، كما تأسست الجمعية الوطنية للتغير لدعم البرادعى... الخ.

السنوات العشرة هذه شهدت زيادة هائلة فى التفاعلات فى الفضاء الالكترونى وهو ما مثل سيولة فى التنظيم وسهل التواصل بين الأعضاء من خلال القوائم البريدية، وإرسال التدوينات أو الأنشطة التفاعلية من خلال الردود والتعليقات، وبنهاية عام ٢٠١٠م - أى قبيل قيام الثورة بأقل من شهر - ذكرت بعض التقارير أن صفحة "كلنا خالد سعيد" حظيت بمايزيد عن ٤٣٩ مليون متابعة

وأكثر من ٢ مليون تعليق خلال سبعة أشهر من يونيو إلى ديسمبر ٢٠١٠م فى حين وصل أعضاء المجموعة إلى حوالى٢٥٠ ألف مشترك وهو الرقم نفسه الذى حققته صفحة الدكتور محمد البرادعى، ومن الأهمية بمكان التأكيد على الدور الذى قامت به صفحة "كلنا خالد سعيد"، فى تفجير ثورة٢٥ يناير، كما أنه لا يقل أهمية ما صنعه الدكتور محمد البرادعى فى الحياة السياسية المصرية وتنزيل (download) عملية "حلم التغيير" إلى أرض الواقع.(٢٥٨)

ومن هنا نؤكد أيضًا على الدور الذى ساهم به موقع التواصل الاجتماعى "facebook" فى انتشار تفاعلات القوى السياسية من جانب وساهم فى التشبيك بينها وبين بعضها البعض من جانب آخر، بل أصبح من ناحية ثالثة هو الساحة الأساسية والمقر الرسمى لهذه القوى المتنوعة، فقد تحول إلى مؤتمرات وندوات يطرح فيه الجميع أفكاره، الفكرة الجيدة تلقى قبولا خلال ساعات محدودة وتتحول إلى العالم الحقيقى؛ حيث تمتلئ الشوارع بأعضاء العالم الافتراضى يتعرفون على بعضهم البعض بشكل مادى لينفذوا ما سبق واتفقوا عليه فى الـ "facebook"، لقد نجح شباب الـ"facebook" فى تحريك الحياة السياسية المصرية بشكل غير مسبوق. .

وقبل عام ونصف من الثورة قامت حركات المعارضة ببدء توعية أبناء المحافظات ليقوموا بعمل احتجاجات على سوء الأوضاع فى

---

(٢٥٨) عبده إبراهيم على:٢٥ يناير الرؤية والقوى والمستقبل، (مجلة الثقافة الجديدة، العدد ٢٤٨، القاهرة ٢٠١١م).

مصر ودعوة المصريين إلى التخلص من النظام وسوء معاملة الشرطة للشعب.

وسبق مشهد الثورة العديد من الوقفات الاحتجاجية فى ميدان التحرير بالقاهرة، والتى تراوحت من احتجاجات عمالية، ودعوات للعصيان المدنى فيما عرف بحركة ٦ نيسان/ أبريل، وتظاهرات الحركة المصرية من أجل التغيير - كفاية -، والوقفات التى تمت الدعوة إليها بعد حادث مُقتل خالد سعيد، ثم حادث تفجير كنيسة القديسين بالإسكندرية فى مطلع عام ٢٠١١ وما تلاه من نزول الكثيرين إلى الشارع، وتكرار مشهد التعذيب المفضى إلى القتل مع سيد بلال على هامش هذا الحادث. وتلا هذه الاحتجاجات إقدام بعض المواطنين المصريين على إضرام النار فى أنفسهم أمام مجلس الشعب الواقع بمنطقة الميدان فى أعقاب التغيير السياسى فى تونس. وهى جميعها وغيرها محطات اختلفت فى أهميتها وتأثيرها، إلا أنها كانت جميعها تعمل على تهيئة ميدان التحرير لمشهد٢٥ يناير-١١فبراير ٢٠١١.

أدت هذه الثورة إلى تنحى الرئيس محمد حسنى مبارك عن الحكم فى ١١ فبراير ٢٠١١م، عندما أعلن نائب الرئيس عمر سليمان فى بيان قصير عن تخلى الرئيس عن منصبه وأنه كلف المجلس الأعلى للقوات المسلحة إدارة شئون البلاد.

لقد كانت ثورة ٢٥ يناير سببًا فى اتفاق الجميع على أن الشبكات، والمجموعات الاجتماعية، وسائل الاتصال بين الأشخاص على شبكات الإنترنت لم يعد يقتصر دورها على مجرد وسيلة ترفيه أو حتى الدعاية والإعلان أو الترويج لأفكار؛ بل أصبحت وسيلة لإشعال المظاهرات، والمسيرات، والاحتجاجات، والاعتصامات، وأيام

الغضب، والمقاطعة، والإضرابات، لتشكل أعظم ثورة فى تاريخ المصريين يقودها الشباب الذين خرجوا من بيوتهم بعد انقطاع الإنترنت، وجميع وسائل الاتصال ليثبتوا أن الشرارة التى اشتعلت على الإنترنت والـ "facebook" خصوصًا لن تنطفئ وأن الثورة قد حلت علينا ولا مفر منها. لأن ماحدث فى ٢٥ يناير لم تشهده مصر منذ أحداث يناير ١٩٧٧ مع اختلاف أكبر، إن الذين خرجوا فى يناير ٢٠١١ لم يخرجوا حينما قرصهم الجوع بل خرجوا حينما قرصتهم الكرامة ووجعهم الإحساس بالغضب.

ولعل ظاهرة " اللجان الشعبية " من الظواهر التى أصابت النظام المصرى السابق فى مقتل، حيث باتت مصر كلها فى أيدى الثورة وخلعتها من يد النظام المصرى، مما أدى إلى بداية مسلسل التنازلات بإعلان مبارك عدم ترشحه لمدة رئاسة قادمة وتعيين عمر سليمان نائباً له وإقالة وزارة نظيف والإتيان بالفريق أحمد شفيق رئيساً للوزراء وتغيير وجوه النظام القديم، وتعيين وزراء جدد، واستحداث وزارات جديدة، حتى يثبت النظام للعالم أن الأمر لازال بيديه وأن الأمر لم يخرج من يده.

ثم بدأت مرحلة متطورة من مسلسل التنازلات حيث تم عزل أكبر قيادات الحزب الوطنى، ومنعهم من السفر وتجميد أرصدتهم. ولكن رجال الثورة وشبابها وشيوخها ونسائها وفتياتها أبوا أن يهدروا حقهم فى الثورة وتذوق طعم النجاح وعدم الرجوع للوراء إلى أن تحقق المراد، وسقط نظام امتد لـ٣٠ عاماً، ضارباً كل مقاييس الديمقراطية والتى تقوم على مفهوم أساسى "التغيير" و"الانتقال السلمى للسلطة".

لقد كانت ثورة ظافرة، جاءت بعد عقود من الإحباط، وتآكل الحقوق الوطنية والاجتماعية وحرمان الشعب المصرى من حقوقه ومن حاجاته الأساسية. استعاد بها المواطن المصرى القدرة على تقرير مصيره وصناعة المستقبل.(٣٥٩)

سيبقى ماحدث رسالة لم يفهمها نظام مبارك ولكن فهمها الناس حينما أدركوا أن قوتهم تكمن فى نفوسهم وليس فى الأحزاب الورقية أو الحركات الاحتجاجية وحدها التى - كانت غالبًا - تموت قبل أن تولد، مصر التى أردناها كانت موجودة يوم٢٥ يناير فى ميدان التحرير وكل ميادين الحرية فى مصر، لم تخش همجية رجال الأمن، ولا الصمت الجبان الذى أصاب رجال وعبيد النظام، مصر التى حلمنا بها تجلت فى ٢٥ يناير ومن تجلى فى يوم قادر على أن يتجلى بنور أسطع وأقوى مرة أخرى ليصيب كل ظالم بالعمى الكُلى.

وأخيراً تجب الإشارة إلى أن أسطورة أن العرب والمصريين لا يثورون وأنهم جُبلوا على الطاعة والاستسلام والخنوع قد انتهت. ليس فقط لأن الشعبين التونسى والمصرى ثارا بالطريقة التى نشهدها الآن، لكن لأن المعتقلات العربية مليئة بالنشطاء السياسيين منذ عقود، ولأن عواصم المنفى الأوروبى بها الآلاف من المعارضين العرب، ولأن جل القطاعات العمالية والمهنية احتجت وأضربت فى مصر، وبعضها يضرب ويحتج فى دول أخرى واليوم الشوارع العربية تغلى فى سوريا واليمن والمغرب والأردن والجزائر وموريتانيا، والبحرين وشرق السعودية. الأمر لا علاقة له بالجينات كما يتصور أو يروج البعض.

---

(٣٥٩) راجع محمود عزت: ثورات مصرية، ٧٦.

صحيح أن الشعوب تتفاوت فى قدرتها على الصبر، إلا أن الضغوط تولد الانفجار فى كل بقاع الأرض.(٢٦٠) والأمر متصل بعوامل كثيرة أهمها قدرة الحكومات على التخفيف من حدة الضغوط وابتداع أدوات جديدة لشراء الذمم وترغيب الناس فى الحفاظ على الوضع الراهن من جهة، وبالقدرات الفائقة على القمع والاختراق من جهة أخرى لكن فى النهاية قانون العدد هو المعيار الحاكم، فلا يمكن قمع الملايين فى الشارع، وعلى السلطة فى مصر إدراك أن الملايين التى خرجت لن تعود ولن تقبل بالالتفاف على مطالبها، والتاريخ لن يعود للوراء. وبعد.. نخلص من العرض السابق إلى أن ثورة المصرى لم تكن ضد الاستعمار فقط بل كانت ضد اسباب الظلم جميعها سواء جاءت من المستعمر أو من بنى جلدتنا المصريين..

---

(٢٦٠) عبد الفتاح ماضى: الثورة المصرية والحاجة إلى السياسيين، الجزيرة، المعرفة، ٦ /٢ / ٢٠١١م.

الفصل السادس

التنفيس منذ الكتابة الساخرة وحتى الفيس

ظلت كتابة التاريخ لآماد طويلة تركز على تاريخ النخب السياسة والاقتصادية والفكرية أى تاريخ (القمم) بحيث إنها نادراً ما تطرقت إلى تاريخ الناس العاديين الذين يقبعون فى "سفوح المجتمعات" إن صح التعبير. غير أنه حدثت فى العقود الأخيرة ثورة نظرية ومنهجية فى كتابة التاريخ بحيث أخذ يشتد الاهتمام بتاريخ المواطنين العاديين الذين تجاهلتهم الكتابات التاريخية التقليدية ردحاً طويلاً من الزمان وهى ما اصطلحنا على تسميته History from below. أى (التاريخ من أسفل). وهو تاريخ يحاول أن يملأ فجوات فى بنية (المسكوت عنه تاريخياً عمداً أو بدون قصد) فى المصادر التاريخية التقليدية، والتى لا تستطيع وحدها أن تقدم لنا الصورة أو الحقيقة التاريخية، إذ أنه لا يمكن للشهادات الجزئية أن تقدم لنا الحقيقة التاريخية ,وإنما غاية ما يمكنها أن تقدم لنا، جانباً جزئياً من تلك الحقيقة التاريخية وهو ما نجده بارزاً فى مراحل التاريخ المصرى وعصوره.

وفى إطار بحثنا عن الحقيقة التاريخية ودربها الطويل.. نجد أنفسنا أمام السخرية كـ "تخريمة" للوصول إليها لتعطينا الحقيقة فى (برشامة) كأى دواء ناجع له طعم المر، لكنه يعيننا على احتمال العيش فى الدنيا بالضحك فى موضع البكاء، والبكاء فى موضع الضحك وإدراك أن الحياة مزيج متشابك منهما معاً.

ومعها ندرك أن السخرية ـ رغم مبالغاتها ـ تعيدنا إلى أرض الواقع وتكشف لنا عن الحجرات الشعبية للتاريخ التى تعطينا صوراً أكثر مصداقية عما حوته الكتابات ذات الصبغة الرسمية، خاصة وأنت فى مصر ؛ إذ كانت السخرية فى تاريخها الطويل سلاحاً بين أيدى العامة وبين أيدى الكُتاب والشعراء لا للتعمية وقهر الناس بل لتحريرهم من الخوف والخور والذل والخضوع والنفاق، فلم يعرف كتبة الحكام ولا السلاطين الطغاة ولا رموز وعبيد السلطة الجائرة السخرية باعتبارها نوعاً فنياً يعبر عنهم، بل كانت الجدية العابسة الناطقة باسمهم قائمة على التهديد والوعيد والتخويف ليلجم الخوف كل الألسنة، فلا يعود مجال إلا أن ينطلق طائر النكتة مخترقاً الأسوار والحواجز كى يصل إلى الحاكمين وينبئهم فساد ما صنعوا.

التنفيس الفرعونى الجميل !

فالنكتة رسالة شديدة المرارة والصدق معاً، خاصة النكتة السياسية ، إذ هى نوع من جلد الذات.. إن صح التعبير، برع المصريون فى هذا اللون من الفنون وأصبحت النكتة لافتة أصبحت إعلان موجه للجميع.. برغم أنه مجهول المصدر، والمصريون شعب أتقن الضحك فى أحلك الظروف " حتى على نفسه" والاطلاع على أحوال الشعب المصرى على مدى تاريخه يكشف مدى الظلم الذى

عانه هذا الشعب، ولم يكن وليد العصر وإنما كان ميراثاً حملته الذاكرة الشعبية من عصور سابقة حتى ناء به كاهلها وفاض بها الكيل، فكانت ثوراتها ضد الفقر والجوع والاضطهاد، وكان إبداع الشعب الذى عبر بصدق عن أحوالها ترميزاً مرة وتصريحاً مرات منذ عصر الفراعنة إلى اليوم.. ومن المعروف أن ماعثر عليه الباحثون من أدبنا الفرعونى القديم لا يعدو رسوماً وأجزاء مبتورة منه ومع ذلك فأغانيهم ورسومهم وصورهم تدل على أنهم عاشوا فى عصورهم بسلاح الكلمة والنقد اللاذع لحكامهم الذين لم ينصفوهم إذ نرى صورة ساخرة لذئب يرعى ماعزاً والمصور يشير بذلك إلى ما يطابق المثل الشعبى المعروف بين عوامنا إذ يقولون: "حاميها حراميها" حين يشترك خفير البيت فى سرقته مثلاً، ومن هذا اللون صورة لمعركة بين القطط والإوز، ومن رسومهم الساخرة رسم نرى فيه الجرذان يحاصر قلعة للقطط وتقدمت فرقة فدائية، فمدت على القلعة سلماً واعتلاه فدائى كبير !. وهناك صورة تمثل مبارة فى لعبة الشطرنج بين أسد وغزال، والغزال يأمر الأسد بأن "يكش الملك" والأسد مكشر عن أنيابه والشرر يتطاير من عينيه.(٣٦١)

وبالرغم من صرامة القواعد التى كان يتقيد بها الفنان المصرى القديم فى مختلف عصور الحضارة المصرية القديمة، حيث كان الفنان ملتزماً بقواعد محددة عند قيامه بإبداع وتنفيذ الأعمال الفنية الخاصة بالملك وكبار رجال الدولة والمعبد والعقيدة الدينية، ومع ذلك فإن بعض هذه الأعمال تدل بوضوح على أن الفنان إذا رأى بعض نماذجه خالية من الكمال الذى يجبر على رسمه أو

(٣٦١) شوقي ضيف: الفكاهة في مصر، (دار المعارف، القاهرة ٢٠٠٤م)، ص ٢٠.

تصويره أو نحته فى هيئته الرسمية التقليدية، فعندئذ قد تتولد بداخل هذا الفنان روح السخرية والدعابة والتهكم، فيستخدم النقص أو مواطن الضعف فى هذه النماذج فى التعبير عن تلك الروح بقدر كبير من الحرية.

ولا شك أن التعبير الفنى التهكمى أو الساخر يعتبر بمثابة الوجه الآخر للتعبير الأدبى الذى يتميز بالتهكم أو السخرية.. بمعنى أن الفنان حين كان يعبر عن روح الفكاهة أو السخرية فى عمله الفنى، كان يرى أن يعبر أدبياً عن تلك الروح بصيغة ضمنية.

وقد تم العثور على عشرات من الرسوم التهكمية الساخرة التى تعبر فى مضمونها الأدبى عن عالم مقلوب رأساً على عقب.. فنرى الملوك يقومون بخدمة الملكات.. كما نرى القطط تخدم الفئران.. أو نرى الثعلب يحرس قطيعاً من الأوز فالفنان فى مثل هذه الأعمال يريد أن يعبر بمضمون أدبى عن التناقض الكامن فى أن القوة عندما تصبح فى خدمة "الضعف" فإن معنى ذلك أن الأمور أصبحت مقلوبة بكل مافى هذا المعنى من تهكم وسخرية.

وعندما يرسم الفنان عربة حربية يقودها فأر وهو حيوان معروف بالجبن.. أو عندما يرسم سفينة يقودها حمار.. فإنه يريد بذلك أن يعبر بكل تهكم وسخرية عن نظام سياسى لا يعجبه لأنه تحت قيادة الجبناء والأغبياء وعندما يرسم الفنان أسداً يلعب الضامة - وهى لعبة شبيهة بالشطرنج - مع ظبى كان من المفروض أن يكون فريسة سهلة لهذا الأسد، فإنه يريد أن يبلغنا بأن الأمور قد تجاوزت حد المعقول إلى اللامعقول.(٣٦٢)

---

(٣٦٢) مختار السويفي: الضحك والسخرية عند المصريين القدماء، (مجلة الهلال، عدد ديسمبر ١٩٩٥م) ص ٥٠.

وبهذه الشاكلة كانت مصر الفرعونية تسخر من حكامها، فلما دهاها ما دهاها من غزو الفرس واليونان والرومان لها ذهبت تتنفس عن عذابها وآلامها وكآبتها بفكاهات مرة مليئة بسموم اللذع والتهكم والسخرية.

التحريض وثيقة تاريخية

وطبيعى أن يسخروا ويتهكموا بالفرس لأنهم كانوا غزاة ظالمين أما البطالسة فعلى الرغم من أنهم توددوا إليهم وبذلوا كل ما استطاعوا ليكسبوا عطفهم وينالوا حبهم، فإننا نراهم، لا يتركون فرصة تمر دون أن يصيبوهم بسهام التهكمات، وقد نبزوا كلا منهم بلقب ميزوه به، فلقبوا بطليموس الأول بلقب الزمار، أما بطليموس الثانى فقد أصابوه بغير سهم من سخريتهم، وانتهزوا فرصة زواجه من أخته، وسلطوا عليه أقذع الكلمات.

ونرى ثيوكريتوس الشاعر اليوناني الذى عاش فى الإسكندرية أثناء القرن الثالث قبل الميلاد يشير إلى هذه النزعة فى المصريين وما يطوى فيها من الفكاهة، بل من السخرية المؤلمة بقوله :"إنهم شعب ماكر، لاذع القول، روحه مرحة" .

ونمضى إلى عصر الرومان فنجد الرومان يقسون عليهم فى حكمهم وسرعان ما يسلطون عليهم سهام سخريتهم، وقد كادوا لا يتركون قيصراً زار مصر من قياصرتهم دون أن يقدموا له هذه السهام الساخرة المسمومة، وكانوا أحياناً لا ينتظرون حتى يفد عليهم القيصر الذى يريدون قذفه بهذه الحجارة المدية، فيصوبونها إليه من بعيد.

وكم من قيصر سلطوا عليه صوائب سهامهم، فمن ذلك أنهم نبزوا القيصر فسبسيان بلقب تاجر السردين، ولقبوا قيصراً آخر بلقب النسناس المدلل الصغير.

وكانت هذه السخرية الخبيثة تكلفهم ثمناً غالياً، فقد كان القياصرة يغتاظون غيظاً شديداً، فيقسون عليهم فى حكمهم ومع ذلك لم ينتهوا عن هجائهم، بل ظلوا يقاومونهم ويسخرون بهم وكأن مزاجهم الفكه الساخر كان يضطرهم ويلزمهم دائماً بهذا الدفاع الساخر.(٢٦٣)

الساخرون والضاحكون فى القرون الوسطى

ويُرفعُ كابوس الرومان عن صدر مصر وتضئ فيها تباشير فجر جديد وتصبح مصر ولاية عربية، وتظل معها أدوات السخرية اللاذعة لِلطغاة من حكامها وذاعت أسماء منهم لعل أشهرهم سيبويه المصرى الذى رافق الدولة الأخشيدية وكان يظهر التبالة والحمق والجنون، ويضع كل ذلك مسرحاً ينفذ منه إلى نقد الدولة الأجنبية ونقد موظفيها المختلفين، نقداً فيه مرارة وخبث، وفيه تنفيس عما يقع على الناس من ظلم فى هذه العهود الجائرة.

من ذلك أنه كان يطوف على حماره يوم جمعة، فرأى الناس محتشدين لرؤية موكب الإخشيد أثناء مروره إلى الصلاة فتوسط الجموع وصاح :"ما هذه الأشباح الواقفة، والتماثيل العاكفة، سلطت عليهم قاصفة، يوم ترجف الراجفة تتبعها الرادفة، وتغلى لهم قلوب واجفة؟" فقال له رجل: "هو الإخشيد ينزل إلى الصلاة"، فقال: "هذا

(٢٦٣) شوقي ضيف: الفكاهة في مصر، ص ٢٣.

الأصلع البطين، المسمن البدين، قطع الله منه الوتين، ولا سلك به ذات اليمين، أما كان يكفيه صاحب ولا صاحبان ولا حاجب ولا حاجبان، ولا تابع ولا تابعان ؟ لا قبل الله له صلاة، ولاقبل له زكاة، وعَمر بجثته الفلاة ".

ولا ريب أن هذا الهجوم على الأخشيد كان يحدث تنفيساً عن الحرج فى نفوس سامعيه، فيضحكون ويغرقون فى الضحك، وكان يتخذ ذلك دائماً منحدراً له إلى هجائه اللاذع، ومن الظريف أنه كان يورد هجاءه على الناس وهو واقف معهم يعظهم، إذ كان فقيهاً صالحاً، فمن ذلك أنه بغتهم مرة أثناء وعظه، فقال :"حصلت الدنيا على أقطع وأقرع وأرفع" . يعنى بالأقطع ابن بويه الديلمى صاحب بغداد، وبالأقرع سيف الدولة ابن حمدان صاحب حلب، وبالأرقع كافورا، كانت قد صارت إليه شئون مصر، وكان يسميه فى مواعظه الخصىّ لا يبالى.

وهذا كله هجاء سياسى لاذع كان يعتمد فيه سيبويه المصرى على مجاميع من الأخطاء فى الكلام ينفث فيها سهامه ولم يترك فى عصره موظفاً كبيراً ولا قاضياً إلا تعرض له ونقده.[٣٦٤]

لا نصل إلى العصر الفاطمى حتى تتسع روح السخرية عند الشعب إذ أخذوا يتربصون بحكامهم حين كثر القول بين الناس عن الفاطميين ونسبهم وهل ينسبون حقاً إلى فاطمة الزهراء أو لا ينسبون فبلغت الجرأة بهم أن رموا على منبر المسجد الجامع يوم الجمعة بطاقة للعزيز ثانى حكام الدولة الفاطمية جاء فيها:

---

(٣٦٤) شوقي ضيف، الفكاهة، ص ٢٩.

إنا سمعنا نسباً منكراً
يُتلى على المنبر فى الجامع

إن كنت فيما تدعى صادقاً
فاذكر أبا بعد الأب الرابع

أو فدع الأنساب مستورة
وادخل بنا فى النسب الواسع

فإن أنساب بنى هاشم
يُقصر عنها طمع الطامع

وفى يوم جمعة آخر فى عهد الحاكم بأمر الله رموا على المنبر بطاقة جاء فيها:

بالظلم والجَور قد رضينا ❖ ❖ وليس بالكفر والحماقة

إن كنت أعطيت علم غيبٍ ❖ ❖ فقل لنا كاتب البطاقة

ولم تقتصر هذه السخرية السياسية على نسب الفاطميين وسلوكهم بل اتصلت أيضاً بإداراتهم وكبار موظفيهم وما كان من توظيفهم لليهود فى المناصب الكبرى فاحتج المصريون بقولهم :

يهود هذا الزمان قد بلغوا ❖ ❖ غاية آمالهم وقد ملكوا

العزُّ فيهم والمال عندهم ❖ ❖ ومنهم المستشار والملك

ومازال المصريون يعنفون الفاطميين بمثل هذه القطعة حتى أبعدوا اليهود عن أعمال الدولة ودواوينها.[٣٦٥]

---

(٣٦٥) شوقي ضيف، مرجع سابق، ص ٤٠.

وعلى الرغم مما شهدته الشخصية المصرية من محن وشدائد عديدة صهرتها محنة الحروب الصليبية فقد خرجت منها ومن المحنة المغولية غير فاقدة لقدرتها على المرح والتفاؤل وعشق الحياة فالمصريون لم ينسوا طبعهم أثناء الحروب الصليبية بل لقد خلف لنا هذا العصر طرفة فكاهية مشهورة هى "كتاب الفاشوش فى حكم قراقوش"[٢٦٦] هذا الكتاب أقدم الكتب الساخرة فى تاريخ مصر فى العصر الإسلامى ألفه الأسعد بن مماتى صاحب ديوان الجيش والمال لعهد صلاح الدين الأيوبى وقد عرف ابن مماتى كيف يحيل قراقوش إلى شخصية هزلية وقد أضافت العصور التالية إلى هذه الشخصية خطوطا وألوانا أخرى إذ نسب المصريون بروح الدعابة التى يمتازون بها إلى تلك الشخصية كثيرا من القصص المضحكة وأصبحت شخصية قراقوش شخصية رمزية لكل حاكم طاغية على مصر فكان المصريون طوال الحكم التركى فى عصر المماليك وبعده يقصون نوادره ويضيفون إليها نوادر جديدة.[٢٦٧] وكانت الكلمة أحياناً سلاحهم الفاعل فى ثورتهم ضد حكام لم ينصفوه.

واتخذت الثورات التى قام بها المصريون أحياناً شكلاً من الثورات الكلامية التى كان يلجأ إليها العامة أحياناً عن طريق السخرية والتهكم وقد أثمر هذا الأسلوب بالفعل فى تغيير بعض الأحوال، فعندما ازداد نفوذ المماليك فى عصر الملك الصالح نجم الدين أيوب واعتدوا على ممتلكات العامة وتوجس الشعب منهم خيفة لم يجد الشعب متنفساً له سوى التعبير عن هذا السخط بأبيات من الشعر بقوله:

الصالح المرتضى أيوب أكثر من

ترك بدولته يا شر مجلوب

---

(٢٦٦) المرجع السابق، ص ٤٨.

(٢٦٧) نفسه، ص٤٩ .

لا أخـذ الـلـه أيـوبًـا بـفـعـلـتـه

فالنـاس قد أصبحوا فى صبـر أيوب[٢٦٨]

وعندما بلغ مسمع الملك الصالح هذه الأبيات أدرك ما فيها وقام ببناء قلعة الروضة لهؤلاء المماليك حتى يكف آذاهم عن الرعية.[٢٦٩]

صلاح الدين.. الحقيقة والأسطورة

ولم يسلم صلاح الدين نفسه من السخرية والتهكم فكان يسمع من المتظلمين والمستغثين أغلظ ما يمكن أن يسمع فقال عنه الشاعر ابن عنين:

سـلـطـانـنـا أعـرج وقـاضـيه

ذو عـمـش والـوزيـر مـنـحـدب

وكان صلاح الدين به بعض عرج والقاضى صدر الدين بن درباس به بعض عمش والوزير الفاضل منحدب.

كما اتخذ العامة من الأمثال الشعبية متنفساً لهم حيث عبروا عن الوضع الاقتصادى وعدم استفادتهم من كدهم وعملهم وإنتاجهم بالأمثال الشعبية مثل : "كالأبرة تكسو الناس وهى عريانة"،[٢٧٠] و"أنا ازرع الشجرة وغيرى يأكل الثمرة "[٢٧١]

---

(٢٦٨) النجوم الزاهرة، ج ٦ ، ص ٦٧، محمد رجب النجار: الشعر الشعبي الساخر في عصور المماليك، (مجلة عالم الفكر، المجلد ١٣ ، العدد) ٣ ، ص ٧٩.

(٢٦٩) عبد الرحمن زكي: نشأة القاهرة وامتدادها في أيام الأيوبيين، المجلة التاريخية المصرية، المجلد الثامن، ١٩٧١م، ص ٧.

(٢٧٠) الإبشيهي: شهاب الدين محمد ت)٨٥٠(: المستظرف في كل فن مستطرف، بيروت، دار الفكر، د. ت، ج ١ ، ص٣٠ .

(٢٧١) جمعة جمال: الثورات الشعبية في الدولة الأيوبية، رسالة ماجستير - غير منشورة جامعة الزقازيق ١٩٩٦م، ص ٦٣.

لعل هذه الروح المصرية الثورية الساخرة لم تتسع فى عصر كما اتسعت فى عصر المماليك، وأيا ما كان الأمر، أو حكم التاريخ فى حكم المماليك ومن قبلهم حكم الأيوبيين، فإن جوهر المأساة من وجهة نظر المجتمع الشعبى على الأقل - يقوم على تلك المفارقة الكبرى بين غايات هؤلاء السلاطين ووسائلهم فى تحقيقها، حيث تتجلى المتناقضات - الرحم الطبيعى للسخرية - على أشدها بين نبل المقصد وشرف الغاية، وبين دناءة الوسيلة وبشاعة الأسلوب.. وطبيعى أن يسخر الشعب ويتهكم عليهم جميعاً فلم يتركوا حاكمًا ظالمًا إلا وقد نبزوا كلا منهم بلقب ميزوه به مثل السلطان " قُلة " أو السلطان "بلياى المجنون " والسلطان "بخشى" و"سلطان ليلة"، "وسلطان الجزيرة " والسلطان أبو عيشة " وهذه الألقاب والكنى إنما تشير إشارة ساخرة إلى سلوكهم أو إلى كونهم ألعوبة فى يد الأمراء، أو إلى أنهم لم يلبثوا فى السلطة غير ليلة واحدة أو تسلطن بعضهم فى الجزيرة بالنيل لا العاصمة إثر إنقلاب دموى، لم تلبث أن ترتد سهامه إليه، وهكذا.. .

وأطلق المصريون على النواب والولاه والأمراء والصناجق من قبيل السخرية ألقاباً ساخرة وكنايات هازلة مثل :"الأمير سم الموت "،"الأمير فأر السقوف"، "والأمير طلليه"، و"الأمير فرعون"، "والأمير الفول المقشر"، "والأمير برسباى حداية"، "والأمير سلام عليكم، و"الأمير حلاوة "، "والأمير المجنون"، و"الأمير القرد"، "وأمير سوق السلاح "، "والأمير حاصل ماتم"، "والأمير قانصوه"، "روح له باشا"، "والأمير خاين بك"، "والأمير السنجق أبو نبوت"، "والصنجق هات لبن"، والصنجق غليظ الرقبة.. [٣٧٢] إلخ.

---

(٣٧٢) محمد رجب النجار: الشعر الشعبي الساخر، ص ٩٧.

وصف ابن إياس حال الناس أيام دولة الأشرف قانصوة الغورى بقوله :

يا مالك الملك يا من بالعباد الطف

دبر عبيدك، وأصلح دولة الأشرف

كم من اقاطيع أخرجها، وما انصف

وأطغى المماليك، ذا يهجم ويخطف

ويشارك ابن إياس العامة شماتتهم فى الغورى حين شاع نبأ مرض أصابه فى عينه فأذاع العامة أنه قد عمى، وغارت عينه بسبب ظلمه فيقول :

سلطاننا الغورى غارت عينه

لما اشترى ظلم العباد بدينه

لازال "ينظر" أخذ أرزاق الورى

حتى أُصيب "بآفة فى عينه"

وكان المصريون ماهرين فى استخدام التورية بحكامهم ينفسون بها عن حرجهم وضيقهم بهم، كقولهم فى الوزير البباوى:

قالوا البباوى قد وَزَرْ

فقلت كلا ولا وَزَرْ

الدهر كالدولاب لا

يدور إلا بالبقر

وفى صفحات التاريخ أغنية شعبية تغنى بها العامة لعصر السلطان بيبرس الجاشنكير، وكانوا يكرهونه كما كانوا يكرهون نائباً

له نبزوه بلقب "دقين" تندراً عليه لأنه كان أجرد، وانتهزت العامة فرصة غياب النيل عن موعده، وغنت فى المنتزهات:

سلطاننا رُكين

ونائبو دقين

يجينا الماء من أين؟

هاتوا لنا الأعرج

يجى الما يدحرج

وإينما وليت وجهك فى صحف العصر وجدت الشعب المصرى يهزأ من حكامه وأمرائه فمن ذلك ما رواه المؤرخون من أن الطبرس والى باب القلعة، وكانوا ينبزونه بالمجنون، أقام عمارة فوق قنطرة، وعقدها قبواً، فسموها المجنونة، وقيل فيه:

ولقد عجبت من الطبرس وصحبه

وعقولهم بعقود مفتونة

عقدوه عقداً لا يصح لأنهم

عقدوا لمجنون على مجنونة

وكان من بين أمراء المماليك أمير يسمى طشتمر، وكانت العامة تنبزه باسم "حمص أخضر" لأنه كان يوزع الفول والحمص الأخضر على الحرافيش، وفقراء الصوفية، فى محاولة منه لاجتذابهم إلى جانبه، حتى تقوى بهم شوكتهم، تمهيداً لتحقيق مطامعه، فاستغل الناس هذا النبز وتندروا عليه كثيراً بعد أن رجع من حلب لتولى نيابة مصر وبدأت مظالمه تترى :

لما رجعت إلينا

من بعد ذا البعد والبين

خـلـنـاك تحـنـو عـلـيـنـا

يـا حـمص اخـضـر "بـقـلـبـين"

ولم تتطل محاولات الأمير طشتمر (حمص أخضر) على الحس الشعبى الذى انطلق الشعب يردد :

جـنـنـت بـالمـلـك لمـا

أتـاك بـالـبـسـط مـاجن

وقـد أمـنـت الـلـيـالى

يـا حـمص أخـضـر "وداجن"

ومعروف أن الحمص الأخضر ذو قلبين مجموعين، ويقول فيه آخرون متممين للنكتة فى اسمه أو فى لقبه :

أوردت نـفـسـك ذلا

ورد الـنـفـوس المـهـانـة

وبـالـرشـا حـزت مـالا

مـلأت مـنـه الخـزانـة

وكم عـلـيـك قـلـوب

يـا حـمص أخـضـر "ملانه"

ويصف لنا ابن إياس سلطاناً آخر من سلاطين المماليك بقوله: "وكان الظاهر بلباى الذى تولى السلطنة عام ٨٧٢هـ من عمره أرشل قليل المعرفة وكان يعرف بين العامة بالمجنون، وكان عمره كله فى غلاسة هو ومماليكه، وكان ملبسه مغلساً من عمره، وشكله سمج، وتدبيره سيئ.. فجمع بين قبح الفعل والشكل وسوء الطباع ومقت اللسان" . وينقل لنا ما تداوله العامة عنه بقولهم:

وفظ غليظ الطبع لا ود عنده

ولـيس لـديه للأخلاء تـأنـيس

تواضعه كبر، وتقريبه جفا

وترحيبه مقت، وبشراه تعبيس

ويسخر الوجدان الشعبى أيضاً من الأتابكى قوصون نائب السلطان الذى استأثر لنفسه بأمور المملكة وصار صاحب الحل والعقد دون الملك الأشرف علاء الدين كجك أى الصغير ابن الملك الناصر محمد بن قلاوون مستغلاً فى ذلك وصايته على هذا السلطان الطفل الذى تربع على عرش مصر وهو دون السابعة من عمره.. ولكن الشعب الذى لا يزال يدين بالولاء لأيام الملك الناصر، كان من الوفاء بحيث أنه وقف إلى جانب أبناء الناصر، بعد موته وساندوهم، ووقف مع أنصارهم، ونهب بيوت خصومهم، وسخر من أعدائهم حتى حاقت بهم الهزيمة، يقول ابن تغرى بردى :"ولبعض عوام مصر قصيدة "الكان وكان"أولها :

من الكرك جانا الناصر

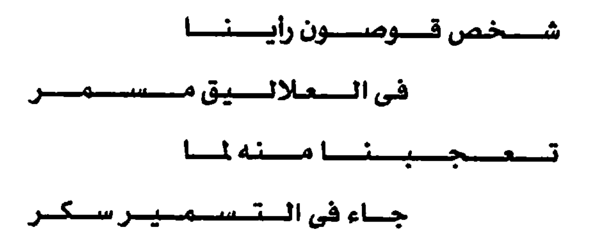
وجب معه أسد الغابة

ودولتك يا أمير قوصون

ما كانت لا كدابة

الناس فى مصر لم تكن تغفر للأمير قوصون أطماعه فى البيت القلاوونى، قبل أن يضيعه بنوه فلما قُبض على قوصون، وسجن بالأسكندرية، فرحت العامة وترجمت طائفة الحلوانية فى مصر هذا الفرح الشعبى، بعمل تمثال من الحلوى على شكل الأمير قوصون وهو مشنوق على هيئة ساخرة، كما يفعل رسامو الكاريكاتير

اليوم، فأبدعوا التعبير عن مشاعر الناس وأحاسيسهم الشعبية أو الجمعية أزاء المماليك وظلمهم، وأقبل أهل مصر جميعاً، على شراء هذا التمثال لتحطيمه والتهامه وهم يضحكون ويتشفون.. بعد أن اتخذوا منه مادة للتهكم والسخرية من نهاية الظالمين.. يقول المؤرخون :"وقد قال فى وقعة قوصون عدة من الشعراء الشعر والبلاليق والزجال، وعملت الحلوانية مثاله فى حلاوة العلاليق".. وقال العامة:



شخص قوصون رأينا
فى العلاليق مسمر
تعجبنا منه لما
جاء فى التسمير سكر

وكان من عادة الشعب أن يؤلفوا الأهازيج والأغانى الشعبية ويصيحون بها كلما ضاقت بهم السبل وأرادوا إبلاغ احتجاجهم إلى السلطان وإعلان رفضهم لها، ومن هذه المواقف تلك الأهازيج التى ترنم بها العوام فى حوادث سنة ٧٨٢هـ، أثر اتفاق الأمير ابن برقوق وبركة ضد سائر الأمراء المماليك، حتى أصبحا معاً صاحبى الأمر والنهى فى الدولة واستبدا بالأمر فيها، أسرفا فى فرض الضرائب، فصور العوام ذلك الاتفاق وأثره تصويراً ساخراً فى مقولة لهجت بها العوام :

"برقوق وبركة نصبا على الدنيا شبكة"

وظل العوام يرددون ذلك، فيما يشبه شعار المظاهرات، إلى أن حدثت فتنة بين المماليك وعلى أثرها هرب برقوق ورجاله وعزل بركة من منصبه وانفرد الأمير يلبغا الناصرى وجماعته بالأمر فى البلاد.

وعاث فى الارض الفساد هو وجماعته فأخذوا النساء من الطرقات والحمامات ولم يتجاسر أحد على منعهم.. فقال العامة فى أسى :"

راح برقوق وغزلانه

وجا الناصرى وتيرانه

وقد ساعدت هذه السخرية على تحريض أحد الأمراء، وهم الأمير منطاش على التمرد سنة ٧٩١هـ على الناصرى والانشقاق عنه اعتماداً على قوة الشعب الذى أيده فانتصر على الناصرى ومماليكه بفضل العامة :"وصار العوام والزعر يساعدون منطاش بالحجارة والمقاليع، ثم يلتقطون النشاب الذى يرميه جماعة يلبغا الناصرى ويحضرونه إلى منطاش ".

ومن شعارات العامة التى تدين الواقع الاقتصادى الذى وصلت إليه مصر آنذاك قولهم :·

السلطان من عكسه أبطل نصفه

وإذا كان نصفك إينالى لا تقف على دكانى

يقصدون السلطان إينال الذى شاع فى عهده عادة تغيير العملة وغشها، نتيجة التضخم الاقتصادى وراج عمل الزغلية (غشاشى العملة) فى أيامه وانطلقت المظاهرات والألسنة فى حق السلطان وقاضى القضاة والقضاة الأربعة والأمراء والأعيان حتى استجابوا لضمير الشعب وتم إبطال هذه العملة المغشوشة ".

وحدث أيضاً أن الأمير جركس الخليلى أخرج "فلوساً جددا من الفلوس العتق فلما فعل ذلك وقف حال الناس وحصل الغلاء وقل الجالب فرددت العامة فى احتجاجها:

الخليل من عكسو

نقش اسمه على فلسو

وتنطوى العبارة الأخيرة على تورية حادة فلما بلغ الأتابك برقوق أمر بإبطالها.

وربما كان نواب السلطنة من كبار الأمراء المماليك هدفاً أكثر إغراء لسهام التمرد والسخرية الشعبية فنائب السلطنة بحكم منصبه أكثر احتكاكاً بالشعب، وهو عادة رجل طامح إلى السلطنة ذاتها، وكثر تولية النواب وعزلهم خشية من قوتهم وامتداد نفوذهم حتى قال الشاعر الشعبى فيهم :

هــــذى أمــــورُ عــــظــــام

من بــعــضــهــا الــقــلبُ ذاب

مــــا حــــال قُــطْــر يــلــيه

فى كل شــــهــــرين نــــائب

لا شك هى حال مضطربة، وغير مستقرة، وهى على حساب الرعية ومصالحهم فهم يصلون نارها، وكل يوم نائب جديد وسياسة جديدة وأهواء جديدة، وأطماع وأعوان.[٢٧٣] وأصبح احتفال الناس بولاية الملوك والنواب لعبة كل يوم، ولا يجنون من ورائها إلا المغارم بسبب إقامة الزينات التى كانت تفرض عليهم فرضاً فى كل مرة حتى قال الناس على نحو ساخر:

كم مــــلك جــــاء وكم نــــائب

يــا زيــنــة الأســواق حــتى مــتى

فــقــد ذكــروا الــزيــنــة حــتى الــلحى

مــا بــقــيت تــلــحق أن تــنــبــتــا

يا رب يا متجلى

(٢٧٣) محمد زغلول سلام: الأدب في العصر المملوكي(دار المعارف، القاهرة ١٩٧١م)، ص ٤٣.

وفى العصر العثمانى رغم ما عانت منه مصر من سواد حالك إلا أن ذلك لم يمنع المصريون عن التعبير عن سخطهم ضد الحاكم المستبد والتحريض ضده، وينقل لنا الجبرتى فى حوادث سنة ١١٣٧هـ احتجاجات العامة على زيادة الضرائب وشعارهم فى الاحتجاج :"

باشا يا باشا يا عين القملة

من قالك تعمل دى العملة

باشا يا باشا يا عين الصيرة

من قالك تدبر دى التدبيرة

وأورد الجبرتى مطلع شعر آخر اتخذه الشعب فى موقف مماثل عندما حاول البرديسى بعد جلاء الحملة الفرنسية زيادة الضرائب على التجار وأرباب الحرف فثارت القاهرة وردد العوام :

"إيش تاخد من تفليسى يا برديسى"

ويسجل لنا مطلع شعار آخر يعكس مدى كراهية العوام للحكم العثمانى آنذاك :

يا رب يا متجلى

أهلك العثملى

وفى العصر العثمانى استمر المصريون يطلقون أسماء تهكمية لاذعة على الأمراء والحكام، وكان من الألقاب التى أطلقها المصريون على حكامهم "بارم ديله"، "المنفوخ"، "أبو مناخير فض"، "جلب القرد"، "صنجق ستة"، "قفا الثور"، "السبع بنات"، وغيرها من الألقاب التى تذخر بها الكتابات المعاصرة والتى كانت تمثل بوضوح نوعاً من التحدى للظلم والطغيان.

وتذخر الأمثال العامية التى أبدعها المصريون للتعبير عن سخطهم على الأحوال الاقتصادية والسياسية والنقمة على الفقر المدقع للمواطن المصرى بقولهم:

"سيف السلطة طويل"، "مال السلطان يطلَّع من بين الضفر واللحم"، "اللىّ يدوق مرقة السلطان تنحرق شِفّتهُ"، ومن خلال أمثاله عبر عن واقع ظروفه المعيشية بقوله:"زى قواديس الساقية مشنوق من رقبته ورجليه"، "إن حضر العيش يبقى المشى شبرقة".

وعلى أيه حال فإن الأمثال العامية تعتبر مخزوناً تاريخياً ذاخراً، لم يلتفت الباحثون إلى أهميته بعد بالقدر الذى يتناسب مع تلك الأهمية.(٣٧٤)

لك يوم يا ساااااااخر

ظلت تلك الشعارات والأمثال جزءاً وثائقيا مهما من التراث السياسى للعامة كما عبرت عنه فى مأثوراتها الشعبية من ناحية، وشاهدا حيا على إرادة عامة الشعب فى التغيير وقدرتها على التمرد، فضلاً عن أنها كانت لها نتائج إيجابية مناسبة لمناخها السياسى آنذاك، وإذا كان بعض هذا اللون من التمرد الشعبى قد نجح فى تصوير هذا الواقع السياسى المتردى، فبعضه الآخر، قد أفلح فى تقويم هذا الواقع نحو الأفضل.

ومن الواضح أن تقنية التصوير الكاريكاتيرى تبرز بروزاً شديداً فى السخرية قديماً وحديثاً، فهناك المبالغة فى تضخيم بعض

(٣٧٤) كمال حامد: مصر في العصر العثماني، ص ٧٤ .

السمات السلبية الأكثر بروزاً، وقد يقتصر الأمر على سمة واحدة دون حرص على أى توازن فى التشابه بين الأصل والتشويه المتعمد للسمة البارزة، وتتحول الشخصية بذلك إلى نمط نموذجى أو إلى قالب يشبه الدمية.

أدباء ولكن ظرفاء

وفى العصر الحديث كما يتبعه شوقى ضيف نرى الشيخ حسن الآلاتى المتوفى سنة ١٨٨٩م مؤلف "ترويح النفوس" يقلب المواقف الجادة فى المحاكم والشكاوى إلى مواقف هازلة، أما يعقوب صنوع فى محاوراته المنشورة فى مجلته "أبو نظارة" فيطلق على الخديو إسماعيل ألقاباً مثل "شيخ البلد"، وشيخ الحارة، وفرعون ويقدم نماذج مثل السنجق ظالم أوغلو، و"طرطور أغا القواص"، كما يقدم فصولاً تهكمية وأهاجى سياسية حول الضرائب والتعسف وجشع الأجانب كما يستخدم عبد الله النديم نفس التقنيات فى "التنكيت والتبكيت"وفى "الأستاذ" ليواصل هجاءه السياسى ضد التبعية والانحلال الخلقى وفساد الحاكم ورمزه وعبيده.

الذاكرة الشعبية زاخرة بالنماذج الأصلية للسخرية السياسية من الحكام الأجانب المستبدين فى جميع العصور ولا تقف عند الحكام الترك أو المماليك وإنما تعدتها ونمت خارج إطار الاستبداد الرسمى وحاولت أن تبنى عالماً ثانياً وحياة ثانية فى مواجهة عالم التخويف والإرعاب باستخدام فن السخرية فغنت الجماهير بنفسها لثورتها المصرية بقيادة عرابى :"العسكر فى الطوابى.. يا رب انصر عرابى"، ومع دخول الاحتلال البريطانى مصر قاومه الشعب بصيحتها: "يا عزيز يا عزيز.. كبة تاخد الانجليز" وانتشر شعر المقاومة بين الناس بقولهم :"

لعمرك ليس ذا وقت التصابى

ولا وقت السماع على الشراب

ولا وقت الجلوس على المقاهى

ولا وقت التغافل والتغابى

ولا وقت التشبب فى سليمى

ولا وقت التشاغل بالرباب

ولكن ذا زمان الجد وافى

وذا وقت الفتوة والشباب

ووقت ليس فيه يليق إلا

إقامتنا القلاع أو الطوابى

ووقت فيه الاستعداد فرض

لتنفيذ الأوامر من عرابى

وحال تأكد الشعب من خيانة الخديو توفيق خرجت تهتف :"يا توفيق يا وش القملة.. مين قالك تعمل دى العملة "، "البغل فى الإبريق.. يا رب خد توفيق".(٢٧٥)

وتتوالى الخطوب على مصر وتنزل حادثة دنشواى لتدمى قلوب المصريين مع صدور أحكامها فى ٢٧ يونيو ١٩٠٦م. ويسجلها الوجدان الشعبى الثائر فى موّال يقول مطلعه :

"ويش بعد حكم المحافظ والشاويش والباش غلايين وساقها كرومر محرقة للباش

(٢٧٥) محمد حافظ: انتفاضات، ص ٩٨ .

وادى الانجليز فرعنوا بعد ما كانوا أوباش

نزلوا على دنشواى لا خلو النفر ولا أخوه

اللى اتشنق مات واللى فضل جلدوه

واللى فلت م الجلد فى سجنهم ورموه

يوم شنق زهران كان يوم صعب وقفاته

أمه تلالى لفوق السطح واخواته

واخته تنادى تقول يا نصر الإسلام ".

وسجل الوجدان الشعبى موقفه من سوء معاملة الاحتلال وقيامهم بإجبار الشعب للقتال قسراً فى جبهات القتال خلال الحرب العالمية الأولى بقوله :"

بلدى يا بلدى

وأنا بدى أروح بلدى

بلدى يا بلدى

والسلطة خدت ولدى

وفى مظاهرات الأحد مارس ١٩١٩م واشتباك الطلاب مع قوات الاحتلال والقبض على ٣٠٠ طالب وإلقائهم فى غياهب السجون تحدى الشباب السجن مخاطبين السجان ويُدعى "عم حمزة" بقولهم:

"ياعم حمزة

إحنا التلامذة

واخدين ع العيش الحاف

والنوم من غير لحاف

مستعدين

ناس وطنيين

ودايماً صاحيين

إحنا التلامذة.. "

وخرجت مظاهرات النساء والبنات والأطفال فى الشوارع تندد بسفك الدماء ووحشية العدوان بقولهن :

يا مصر ما تخفيش

دا كله كلام تهويش

إحنا بنات الكشافة

دا ابونا سعد باشا

وحين شملت الثورة كل أنحاء البلاد أصبح الأزهر معقل الثوار وارتفعت شعارات المظاهرات:

لا بارود ومدافع رشاشة

ولاخفنا عذاب فى جهاد باهر

ننصاب برصاص نربط شاشة

ع الجرح ونرجع نتظاهر

وهى نفس الهتافات التى انطلقت مع مظاهرات ١٩٤٦م وفتح كوبرى عباس على الطلبة وإطلاق الرصاص الحى عليهم.

ومع وميض الثورة يصدح صوت سيد درويش بأدواره وطقاطيقه، التى حفظها الشعب عن ظهر قلب :"قوم يا مصرى مصر دايماً بتناديك ".

ويغنى عبد اللطيف البنا :"قال يا سعد مين غيرك" و" ويا مصر دى أيام أنسك"، وزكى مراد :"مصر أولادها رجال " و"نار الوطنية فى القلب" ومحمود مراد :"اسلمى يا مصر". وكان مألوفاً أن ترى بديع خيرى وسيد درويش يستقلان العربة الحنطور، ويطوفان بها شوارع وأحياء المدينة وهما يرددان :"بلادى بلادى.. " الذى أصبح النشيد القومى لمصر، ويرددان :"قوم يا مصرى"، و"أنا المصرى"، واليوم يومك يا جنود".

ومع انتفاضة الطلبة سنة ١٩٣٥م وفى مناسبة الاحتفال بذكرى عيد الجهاد الوطنى يوم الأربعاء ١٣نوفمبر ١٩٣٥م.أضربت المدارس والكليات وألقيت الكلمات الحماسية التى تندد بالاستعمار وخرجت المظاهرات الحاشدة تهتف :"نحن فداؤك يا مصر.. فليسقط الاستعمار.. فليسقط تصريح هور.."

أين الكساء يا ملك النساء ؟

ومع فجر إضراب مصر يوم الخميس ٢١فبراير ١٩٤٦م انطلقت المظاهرات فى مسيرات كبرى حيث تحدد ميدان إبراهيم باشا (الأوبرا) لتجمع المتظاهرين ورددوا هتافات :"يحيا الطلبة مع العمال " المستمد من ثورة ١٩١٩م وإن اختلفت دلالته مع تزايد وعى الطبقة العاملة تعبيرًا عن ارتباط القضية الوطنية بالقضايا الاقتصادية والاجتماعية.

وردد الطلاب نشيداً بصوتٍ واحد :

يا شعب قوم خضْ بحار الدماء

لا تبك فالآن وقت الفداء

هيا نحطم قيود الخضوع

هيا سوياً لنيل الجلاء

شعب الشمال وشعب الجنوب

وحد أيادى ووحد قلوب

ترمى بها قلب مستعمر

فالاتحاد سلاح الشعوب

من خاف فى الصف يرمى بعار

من خاننا سوف يلقى الدمار

لن نستجيب لصوت الهدوء

أن الكفاح هو الانتصار

ورغم محاولات جماعة الإخوان المسلمين إجهاض الثورة لصالح الحكومة وتخدير عقول شبابها إلا أنها استمرت وعلت الهتافات تندد بالخونة وعملاء الحكومة والاستعمار والتنديد بـ "الباشوات السمان " و"الكفاح بالسلاح " و"المفاوضة طريق الخيانة " وأرسلت المظاهرات صرخة مدوية إلى الملك حين هتفت :"أين الكساء يا ملك النساء؟". ورفض الجيش المصرى الاصطدام بالمتظاهرين رغم صدور أوامر بتفريقهم بالقوة ومنع الاجتماعات العامة.

وتستمر الحركة القومية ويستمر اشتعال الحركة الشعبية وتتأجج نيرانها مع أحداث ومظاهرات ١٩٧٧م وتتسع لتشمل محافظات مصر لتخرج القوات المسلحة من ثكناتها لتعيد الانضباط

إلى الشارع مع عجز قوات الأمن والشرطة من ملاحقة أحداث العنف الشعبى وتداعياته وفيها تختلط هتافات اليساريين والقوميين والناصريين والإسلاميين لترفع سقف مطالبها ما بين استقالة الحكومة، ورفض التبعية، والتنديد بالغلاء والفساد، وربط الجور بالأسعار، وإطلاق حرية النشر والتعبير، وتخلى فيها القول عن التلميح ليضحى لغة "على المكشوف" طالت جميع الرءوس ؛ من رئيس الجمهورية إلى رئيس مجلس الشعب ورئيس الوزراء و"حرامية" الانفتاح:

"إحنا الشعب مع العمال.. ضد حكومة الاستغلال"، "يا حاكمين من عابدين باسم الحق وباسم الدين.. فين الحق وفين الدين"، "يا حكومة الوسط وهز الوسط.. كيلو اللحمة بقا بالقسط"، " مش كفاية لبسنا الخيش.. جايين ياخدوا رغيف العيش"، "يا حرامية الانفتاح الشعب جعان مش مرتاح"،"عايزين حكومة حرة.. دى العيشة صبحت مرة"، "يشربوا ويسكى وياكلوا فراخ والشعب من الجوع أهو داخ"، "الصهيونى فوق ترابى. والمباحث على بابى"، "يا أمريكا لمى فلوسك بكره الشعب العربى يدوسك"، "إحنا الطلبة مع العمال ضد تحالف رأس المال"، "عبد الناصر يا ما قال خلوا بالكو من العمال"، "يا دى العار يا دى العار مصرى بيضرب مصرى بنار"، " بالطول بالعرض هنجيب ممدوح (رئيس الوزراء) الأرض"، "سيد مرعى ده يبقى مين.. يبقى حرامى الفلاحين"، "لمّ كلابك يا ممدوح دم إخواننا موش هيروح"، "يا أهالينا يا أهالينا.. آدى مطالبنا وآدى آمانينا"، "أول مطلب يا شباب حق تعدد الأحزاب.. تانى مطلب يا

جماهير.. حق النشر والتعبير.. تالت مطلب يا أحرار.. ربط الأجر بالأسعار"، "هو بيلبس آخر موضة.. وإحنا بنسكن عشرة فى أوضة "، يا حاكمنا بالمباحث كل الشعب بظلمك حاسس"،"قولوا للنايم فى عابدين العمال بيباتوا جعانين"، يا مجلس شعب صباح الخير ياللى رئيسك مليونير"،"يا بو وافية يا بو وافية إنت حرامى الناس الحافية"، "إدىّ إديله.. أدى إديله ممدوح باشا هنقطع ديله"، "يا شباب يا شباب ما بنخاف م الإرهاب"، "جوز الجزمة بسبعة جنيه.. أمّال الفقرا بيلبسوا إيه "، " هوّا بيبنى فى استراحات واحنا نعانى آهات فى آهات "، " هما بياكلوا حمام وفراخ واحنا الجوع دوخنا وداخ"، يا أخويا يا جندى الجيش شعبك حافى ولابس خيش"، "لا إله إلا الله والسادات عدو الله".

صحيح أن شعبنا صبور أكثر من الجَمل وابن نكتة كأحسن ممثلى الكوميديا فى العالم لكن زمن النكت انتهى. وصحيح أيضا أن الكيل قد طفح منذ فترة طويلة وأن شعب مصر رفع صوته عدة مرات بالهجاء الصريح مع "انتفاضة الحرامية" كما أسماها السادات. ماهو غير صحيح هو ترويج النظام لفكرة وقوف شعب مصر عند ذلك الحد مكتوف الأيدى مكمم فمه معصوب عيناه مكتفيا بإطلاق النكت والإشاعات -وخصوصا بعد أن أصبح رغيف العيش سلعة نادرة؟..

ومع تصاعد التحرك الجماهيرى، فشل الأمن المركزى رغم ضخامة عدده وتجهيزاته فى السيطرة على الموقف، لتستخدم وحدات من القوات المسلحة، ويرتفع عدد الضحايا مع ارتفاع هتافات الشعب التى كانت أقوى من طلقات الأمن المركزى والقناصة.

الأولوية هى لمكافحة الفقر!!

ومن الواضح أن رفع (أصوات) المتظاهرين بقوة ضد الحكام فتح الباب واسعًا أمام النقد المتزايد لهم، وكسر الحواجز القديمة، وألغى الخطوط الحمراء التى كانت تحيط بمكانة هؤلاء الحكام، والتى كان يُطلق عليها فى بعض الأحيان كلمة "الذات الملكية"؛ حيث كانت هناك عقوبة سابقة فى مصر أيام الحكم الملكى تسمى "العيب فى الذات الملكية"،(٢٧٦) توجه إلى كل من يتعرض للملك وأسرته بالنقد، ولكن هذه الهيبة سرعان ما هوت بدورها مع تغير الأجواء السياسية، وتصاعد الغضب الشعبى على الملك لتعصف به فى نهاية الأمر.

وياليت الجريمة اقتصرت على "العيب فى الذات الملكية"(٢٧٧) بل تحورت فى العصر الجمهورى وأصبحت جريمة "العيب فى

(٢٧٦) العيب في الذات الملكية جريمة تعاقب عليها كل نظم الحكم الملكية قديما وحديثا وما شابهتها من نظم حكم مطلقة جمهورية أو سلطانية أو دولتية أو جماهيرية أو إماراتية. فالملك هو رأس السلطة له المهابة والعظمة والجلالة. التجرؤ عليه بالنقد أو النيل منه بالعيب هو إضعاف له، وبالتالي إضعاف للقانون الذي يستمد شرعيته منه، وتقويض للدولة التي تتأسس عليه، وراثة من أب عن جد أو اختيارا إلهيا أو قبليا أو عشائريا أو ثوريا.

(٢٧٧) كانت البداية مع يعقوب صنوع أو "أبو نضارة" الذي ألف كثير من المسرحيات و نشر العديد من المقالات ينعي فيها حال الفقير في مصر و يوجّه أصابع اللوم للحاكم الذي كان في ذلك الوقت الخديوي اسماعيل، فاسرعت السلطات بإغلاق مسرحه عام ١٨٧٢ م و قامت بنفيه خارج مصر، فعاش في باريس و ظل ينشر آراءه الناقدة في جريدته من هناك.و في عهد عباس حلمي الثاني، قُدم مصطفي لطفي المنفلوطي للمحاكمة بتهمة العيب في الذات الخديوية عندما استقبل الخديو عباس عند رجوعه لمصر من الآستانة عام ١٨٩٧ م بقصيدة هجاء و حكم علي المنفلوطي بالسجن لمدة عام.كما حُكم علي الشيخ الغاياتي عام ١٩١٠م بالحبس لمدة سنة لتأليفه ديواناً شعرياً بعنوان "وطنيتي" يحتوي، كما تقول حيثيات الحكم، علي تحريض ضد الحكومة = =

الذات الجمهورية".[٢٧٨] وتفنن ترزية النظام فى تفصيل جرائم أخرى مثل "إهانة الجيش" أو "رئيس مجلس الشعب" وغيرها بغرض إسكات أصوات أكبر عدد من المصريين وحرمانهم من فتح أفواههم ولو لأكل "لقمة من رغيف " قاتلوا للحصول عليه.

مع تواصل حلقات الحركة الوطنية فى تاريخ مصر عبر تطلعها لتحقيق استقلال إرادتها ومع تصاعد حدة الاعتصامات والوقفات الاحتجاجية والمظاهرات والتنديد والتندر بالحاكم، لم تفلح الوعود الرسمية الفارغة المضمون الجوفاء من إسكات أصوات المعارضين لنظام الحكم، عبر العقود الثلاثة الأخيرة.

والازدراء بها و تحبيذ الجرائم و العيب في حق الذات الخديوية. كما حُكم علي الزعيم الوطني محمد فريد بالحبس ستة أشهر لأنه قام بكتابة مقدمة لهذا الديوان.و في عهد السلطان أحمد فؤاد الذي حكم مصر بين عامي ١٩١٧ و ١٩٣٦ م، حُكم علي الشاعر بيرم التونسي (١٨٩٣ -١٩٦١) بالنفي خارج مصر عام ١٩٢٠ م بسبب الأزجال العامية التي ألقها بمناسبة زواج الملك فؤاد من نازلي و ما قاله بمناسبة مولد ولي العهد فاروق. و هي أزجال تضمنت طعناً في شرف السلطانة نازلي و تشكيكاً في نسبة ولي العهد لأبيه.

(٢٧٨)بعد إلغاء الملكية و قيام الجمهورية، ظل العداء قائماً بين الحاكم و صاحب الكلمة، و لكن التهمة تغير اسمها من العيب في الذات الملكية إلي الخيانة و العمالة، و معاداة الشعب.ففي عهد الرئيس جمال عبد الناصر، حدث و لا حرج عن إغلاق الصحف و المجلات و حل الأحزاب و حوادث الفصل و الاعتقال و المحاكمات التي طالت كل التيارات الفكرية من صحفيين و كتاب و أساتذة جامعيين و ساسةو قضاة. و نذكر هنا علي سبيل المثال و ليس الحصر اعتقال الكاتب الصحفي احسان عبد القدوس في بداية عهد الثورة عندما تجرأ و كتب عن مجلس قيادة الثورة في مقاله الشهير "جمعية سرية تحكم مصر"و في عهد الرئيس محمد انور السادات، قُدم الشاعر العامي أحمد فؤاد نجم للمحاكمة بتهمة تأليفه قصيدة "بيان هام "تضمنت سباً و قذفاً في حق رئيس الجمهورية. و قد سبقها قصائد أخري مهدت للمحاكمة.كان "أواه "هو الاسم الرمزي الذي أطلقه نجم علي السادات. و من ضمن ما قاله: أواه المجنون أبو برقوقة / عيرة و براني و ملزوقة / نصّاب/ و منافق / و دماغه مليانة مناطق موبوءة."

فاضطروا لحذو حذو التونسيين لإعلان الثورة أو الانتفاضة الشعبية العارمة بشكل سلمى بعيدا عن العسكر والعسكرة والعمليات التفجيرية المسلحة. وانضمت مختلف فئات وشرائح المجتمع المصرى للثورة الشعبية المعاصرة، ذكورا وإناثا، من الطلاب والفلاحين والمهنيين والعمال والحرفيين والأطباء والمحامين والإعلاميين أقباطاً ومسلمين.

فعلى الصعيد الداخلى، فجر الثورة ثلة من أحرار مصر الذين رفضوا الذل والخنوع والركوع للظالمين، فجيشوا الشعب فى مظاهرات ومسيرات تتكون من آلاف المتظاهرين فعشرات آلاف المحتجين فمئات آلاف المشاركين فملايين المؤيدين فى مصر وخارجها. وبهذا فقد استطاعت الثورة الشعبية المصرية خلال الأسبوع الأول، من اشتعالها، أن تحقق بعض الإنجازات التى فشلت فى تحقيقها المذكرات والمطالبات القانونية والإنسانية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية السابقة، فحصدت ثورة الشعب المصرى العصرية الجديدة، بعض الإنجازات البسيطة لتتلوها استجابات متواصلة متراكمة، بعد استمراريتها وديمومتها الجماهيرية، لتغيير النظام الحاكم، وتحقيق مطالب الثورة على الصُعد كافة سياسيا واقتصاديا وأمنيا ودينيا. فأضطرت الدكتاتورية الحاكمة، لتلبية مطالب أولية أساسية لا مجال لصدها، وهى التخلى عن قواعد التوريث العائلى أولا، والإعلان عن تأليف حكومة جديدة ثانيا، تضع برنامجا جديدا للتطوير والانتعاش الاقتصادى!!

ثم كرر الرئيس ما دأب على التصريح به من أن "الأولوية هى لمكافحة الفقر"(٣٧٩) فلماذا يا ترى لم يستطع التخفيف من الفقر

(٣٧٩) جلال أمين: مصر والمصريون، ص ١٣.

طوال الثلاثين عامًا التى استمر فيها فى الحكم ؟ وما الذى ينوى يا ترى القيام به للتخفيف من الفقر فى الشهور التالية مما لم يخطر بباله من قبل ؟!.

ومنذ اندلاع شرارة الثورة على النظام الحاكم بمصر فى ٢٥ يناير٢٠١١م ، تفنن المصريون الساعون للتغيير فى إبداع هتافات وشعارات تعبر عن حركتهم وتوصل رسالتهم وتبث الحماس فى صفوفهم.

وكانت البداية مع الشعار الأبرز "الشعب يريد إسقاط النظام"(٣٨٠) الذى عبر عن جوهر مطالب المحتجين طوال الفترة الماضية، وأخذ أحيانا صيغة أخرى تركز خصوصا على الرئيس حسنى مبارك "الشعب يريد إسقاط الرئيس . "واختار بعض المحتجين اللهجة الصريحة ليعبروا من خلالها عما يريدونه فكان

---

(٣٨٠) التظاهرات الشعبية في مصر، على تعدّد شعاراتها الموازية لإيقاع "الخبب" أو التي ابتكرت إيقاعات خاصة ببعض الجمل والكلمات، أظهرت أن الشعار الأبرز الذي نادى به المتظاهرون المصريون في الأيام الأولى للتظاهرات وترسّخ في أذهان المتابعين في العالم وهو "الشعب... يريد... إسقاط النظام..." مبني على إيقاع واحدة من أقدم التعبيرات الشعبية المصرية التي تقال في كل الظروف الحماسية تقريباً هي "بص... شوف... الناس بتعمل إيه..." للوهلة الأولى، بدا إيقاع هذه الجملة وتقطيعها الموسيقي وحركاتها ثم سكونها، جديداً على عالم شعارات التظاهرات المألوفة التي تنقلها وسائل الاعلام العالمية قاطبة. بل ربما أوحى ذلك أن هناك فناناً ركّبَ هذه الجملة "الشعب... يريد... إسقاط النظام "على إيقاع مختلف عن القواعد "الموسيقية" المعروفة. إلاّ أن التمعّن في التقاط إشارات الإيقاع والكلام، يكشف بوضوح أصلها الموسيقي المصري الخاص الذي يعود إلى "بص... شوف..." والتكملة معروفة، وهو للمناسبة على وزن "فع... فع... فعلن فعلن فعلن..." الذي تحول بدوره في عدد من البلاد العربية، إلى "الشعار" الأبرز الذي يُنادي به جمهور، زعيماً ما أو رئيساً ما... "بالروح... بالدم... نفديك يا فلان..."

الهتاف وقتها هو "مش عايزينه مش عايزينه، حسنى مبارك مش عايزينه" و"لازم يمشى، لازم يمشى" ثم اتخذت الشعارات صيغة أكثر حدة هى "هنخلعك يا مبارك".

واختص قسم من الهتافات التى رددها المحتجون وسطروها على لافتاتهم بتوضيح سبب مطالبتهم بتغيير النظام، فظهر فى هذا الشأن "لا للفساد" و"لا للظلم" و"لا للتزوير" مؤكدين فى كل الأحوال أن الأمور تغيرت وأصبح "الشعب سيد قراره".

وحرص المتظاهرون على تأكيد أن الخوف الذى حال دون تحرك المصريين على مدى سنوات طوال لم يعد يعرف طريقه إلى قلوبهم، فعلت حناجرهم بالهتاف "مش هنخاف مش هنطاطى، إحنا كرهنا الصوت الواطى".

وفى بلد لم يعتد عبر تاريخه الخروج عن السيطرة الكلية للحاكم إلا قليلا، كان لا بد للمحتجين أن يحاولوا تشجيع الآخرين على الانضمام لهم ويطالبونهم بضرورة استغلال الفرصة السانحة، وكان سلاحهم فى هذا هو هتافهم الشهير "انزل شارك مش هتموت، قبل الفرصة دى ما تفوت".

وكان مثيرا أن المحتجين لم يكتفوا برفع لافتاتهم، بل سطروا شعاراتهم حتى على دبابات الجيش المنتشرة فى الميادين الرئيسية، وأصبحت الدبابات التى تعبر عن قوة النظام تحمل هى نفسها شعارات تنتقد الرئيس مبارك بحدة وتطالب بسقوطه بل وصل الأمر إلى استخدام ألفاظ نابية فى هذا الشأن.

ثم بدأت الشعارات تأخذ صورا أكثر حدة، فشبه أحدها الرئيس مبارك بفرعون ورفع لافتة تقول "فاستخف قومه فأطاعوه"، فى

حين استعار آخر مطلع أغنية وطنية شهيرة ليقول "أحلف بسماها وبترابها، مبارك هو اللى خربها"، ووصل الأمر إلى ترديد هتاف يتساءل "يا مبارك قول الحق، إنت حرامى ولا لأ؟".

وبالتوازى مع ذلك وجدنا هتافات أكثر رقة تقول "مصر أجمل بدون مبارك"، بينما استعار البعض اسم فيلم سينمائى هو "طير أنت" ليخاطبوا الرئيس طالبين منه الرحيل قائلين "مبارك، طير إنت" فى تلميح لكونه طيار سابق.

وبعدما روج الإعلام الحكومى طويلا لأغنيات تتغنى بمبارك وتصفه بأنه صاحب أول "طلعة جوية" نظرا لأنه كان قائد القوات الجوية فى حرب أكتوبر١٩٧٣ ، لم يفوت المحتجون الفرصة وراحوا يطالبون الرئيس بالرحيل مرددين "آخر طلعة جوية، لازم تكون ع السعودية"، فى إشارة إلى لحاقه بالرئيس التونسى السابق زين العابدين بن على.

وبعدما شعر المتظاهرون بأن الرئيس يعاند فى الاستجابة السريعة لمطالبهم، بدؤوا فى ترديد هتافات حادة يقول أحدها "مبيفهمش عربى، كلموه بالعبرى"، فى حين ذهبت هتافات أخرى إلى أبعد من ذلك

استخدم النظام المصرى الأساليب المدنية الحزبية والعسكرية لقمع انتفاضة الشعب المصرى، خلال الأسبوع الأول (٢٥ / ١ / ٣٠/ ١ / ٢٠١١) إذ سير النظام المصرى والحزب الحاكم مسيرات مضادة للمسيرات المناهضة والمعارضة لنظام الحكم، فردد أتباع الحزب الحاكم بعض العبارات منها: "لا لثورة ٢٥ يناير"، "بنحب مصر.. نعم لمبارك"، و"ضد التخريب وكلنا مبارك"، "يا مبارك يا طيار بكرة نرد الاعتبار".

على الجانب الآخر، فإن الذين خرجوا فى مظاهرات تؤيد الرئيس مبارك وتطالب ببقائه رفعوا بدورهم شعارات تخدم هدفهم ورددوا هتافات تعبر عن موقفهم كان أبرزها الهتاف الشهير "بالروح بالدم نفديك مبارك".

وعبر بعضهم عما يتردد من مخاوف على الاستقرار فى حالة الرحيل الفورى للرئيس فهتفوا "يا مبارك يا طيار، أوعى تسيبها تولع نار"، واتخذ آخرون اتجاها عاطفيا فهتفوا "يا مبارك يا حبيبنا، أوعى تمشى وتسيبنا".

وبدا أيضا أن المؤيدين للرئيس يقرون بوجود أخطاء كثيرة فى فترة حكمه، ولذلك هتفوا قائلين "صلح صلح واحنا معاك".(٣٨١)

ومع دخول الاحتجاجات يومها الحادى عشر، فإن المشاركين فى الاحتجاجات عبروا عن أملهم فى أن يشهد اليوم نهاية حكم الرئيس مبارك فأطلقوا عليه "جمعة الرحيل" و"الجمعة الأخيرة" ومن قبل "جمعة الغضب".

وبدا كأن المتظاهرين يتوقعون انتهاء اعتصامهم المليونى دون تحقيق مطلبهم، فحرصوا على التعبير عن إصرارهم على التغيير برفع لافتات تقول "اعتصام اعتصام، حتى يرحل النظام"

وفى عصر أحد أيام الثورة حصل أمرًا لم يكن مُتوقعًا، وكان مؤشرًا على مقدار الاستفزاز الحاصل عند السلطة.. حيث بدأت طائرات حربيّة من طراز أف ١٥ وأف ١٦ بالتحليق بارتفاعات مُنخفضة فوق المُحتشدين فى الميدان، مُحدثةً دويًا مُرتفعًا جدا، وذلك بهدف إخافة الحشود.

---

(٣٨١) نقلاً عن أنس زكي: المصريون تفننوا في شعارات الثورة، المعرفة، الجزيرة٥-٠٢-٢٠١١.

ورغم انزعاج بعض المتظاهرين وسقوط امرأة متظاهرة مغشيًا عليها من شدة الصوت، فإن الغالبيّة الساحقة من المُحتشدين لم ينزعجوا من ذلك، بل استغلوا هذا الأمر فى السخرية من النظام.. حيث تملك هذه الحُشُود موهبة مُبهرة فى استحداث فورى لهُتافات جديدة تُلائم الحدث.. فبعد تحليق الطائرات بأصواتها المرتفعة، صارت الجُمُوع تشير بأيديها إلى الطائرات وتُردد بمرح:

حسنى اتجنن.. حسنى اتجنن.. حسنى اتجنن

وبعد تكرار تحليق الطائرات، بدأت الحشود تُردد:

اتعودنا.. اتعودنا.. اتعودنا

وبعد بعض الوقت بدؤوا يُشيرون إلى الطائرات الحربيّة ويرددون:

الجدع جدع.. والجبان جبان.. واحنا يا مُبارك حنموت بالميدان

ثم بعد قليل أعلن من يُمسك بالميكرفون خبرًا مفاده أن البرازيل ألغت الاتفاقية التجارية مع مصر لاستيائها من تعامل الحكومة المصرية مع المُتظاهرين، وهنا بدأت الهتافات فوراً:

"الف تحيّة للبرازيل.. من ميدان التحرير"

ولأن المصريين يملكون مهارة استثنائية فى النُكت لا تمرّ مناسبات كهذه دون مواقف ومشاهد ساخرة عديدة.. حتى إن المُشارك فى ميدان التحرير لو قرر أن يلتقط فقط المواقف والعروض الساخرة، لأمكنه أن يخرج منها بكتابٍ كبير.

ففى أحد مداخل الميدان مثلاً، تجد مجموعة من الشباب الثوار يجلسون بقالب فنى بديع، ويُغنّون بطريقة استعراضيّة مُخاطبين الجُمُوع التى تدخل:

الى يجى ميروحش.. علشان نمشى الجحش

وكان فى أحد أطراف الميدان ثمة سيّارة نقل محروقة بالكامل، ومملوءة بأكوام من القمامة، ويقف على طرفها الخلفى شابٌّ قام بوضع لوحة كرتونية على الحوض الخلفى لسيارة النقل مكتوب عليها "مقر الحزب الوطنى"، ثم قام بوضع لوحة أخرى على صدره مكتوب عليها "لا لنظام مبارك.. إنجازات مبارك: ١ - فساد ٢ - قانون طوارئ ٣ - عدم تنفيذ أحكام القضاء ٤ - تزوير الانتخابات التشريعيّة ٥ - رعاية صحية وتعليم فاشلان ٦ - غذاء مسرطن ومحسوبيّات ٧ - فقر". ثم قام بتعليق لوحة ثالثة مرسوم عليها وجه كاريكاتيرى لحسنى مبارك، ومكتوب عليها: "هارب العباسية" (والعباسية هى المنطقة التى تضم مُستشفى المجانين)، وطوال ساعات يقف هذا الشاب على السيارة المُحترقة، ويهتف "هنا مقر الحزب الوطنى الجديد، والحكومة فى العربيّة مع الزبالة، وحسنى مبارك اتجنن وبندوّر عليه".

نكتة من هنا وهناك

وبالطبع لا تمضى هذه الأزمة دون تدشين عشرات النكات والمقولات الفكاهيّة الساخرة.. فمثلاً مما يتردد فى الميدان:

- قائد الجيش راح لحسنى مبارك، وقال له: خلاص ياريّس.. انتهى كل شىء.. لازم تكتب خطاب الوداع.. هنا أجابه حسنى مبارك: ألله.. هو الشعب رايح فين.

- وزير الزراعة قال لحسنى مبارك: يا ريّس السُلحفات دى بتعيش ٤٠٠ سنة. فرد عليه الريّس: هاتها.. نشوف بقى هتعيش كم؟

- حسنى مبارك اتصل على زين العابدين بن علىّ فى جدة.. وقال له: لو حتنام بدرى أبقى والنبى سيبلى المفتاح تحت الباب.

ظل ميدان التحرير طوال أيام الثورة يرتج بالدوى طوال اليوم.. والأمواج البشرية التى تملؤه تهتف بأعلى صوت مُطالبة بإسقاط الرئيس. وأحيانًا تُردد هتافات فيها كثير من السخرية.. حيثُ خاطب المُتظاهرون الصحافة المصرية الرسمية التى شككت فى قدرة المعارضة على حشد حتى عشرات الآلاف. وقالوا:

الصحافة فين.. المليون أهُمّ.. الصحافة فين.. المليون أهُمّ

ثم استمروا فى الهُتافات الساخرة:

عايزين حكومة حرّة.. العيشة بقت مُرّة

عايزين حكومة جديدة.. بقينا ع الحديدة

وفى وسط الميدان ترى شابٌّ يحمل "كيس زبالة"، وكان يدور ويُردد وهو يجمع القمامة من الناس: تبرّعوا للحزب الوطنى.. تبرّعوا للحزب الوطنى.

أنا مندس.. انا مندس

تفنن المصريون فى هتافاتهم فى ثورة ٢٥ يناير وتفجرت ملكات ساخرة تصل به إلى حد الموهبة فى ترجمة أيديولوجية ثورته التى بدأها "سلمية.. سلمية" والتى كانت تدعو الناس للاشتراك معهم :"يا أهالينا انضموا لينا " ،ليبدأ هتاف جديد اهتزت له مشاعر الناس كلها "الله أكبر.. الله أكبر " وزاد حماس الناس بهتافهم :"يااااارب.. يااااااارب " ومع بداية التصادم مع قوات الأمن بدأت

الهتافات :"اضرب بمبة اضرب غاز.. إحنا نزلنا وانتوا خلاص ". وهتافات الثورة كانت أقوى من صوت طلقات الرصاص وقنابل الغاز، فالطلقات توقفت وانسحبت الشرطة بعد أن انكسرت تماماً ولم تتوقف هتافات الثوار.

هتافات ٢٥ يناير بدأت بمطالب بسيطة، ومبارك كان قادرًا على تحقيقها ولكنه ظهر وكأنه مصمم على التعامل مع الشعب بنفس التعالى واللامبالاة فارتفعت حدة المظاهرات، وارتفع سقف المطالب حتى وصل لرحيله :"الشعب يريد إسقاط الرئيس ".

هتافات ٢٥ يناير بدأت بمطالب شرعية وبسيطة :"تغيير.. حرية.. عدالة اجتماعية"، أو كانت هتافات ضد الغلاء مثل :"آه يا حكومة هز الوسط.. كيلو اللحمة بقى بالقسط "، أو :"حسنى بيه يا حسنى بيه.. كيلو اللحمة بـ ١٠٠ جنيه"، وهو هتاف معدل كان الثوار يهتفون بمثله أيام السادات وقتما وصل سعر كيلو اللحمة لـ ٧ جنيهات فقط. لكن السادات لم يسمع حينها، وأسماها انتفاضة حرامية، واكتسب عدوات كثيرة أدت لاغتياله فى نهاية المطاف، ومن عجب الأقدار أن الجالس بجواره كان مبارك الذى لم يفهم الدرس.وكأن المتظاهرين الذين ضحى مئات منهم بحياتهم قد قاموا بالمظاهرات لأنهم لم يجدوا شيئاً آخر يسلّون أنفسهم به.

نموذج "عتريس" فى سنن الله

وازداد تأزم الموقف وبدأت هروات الأمن المركزى تتحدث وانطلقت الطلقات وخراطيم المياه لتفريق المتظاهرين فى التحرير وتولد هتاف رسمى لكل الثورات العربية :"الشعب.. يريد.. إسقاط

النظام" وراحت الناس تردد "بااااااطل" مستمدين إياها من فيلم (شئ من الخوف)[٣٨٢] .. وسمع العالم شعب مصر مناديًا: "

حسنى مبارك... باااااطل

وجمال مبارك... باااااطل

وأحمد نظيف... باااااطل

وحبيب العادلى... باااااطل

صفوت الشريف... باااااطل

وأحمد عز... باااااطل

والحزب الوطنى... باااااطل

واللاديمقراطى... باااااطل

الانتخابات.. باااااطل

أمن الدولة.. باااااطل

---

(٣٨٢) يقول النقاد إنها كانت اللقطة الأشهر في تاريخ السينما المصرية، عندما أخذت حشود أبناء قرية الدهاشنة بقيادة الشيخ إبراهيم تتجمع حول بيت زعيم القرية "عتريس"، الطاغية المتجبر، الذي حكم قريته بالحديد والنار والظلم والقهر من خلال عصابة لئيمة فاســدة، وأخذت الجموع تهتف "جواز (زواج) عتريس من فؤادة باطل". وذلك أن عتريس طلب الزواج من الفتاة فؤادة فرفضته، ثم أكرهت على الزواج بشهادة زور من شخصين قالا إنها موافقة، وبموافقة والدها الخائف الضعيف.لكن الفتاة كانت صلبة الإرادة فمنعته من نفسها، وساعدت الفلاحين على سقي مزروعاتهم بعكس إرادته. وتدخل الشيخ إبراهيم ليقف إلى جانب الفتاة، فقام عتريس بقتل ابنه وبحرق مزروعاته، ويقمع كل من يعترضه، لكن الشيخ إبراهيم ازداد إصرارا وكسر حاجز الخوف، وقاد أبناء القرية لحصار بيت عتريس، لينتهي الفيلم بإنقاذ فؤادة واحتراق البيت واحتراق عتريس فيه.

ثم تحول شعار الثورة الخالد من "الشعب يريد إسقاط الرئيس" إلى "الشعب يريد إسقاط النظام" كتطور عفوى فى قناعات الثوار، مع التحسب والخشية من أن شخصنة النظام واختزاله فى شخص واحد يجعل مجرد التخلص من شخص الرئيس امتصاصا غير مرغوب لاندفاع الثورة وزخم الشارع، ذلك أن التوقع السلبى المسبق لنتائج أى حوار عقيم مع فلول النظام يظهر حجم المخاطرة فى إيقاف هدر الجماهير قبل بلوغه مداه، وهو إقامة نظام جديد –على أنقاض القديم- يلبى الحد الأدنى من تطلعات الجماهير.. . وهى الجماهير التى تستحق ما هو أفضل مما هو معروض من بضاعة كاسدة لإجهاض التحرير.

ومع شدة الضرب كان الناس يتساءلون: "واحد.. اتنين.. الشعب المصرى فين؟"

"يللا يا شعب عدى الخوف.. خلى الدنيا تصحى تشوف"

وهتف الشعب فى رجال وأمناء الشرطة :"يا أمين ساكت ليه.. دى مش بلدك والا إيه؟"

وحين بدأت يد التخريب تعبث بأمن مصر لتقايض الشعب إما الإقرار بوجود مبارك وإما الفوضى.. ظهر الهتاف الشهير: "اللى يحب مصر.. ما يخربش مصر". ومع نزول الجيش للشوارع لحفظ الأمن استقبله الشعب بهتاف: "الجيش والشعب إيد واحدة.. الجيش والشعب إيد واحدة".

وكثف الشعب مطالبه فى هتافات بسيطة كرسائل البرقيات التى تؤرخ لتاريخ الثورة ولحال المجتمع المصرى وما وصل إليه من غضب كان واضحاً كل الوضوح فى التعبيرات التى ارتسمت على وجوه المتظاهرين، وفى العبارات التى كتبوها على اللافتات، وفى صوت

المرددين للهتافات، وفى طريقة كلام المعلقين الذين أدلوا بأقوالهم للإذاعات الأجنبية ومحطات التلفزيون ،وبدأت موبقات كثيرة تسقط كلها مع نظام أصبح وكل من ارتبط به جزءا من ماض مؤلم وقبيح، وبدأ المستقبل يكتبه شباب وهبهم الله أقصى ما يمكن من نقاء وطهارة ثورية، مع وعى رائق لا شائبة فيه، حددوا ومنذ اللحظة الأولى، هدفهم فى هتاف واضح يقول "الشعب يريد إسقاط النظام"؟ وطهروا البلاد من رجس التحرش الجنسى ومن الفتنة الطائفية.وأعادوا المعنى إلى هتافنا الثورى التاريخى "لا مفاوضات إلا بعد الجلاء" مؤكدين أنه لا حوار إلا بعد رحيل الديكتاتور.وانهمر سيل الهتافات :"

يللا يا شعب عدى الخوف.. خلى الدنيا تصحى تشوف

"ارفع صوتك زى الناس.. إحنا كرهنا الظلم خلاص "

ارفع صوتك قول للناس.. احنا كرهنا الظلم خلاص

"يا جمال قول لأبوك.. شعب مصر بيكرهوك"

"يا جمال قول الحق.. أنت ناهبنا والا لأ؟"

"لا لمبارك ويا الابن.. لا للفردة والاستبن ".

"حضرات السادة الظباط.. بإيدكم كم واحد مات ؟"

"ثورة ثورة حتى النصر.. ثورة ثورة فى كل شوارع مصر "

صحى الخلق وهز الكون.. مصر بلدنا ومش هتهون "

يسقط.. يسقط.. . الاستبداد

الهلال ويا الصليب.. ضد القتل والتعذيب

حسنى مبارك يا عميل.. بعت الغاز وفاضل النيل

قولوا وردوا أنت وهى.. مصر هتفضل غاليا عليا

ارحل ارحل ارحل غور.. خلى بلدنا تشوف النور

ارفع ارفع الهتاف.. شعبنا حر ومش هيخاف

اضرب اضرب يا حبيب.. مهما تضرب مش هنسيب

مش عايزينه مش عايزينه.. ولا كلابه ولا زنازينه

اصحى يا مصر وفوقى م النوم.. تهبوا ولادك يوم ورا يوم

ثورة ثورة فى كل مكان.. ضد الخونة والأندال

ثورة ثورة يا مصريين.. لجل ما نخلص م الخاينين

اهرب اهرب يا جمال.. انت وأبوك والأندال

علِّى علِّى وعلِّى الصوت.. اللى حيهتف مش هيموت

علِّى الصوت علِّى كمان.. لجل ما يسمع كل جبان

حسنى مبارك جلده تخين.. هو وعيلته مش سامعين

حسنى مبارك يا بليد.. شعب مصر مش عبيد

يا جمال يا غراب البين.. خد أبوك وروحوا لزين

علِّى علِّى وعلِّى الصوت.. النظام خايف يموت

كل الشعب يقول وينادى.. حسنى مبارك بره بلادى

السرطان فى كل مكان.. والغاز متباع بالمجان

باعوا دمانا وباعوا كلاوينا.. وبنشحت احنا وأهالينا

تسقط تسقط العصابة.. الزعيم ويا الدياية

الكرامة والحرية ... مطلب كل المصراوية

التحرير التحرير.. من حكم عصابة التزوير

مصر بلدنا مش تكية.. للهليبة والحرامية

شرطة مصر يا شرطة مصر.. انتوا بقيتوا كلاب القصر

افتح صدرك للحرية.. مصر حتفضل غاليه عاليا.

عسكر عسكر عسكر ليه.. احنا فى سجن ولا إيه

إيه بيحصل فى السويس.. دول أهالينا يا خسيس

بيعملوا علينا أسود.. وبيتسحلوا على الحدود

الهلال مع الصليب.. بكرة يا حسنى غيرك نجيب

ولم يرحل الرئيس وسعى من أجل إنهاك المقاومة الشعبية وكسر إرادة الجماهير عبر الالتفاف على مطالب الناس وإجهاض ثورتها من خلال تكتيكات لكسب الوقت كتغيير أقنعة أو تقديم عروض ترغيب وترهيب وبلطجة، بما يعين النظام الحاكم على التقاط الأنفاس وإعادة سطوته بشكل يترحم معه المواطن على عهد من ولى وباد!، فتحولت الهتافات للسخرية والتحقير من شأن مبارك وعبيد نظامه :"

ارحل ارحل يا جبان.. يا عميل الأمريكان

ارحل ارحل يا مبارك.. تل أبيب فى انتظارك

ارحل ارحل يا سليمان.. مش عاوزينك أنت كمان

يا مبارك يا فرعون.. أنت فى كل كتاب ملعون

احلف بسماها وبترابها.. مبارك هو اللى خرابها

شدى حيلك يا بلد.. الحرية بتتولد

هما بيلبسوا آخر موضة.. واحنا عايشين عشرة فى أوضة

ثورة ثورة يا شباب.. على الحاكم الكداب

شعب مصر ثور ثور .. على الحكم الدكتاتور

لا طائفية ولا حزبية.. كلنا وحدة وطنية

هما بياكلوا فراخ وكباب.. واحنا عيشتنا هباب فى هباب

ارحل بقى يا عم.. خلى عندك دم

هيلاوهيلاووهيلاو وهيلاو.. حسنى مبارك آخره الليلة.

ثورة ثورة حتى النصر.. ثورة فى كل شوارع مصر

روح يا مصلحى قول لرئيسك.. مش عاوزين مسامير فى رغيفك (على المصيلحى وزير التضامن الاجتماعى فى عهد مبارك والمسئول عن رغيف الخبز وحالته السيئة).

مش هنسيبك.. مش هنسيبك.. ولا هنسيب العادلى حبيبك

مش هنخاف من الداخلية.. مصر بلدنا وغالية عليا

ثورة ثورة شعبية.. ضد مبارك والحرامية

الهلال ويا الصليب.. ارحل يا رئيس التعذيب

باسم العشرة مليون عاطل.. نظامك يا مبارك باطل

ومع تزايد حدة الهتافات والصمود.. بدأت قررات العزل والتحفظ على الأموال والمنع من السفر تتخذ بسرعة، الخطر شديد حتى كاد يتحول إلى مسألة حياة أو موت، فلا بد أن تلقى السفينة الغارقة إلى الماء ببعض ركابها، وكل من له علاقة بالفقر والبطالة والإسكان فليذهبوا أيضاً.. كل من ثارت الشكوك حول ثرائهم

الفاحش أو تورطهم فى فضيحة أو أخرى.. هم أيضاً يجب التضحية بهم.وجاء الرد الشعبى سريعًا:

لا يا مبارك يا مفلسنا.. انت بتعمل إيه بفلوسنا

باسم الخمسين مليون شاب.. لا لمبارك والإرهاب

كل الشعب قالها خلاص.. لا لمبارك والأنجاس

ولم يرحل الشباب عن ميدان التحرير وأعلنها الشباب صريحة :

الميدان ده مقر الثورة.. والحزب الواطى بره بره

عيش.. حرية.. كرامة إنسانية

يا سلام سلم على التكتيك

بدأ التنازل عن أية نية فى الترشيح لرئاسة الجمهورية مرة أخرى، بل وتم إغلاق ملف التوريث.. ولكن حتى هذا لم يكف.. فلم يبق إذن إلا الخيول والجمال التى يقودها مجموعة من المأجورين الذين اعتادت وزارة الداخلية استخدامهم لضمان تزوير الانتخابات، وإرهاب القضاة الذين يحاولون مقاومة هذا التزوير.. ولم يسفر هذا العمل الممعن فى حقارته إلا عن عدد كبير من القتلى والجرحى، دون ان يجبر الشباب على الرحيل وجاء الرد :

قلنا ثورة للتغيير.. قتلوا اخواتنا فى التحرير

يا مبارك يا خسيس.. دم المصرى مش رخيص

يا مبارك خربت مالطة.. ارحل حافى من غير شنطة

الجيش والشعب إيد على إيد.. مصر هتدخل عهد جديد

الشعب فاق الشعب فاق.. كله عزيمة مفيش نفاق

الابن البار بمصر.. يد تبنى.. ويد تحمل السلاح

ويضطر الجيش لأخذ زمام الأمور بعد نفاد صبره وانزلاق البلاد لحافة الهاوية فيتلقاه الشعب بالترحاب :"يا حربية يا حربية.. ليكى منى ألف تحية".. ويؤكد مرة أخرى :"الجيش والشعب.. إيد واحدة".

وتستمر الدعوة للرحيل :

آخر طلعة جوية.. رايحة بسرعة السعودية

مش أحزاب ولا إخوان.. كل الشعب فى الميدان

أوفياء أوفياء.. لدماء الشهداء

السعودية خسارة فيك.. إسرائيل أولى بيك

حالو يا حالو.. الشعب كله حالو

يا مبارك يا طاغوت.. مش عاوزينك لو هنموت

هما يقولوا شرق وغرب.. واحنا نقول انصرنا يا رب

ارحل ارحل زى فاروق.. شعبنا منك بقى مخنوق

كفاية كدب على الشباب.. لازم ترحل يا كداب

بنقولهالك بالملايين.. ارحل ارحل مش خايفين

عاوزين حكومة حرة.. دى العيشة بقت مرة

يا مبارك يا طيار.. جبت منين ٧٠ مليار

واحد اتنين.. فلوس الشعب فين

مش عاوزينك مش عاوزينك.. دم الشهدا بينا وبينك

إرحل يعنى إمشى.. يا اللى ما بتفهمشى

مش هنمشى.. هو يمشى.. مش هنمشى.. هو يمشى

اعتصام اعتصام.. حتى يسقط النظام

مصر حرة.. وأنت بره

صفيت دمنا.. ارحل عننا

ارحل يعنى go.. يا عالم فهموه

ارحل.. كفاية دم

الشعب.. خلاص.. أسقط النظام

الشعب.. يريد.. محاكمة النظام

يا سوزان قولى للبيه.. ربع قرن كفاية عليه

يا سوزان قولى للبيه.. كيلو العدس بعشرة جنيه

هو مبارك عايز إيه.. عايز الشعب يبوس رجليه

روح يا زين قول لمبارك.. السعودية فى انتظارك

بكرة نقول كان قهر وعدى.. لما مبارك يرحل جدة

شيلوا مبارك وحطوا خروف.. يمكن يحكم بالمعروف

قول يا محمد قول يا بولس.. بكرة مصر تحصل تونس

يا مبارك بره بره.. عايزين مصر تبقى حرة

ارحل ارحل يا فرعون.. دى رغبة ٨٠ مليون

يا حرية فينك فينك.. حسنى مبارك بينا وبينك

حرية.. حرية.. حرية.. حرية

حسنى بيه يا حسنى بيه.. قولى حاصرت غزة ليه ؟

على السكر غلة الزيت.. بكرة نبيع عفش البيت

مصر وتونس ضى العين.. والحكام يغوروا الاتنين

شعب تونس يا حبيب.. شمس الثورة مش هتغيب.

آه يا حكومة هشك بشك.. بكرة الشعب المصرى يكشك

باعوا الدولة وباعوا الغاز.. دول عاوزين الولعة بجاز

هما بياكلوا حمام وبط.. وكل الشعب جاله الضغط

الشعب.. يريد.. محاكمة النظام

شعب حضارة ومجد سنين.. مش هيطاطى ليوم الدين

تحيا مصر.. تحيا مصر

يلا يا مصرى صحى الروح.. الحرية باب مفتوح

هكذا أعلن المصريون عن أنفسهم. بطريقة ليست بدخيلة عليهم هكذا يعيد التاريخ نفسه مرارًا وتكرارًا هكذا يطلع المصريون العالم بأسره على إنجازاته الثورية التى لا تضاهيها حروب، فتحوى الحروب كرٌ وفر أما ثورات الفراعنة يعلوها الثبات النسبى والوقوف علىى المطالب وعدم التقهقر لأرض التنازلات.ففى العصر الحديث توالت الثورات لتُشهد العالم على إرادة هذا الشعب العنيد. فكثيراً ما تحدى القدر فاستجاب. شعباً كثيراً ما تعلم من التاريخ لكن حكوماته لم تفعل. يخطف ميدان التحرير اليوم أنظار العالم ويدهش أركانه شيئا لم يكن متوقعًا من شباب "الهييز" شباب الفيس بوك ـ كما يدعونه المصدومون والمحبطون ـ الذى أخذ المبادرة، مع الشعب الذى تجاوب معها وأكسبها شرعية، والقوات المسلحة التى

كانت قادرة على إحباطها، لكنها قررت احتضانها واتخذت موقفاً وطنياً محايداً يذكره التاريخ.

وقرر الرئيس المصرى، حسنى مبارك الانصياع لإرادة الملايين من المصريين والتنحى عن رئاسة الجمهورية وتكليف القيادة العامة للقوات المسلحة إدارة شئون البلاد وأعلن نائب مبارك، عمر سليمان فى بيان قرأه عبر التلفزيون الرسمى أن مبارك :"قرر فى هذه الظروف الصعبة التى تمر بها البلاد التخلى عن منصبه وتكليف القيادة العامة للقوات المسلحة إدارة البلاد".

"الراجل اللى واقف ورا عمر سليمان"

ولم يدل سليمان بالمزيد من التفاصيل ولأن أذهان المصريين فى اللحظات الصعبة مشغولة دائماً بالبحث عن الإفيه ورؤية كل الأمور من زاوية عكسية، فقد كان لابد أن تظهر أسطورة ستبقى راسخة فى الوجدان الشعبى دليلاً على أن السخرية كانت (تخريمة) للوصول إلى الحرية والحقيقة بسرعة وأنها سلاحنا ضد الغلو والشطط فى أى اتجاه ,أن السخرية أكبر من أى تاريخ صلاحية.

وكأى أسطورة، لا يعرف أحد من أطلقها لأول مرة، ولا من روج لها حتى سرت بين الناس سريان النار فى الهشيم، فصار شعب الفيس بوك تحديداً فى انتظار الإفيه الجديد عن هذه الأسطورة.. أسطورة "الراجل اللى واقف ورا عمر سليمان"

وأنشئت عدة صفحات خاصة للرجل، الذى لا يعرف أحد هويته رغم أنه ظهر صحبة سليمان بعد تعيين الأخير نائبا لرئيس الجمهورية، الا أنه أصبح حديث الكثيرين بعد ظهوره خلف سليمان فى خطاب التنحى.

وكان من أبرز الصفحات التى أنشئت له 'رابطة محبى " الراجل اللى واقف ورا عمر سليمان" الراجل اللى ورا عمر سليمان 'والتى ضمت آلاف الأشخاص يحاولون معرفة شخصية الرجل!

تجاهل الجميع عمر سليمان، ونظروا للرجل الذى يقف خلفه بنظراته الصارمة، وعيونه الزائغة.. وراح الجميع يتساءل من هو الراجل الذى ينظر نظرات حادة صارمة بعيون زائغة تشتت تركيز الناس عن عمر سليمان.. وانتشرت تعليقات لاذعة تتميز بسخرية شديدة فى محاولة لتخمين هوية الرجل الغامض وانتشرت له صورة ساخرة تقارن بينه وبين عدد كبير من الشخصيات المعروفة، والغريب أن الرجل فعلاً كان يشبههم جميعاً بصورة ملفتة للنظر فهو يشبه"زين العابدين بن على رئيس تونس الهارب " وقيل أنه جاء بعقد عمل جديد إلى مصر فى وظيفة "الراجل اللى واقف ورا عمر سليمان"، كما أن الرجل يشبه جداً حسام البدرى المدير الفنى السابق للنادى الأهلى، وأوجدوا صلة شبه بينه وبين الممثل شوقى طنطاوى أحد ممثلى مسلسل عائلة ونيس، والمساعد الشخصى للفنان الكوميدى محمد صبحى، وأخيرًا أوجد الناس شبهاً فى الشكل بين "الراجل اللى واقف ورا عمر سليمان" وبين المذيع الشهير "جورج قرداحى"

ووجد "الراجل اللى واقف ورا عمر سليمان" نفسه يقف وراء كثيرين، فها هو يقف خلف هتلر فى احد اجتماعاته، ووراء حسام حسن وهو يصرخ على خط التماس فى إحدى مباريات الزمالك، ويقف وراء محمد سعيد الصحاف (وزير خارجية العراق الأسبق)، وخلف جمال عبد الناصر فى خطاب التنحى، وخلف صدام حسين وقت الإعدام، وخلف الموناليزا وغيرها من الصور التى ضحك

الناس عليها وسط كل هذه الظروف الصعبة والحرجة. وبعد عدة عبارات مازحة ينهيها بـ"الراجل ده لو عرف إن أنا اللى عملت الصورة ديه ممكن يودينى ورا عمر سليمان مش ورا الشمس.

وبالتوازى مع ذلك ظهرت صفحات على نفس المنوال لصور أشخاص يقفون خلف رئيس الوزراء السابق أحمد شفيق مثل "الراجل اللى واقف ورا احمد شفيق"، و"الراجل اللى واقف ورا اللواء محسن الفنجرى".

لكن أسطورة "الراجل اللى واقف ورا عمر سليمان" لم يقف أمامها منافس، ولم تقف عند حد الصور حيث تجلت عبقرية الشعب الساخرة فى مئات الإفيهات التى استهدفت الرجل الغامض وأضحكت الملايين مثل :

لو لم أكن مصرياً لوددت أن أكون "الراجل اللى واقف ورا عمر سليمان"

أوباما يعرض الوقوف بجانب "الراجل اللى واقف ورا عمر سليمان"

المستحيلات أربعة.. الغول.. والعنقاء، والخل الوفى و"الراجل اللى واقف ورا عمر سليمان"

حفظ الله مصر وأهلها و"الراجل اللى واقف ورا عمر سليمان"

الهتاف الجديد فى ميدان التحرير "الشعب.. يريد.. معرفة "الراجل اللى واقف ورا عمر سليمان"

عاااجل الجزيرة : مبارك سافر إلى دبى.. العربية : مبارك سافر إلى السعودية.. التلفزيون المصرى : مبارك فى شرم الشيخ.. والحقيقة هى أن مبارك فى بيت "الراجل اللى واقف ورا عمر سليمان"

الإخوة اللى بيتريقوا على"الراجل اللى واقف ورا عمر سليمان".. الراجل ده حارب فى ٣ حروب، واستشهد مرتين.. يا ريت نقدره.. وكفاية.

بعد الشهرة الكبيرة لـ "الراجل اللى واقف ورا عمر سليمان".عمر سليمان يغير اسمه إلى الراجل اللى واقف قدام الراجل اللى واقف ورا عمر سليمان !!.

ليس الفتى من قال هذا أبى لكن الفتى من قال أنا "الراجل اللى واقف ورا عمر سليمان"

إضافة إلى محاكاة لأخبار عن الرجل منها:

فى مفاجأة من العيار الثقيل، الراجل اللى ورا عمر سليمان يعترف للنائب العام انه "الراجل اللى ورا عمر سليمان"

وقال الحكماء وراء كل رجل عظيم امرأة. وأنا أقول: وراء كل عمر سليمان الراجل اللى واقف ورا عمر سليمان" الراجل اللى واقف ورا عمر سليمان.

نقلاً عن التلفزيون المصرى : لا صحة لوجود "الراجل اللى واقف ورا عمر سليمان".. ده خداع بصرى.

لما الدنيا تضيق.. لا تلاقى حبيب ولا صديق.. أكيد هتلاقى "الراجل اللى واقف ورا عمر سليمان"

باراك أوباما : يجب أن نربى أبنائنا ليصبحوا كـ "الراجل اللى واقف ورا عمر سليمان"

رئيس وزراء إيطاليا : لا جديد فى مصر فقد وقف رجل وراء عمر سليمان كالعادة.

ستولتنبرج رئيس وزراء النرويج: اليوم كلنا "الراجل اللى واقف ورا عمر سليمان"

هاينز فيشر رئيس النمسا: شعب مصر أعظم شعوب الأرض و"الراجل اللى واقف ورا عمر سليمان" يستحق جائزة نوبل فى الغموض.

هيفاء وهبى تغير كلمات أغنيتها إلى: رجب حوش "الراجل اللى واقف ورا عمر سليمان" عنى

هيلارى كلينتون تطالب "الراجل اللى واقف ورا عمر سليمان" بضبط النفس

ساويرس يخصص مكافأة مليون جنيه لمن يدلى بمعلومات حول "الراجل اللى واقف ورا عمر سليمان"

دار الإفتاء تعلن الوقفات فى مصر: وقفة عيد الفطر، وقفة عيد الأضحى، وقفة "الراجل اللى واقف ورا عمر سليمان"

الحكومة تعلن عن خط ساخن للإبلاغ عن أى معلومة تفيد فى معرفة "الراجل اللى واقف ورا عمر سليمان"

وزير الصحة : أنا قلق من انتشار مرض فوبيا "الراجل اللى واقف ورا عمر سليمان" حيث أصبح الشعب خائفا وينظر خلفه باستمرار فى ظروف تمر بها البلاد تفرض علينا النظر إلى الأمام.

أنباء غير مؤكدة : جلوس "الراجل اللى واقف ورا عمر سليمان"

٤ بنوك أوربية تعلن تجميد أرصدة "الراجل اللى واقف ورا عمر سليمان" لحين الكشف عن هويته

"الراجل اللى واقف ورا عمر سليمان" يعترف بإنه "الراجل اللى واقف ورا عمر سليمان"

اللى بيتريق ع الراجل اللى واقف ورا عمر سليمان يروح يقف هو ورا عمر سليمان ويقول لنا هيستحمل و لاء.

عمر سليمان يتهم "الراجل اللى واقف ورا عمر سليمان" بسرقة هاتفه المحمول

بعد تنحى مبارك.. استقالة "الراجل اللى واقف ورا عمر سليمان"

الله.. الوطن.. . "الراجل اللى واقف ورا عمر سليمان"

أنا هعصرك وانزل منك عيال صغيرين يقفوا بدل الراجل اللى واقف ورا عمر سليمان.

وراء كل رجل عظيم.. "الراجل اللى واقف ورا عمر سليمان"

واحدة كتبت: أنا عاوزة ابقى المرأة اللى وقفت ورا "الراجل اللى واقف ورا عمر سليمان"

الفنان محمد سعد يؤكد أن فيلمه القادم سيكون بعنوان اللمبى اللى واقف ورا عمر سليمان

زاهى حواس يتقدم بطلب لضم "الراجل اللى واقف ورا عمر سليمان" للمتحف المصرى باعتباره من الآثار

دول عربية تطلب الاستعانة بـ "الراجل اللى واقف ورا عمر سليمان"لإلقاء بياناتها ضد الثوار.

عاجل وحصرى على الصفحة الخاصة بالراجل اللى واقف ورا عمر سليمان: بيان رقم ٦ من القوات المسلحة بتقولكوا ملكوش دعوة

بالراجل، والله الموفق". أما محمد فيقترح أنه "يكون ده أحسن واحد يمسك المنتخب الفترة الجاية".

كما انتشرت صورة على الفيس بوك للرجل، كتب عليها ما يشبه بطاقة تحقيق الشخصية.

الاسم: الراجل اللى واقف ورا عمر سليمان.

الوظيفة: الوقوف ورا عمر سليمان

محل الاقامة: ورا عمر سليمان.

ويبدو أن المزاح أزعج أسرة الرجل، فظهرت معلومات تم التأكد من صحتها بواسطة مصادر صحفية بأن الرجل هو العميد أركان حرب (حسين شريف) قائد المجموعة ٦٤ قتال من القوات الخاصة، والذى يشغل حاليا منصب مدير مكتب اللواء عمر سليمان.

وجاء رد الفعل الفورى بإنشاء صفحة للاعتذار للرجل سميت 'اعتذار للعميد أركان حرب حسين شريف الراجل اللى واقف ورا عمر سليمان وكل أسرته.

ووصل عدد المعجبين بها عشرات الآلاف من الأشخاص، وكتب منشئ الصفحة أنه فعل هذا لأنه وجد تعليقا فى إحدى الصفحات التى 'تسخر 'منه، يقول كاتبه انه ابن الرجل، وأنهم كرهوه فى والده، رغم أنه لا ذنب له فى شيء مما يحدث فى مصر حاليا. وتم إنشاء صفحة خاصة باسم "رابطة محبى الراجل اللى ورا عمر سليمان"، وحاول فيها الزائرون التندّر حول هوية الرجل، وعمله. فيكتب أحدهم "حارس أوباما الشخصى.. مورد الأسلحة النووية لصدام.. قائد الاستخبارات فى الاتحاد السوفيتى سابقاً.. تورط فى مقتل كلينتون.. أحد المقربين لهتلر.. يقال إنه شارك فى هزيمة التتار

والهكسوس.. موحد القطرين.. يقف هناك فى كل اللحظات الهامة فى التاريخ.. قلما تجد مثله فى هذا الزمن: "الرجل اللى ورا عمر سليمان".

يافطة على باب الثورة

كما تناقل الكثيرون صورة لعبارات مركبة تحمل اسم "الحقيقة الكاملة"، فتقول إن "أشهر ٣ حاجات فى مصر اليوم هى: ميدان التحرير، وائل غنيم، ثم الراجل اللى واقف ورا عمر سليمان".

هذه الألوان من السخرية المصرية تؤكد أن السخرية فن شديد الصعوبة مبدؤها تحرير وتجديد مرتبط بمسألة طرائق الحياة الجديرة بالإنسان، ولم تعد مهرباً من المأزق والمحنة أو متنفساً يخفف الأعباء أو تعويضاً عاجزاً عن الفعل ومصر بشعاراتها المبدعة فى ثورة ٢٥ يناير أثبتت أن الشعب المصرى ليس فقط خفيف الظل، بل من أكثر شعوب العالم فى عبقرية التعبير عن رأيه بلافتات شاهدها العالم كله وأدرك معها أن المصريين هم الأكثر نكتة وابتسامة وهو الأكثر موعظة ودموعاً ومع ثورته تفجرت ثورة أخرى مرافقة لها ومحورها "النكتة السياسية"، وأضفت على الثورة الشعبية نكهة خاصة تنبع من رحم المعاناة، وزاد من بريقها الشعارات التى رفعها المتظاهرون والمعتصمون فى ميدان التحرير وقام الشباب بتأليف نكات عن الأوضاع السياسية كما رفعوا لافتات طريفة تعبر عن مطالبتهم الصريحة للرئيس مبارك بالتنحى.

ومن هذه اللافتات واحدة كتب عليها حاملها "امشى بقى، وجعتلى ايدى" وأخرى كتب عليها "هتمشى.. هتمشى.. انجز عشان أروح استحمى"، فيما حمل آخر لافتة تقول"ارحل بقى عشان أحلق".

وشاب آخر كتب على يافطة على شكل قلب " عايز اتجوز"، كما كتبت أحدى المتظاهرات " معلهش يا بلدى أتأخرت عليكى".، ولافتات أخرى :"ده لو كان عفريت كان انصرف "، "ارحل يا بااارد.. أنا سقعت ". "رابطة نجارى مصر يسألون الأسطى مبارك.. ما نوع الغراء الذى تستخدمه ؟"

وتنوعت اللافتات الأخرى ما بين كلمات ذات نكهة ساخرة مثل "زهقت من كنتاكى.. عاوز لحمة"، "الصعايدة بيجولولك : لع "، " القراءة للجميع والظلم ع الجميع "، " كنتاكى مغلقة يا غبى "، عفواً يا ريس.. رصيدكم نفذ"، "ارحل بقا عشان عندى حضانة "، "انجز يا عم ورانا ثانوية عامة"، "مبارك يتحدى الملل"، "أرحل بقا عايز ادخل الحمام"، "يا باااااارد.. يا بخت من زار وخفف"، "البلد بلد أبونا والفاسدين عاوزين يطردونا"، "أسألك الرحيلا"، "أغداً ألقاك؟.. لا طبعا.. مش عاوز أشوفك تانى".

وأخرى بها نبرة تحد مثل "فى النهار مظاهرات سلمية والليل حماية شعبية"، " لو كان هو دكتوراة فى العناد.. إحنا معانا نوبل فى الصبر"، "ثورة سباع مش ثورة جياع"، وتعليقا على مصطلح " الأجندات الخاصة " اللى أتكرر من قبل الإعلام الحكومى وجاءت على لسان عمر سليمان : "يا عمر سليمان.. أنا بطلت الأجندة.. وجبت كشكول سلك" وتعقيباً على الاتهامات بوجود أجندة لدى المعتصمين فى ميدان التحرير، ومندسين من الخارج بينهم، سخر البعض بما وصفوه بـ"نشيد الأجندة"، الذى يقول:

أنا مندس.. أنا مندس، هاتلى أجندة ووجبة وبس

من هارديز أو من كنتاكى، هاتلى وجبة دينر بوكس

أو سوبر زنجر من غير خس

هاتلى أجندة من الفجالة أعمل بيها ثورة فى مصر

أنا مندس.. أنا مندس، وكل الشعب كمان مندس

كل الناس هنا مش عايزينك، وانت يا حسنى مش بتحس

كل فضايحك، كل جرايمك، كلو موجود على ويكيليكس

أنا مندس.. انا مندس، عندى أجندة مستر إكس

وعن اتهامات النظام للمتظاهرين بالعمالة وموضوع "وجبة كنتاكى " الشهيرة:

أعلنت مصادر فيسبوكية أن كنتاكى هو فى الأصل "إخوان" ولديه أجنده خاصة، وطبعا سر الخلطة فى الأجندة".

وسجل الشعب مواقفه من عناد مبارك بقوله: "بكرة هتخرج مذلول باكى.. واحنا هناكل الكنتاكى"، "إذا الشعب يوماً أراد الحياة فلابد أن يستجيب (البقر)"، "حتى لو طلقت سوزان مش هنرحل م الميدان "، "لو انت رخم.. إحنا أرخم منك "، "لو ما استحمتشى النهاردة فى بيتنا هاستحمى يوم الجمعة فى قصر الرئاسة "، "انجز وارحل ما صدقنا الزمالك هياخد الدورى"، "من العار أن يحكمنا عبقرينو"، "لا يجتمعان الحق والباطل والشعب ومبارك"، "فيس بوك على كل ظالم". "أبوس رجل أمك ارحل ".

كما شوهد شاب يحمل صورة لمبارك فى زى لاعبى كرة القدم ويشهر حكم المباراة البطاقة الحمراء فى وجهه، وذلك فى إشارة إلى مطالبته بالرحيل.

كما عمد بعض المتظاهرين إلى استعارة عناوين بعض الأفلام الكوميدية آو التلاعب بها مع لافتة تقول "طير انت"، فى إشارة إلى اسم فيلم احمد مكى الشهير ، " اضحك.. الثورة تطلع حلوة"،

وكتب رجل يحمل طفلا على كتفه لافتة تقول "ارحل كتفى وجعنى". وحمل رجل شهادة دراسية للرئيس المصرى ومكتوب عليها "راسب وليس للمذكور إعادة".

وحمل آخرون :"باى يا مبارك موبيلات بقى "، " أنت رحت فين يا ريس.. احنا كنا بنهزر معاك "، " إلى الرئيس مبارك.. دى كانت الكاميرا الخفية.. نذيع والا لاء؟".

ولم تخل احتجاجات ميدان التحرير من مشاهد الحياة الطبيعية وحتى الزواج حيث عقد شاب وفتاة قرانهما فى الميدان وسط زغاريد وتهانى المحتجين والتقطت العروس بزفاف الفرح والعريس ببدلة العرس لقطات تذكارية بجوار دبابات الجيش والطريف أن حشود المتظاهرين زفت العروسين على أنغام الأغانى الوطنية بينما هتف البعض " أهم أهم أهم.. المصريين أهم" ليقضى العروسان شهر العسل فى الاعتصام وسط المحتجين - من أمثال الثورة: "ساعة الحظر ماتتعوضش".

كما كانت مواقع الانترنت و"فيس بوك" مجالا لتداول الكثير من النكات مثل "مبارك يهدد باحراق نفسه ويطالب بتغيير الشعب"، او "مبارك يطلب من مصر للطيران تجهيز طائرات لنقل ٨٠ مليون مصرى"، وأيضا "خبر عاجل: مبارك - يهدى الشعب المصرى أغنية نانسى عجرم أخاصمك آه.. أسيبك لا".

"سألوا الرئيس عن رأيه فى التغيير، قال: التغيير ده سنة الحياة. قالوا: طب وسياتك مش هتتغيز؟ قال: أنا فرض مش سنة" أمنية واحد مصرى: يا ريت مبارك كان ضربنا إحنا الضربة الجوية، وراح حكم إسرائيل ٣٠ سنة، كان زمانهم بيشحتوا دلوقتى!

مبارك بعد ما مات قابل السادات وعبد الناصر، سألوه: هاه؟ سم ولا منصة؟ رد عليهم بحرقة وقال: فيسبوك!

الرئيس يعلن فى بيان: وفاء منى لمصر ورغبة فى تلبية طلبات الشعب لن أرحل حتى أحقق مطلب الشعب فى القبض على السفاح ومحاكمته.

بيقولك واحد لقى الفانوس السحرى ودعكه.. طلعله العفريت وقاله: شبيك لبيك تطلب أيه؟ قاله الراجل: أنا عايز كوبرى بين القاهرة وأسوان. العفريت قاله: دى صعبة قوى.. نقى حاجة تانية. الراجل قاله: خلاص خلى حسنى مبارك يسيب الحكم. العفريت قاله: انت عايز الكوبرى رايح جاى؟ ولا رايح بس؟

وربطت نكات أخرى بين المطالبة برحيل مبارك وأحداث تونس التى أطاحت بالرئيس زين العابدين بن على مثل "واحد حشاش بيسأل: طيب لو كسبنا وأسقطنا الحكومة حيحصل إيه؟ رد عليه محشش آخر: حنلعب مع تونس فى النهائى".، "واحد يقول فى المظاهرة: حرام عليكم، أخرتووونا يجى ألف سنة رد عليه واحد تانى قال له: أيوه صح أنا رجعت البيت أمبارح لقيت أخواتى لابسين جلد معيز وبيتنا بقى من البوص".

وأنشئت مجموعة على موقع "فيس بوك" الاجتماعى على الانترنت جروب تحت عنوان "خفة دم الشعب المصرى فى

المظاهرات" تضم أكثر من ٥٠ صورة للافتات ذات الطابع الفكاهي". وصل عدد الأعضاء بها حتى كتابة هذه السطور ٥٨٢.٢٣٤ عضو.

وقال الجروب: "أحبائي.. الشعب المصرى عظيم فى كل مواقفه، ودائما يبهر العالم بخفة دمه فى كل شيء.. هذه الصفحة لتسجيل خفة دم الشعب المصرى فى المظاهرات الحالية.. اعلموا أنه عندما تتحول مشاعركم إلى مشاعر ضاحكة مستمتعة فأنتم تشاركون بإيجابية فى أن تجعلوا مستقبل مصر أجمل وأحلى".(٣٨٣)

ولم يخل يوم التحرير١١فبراير ٢٠١١م. يوم سقوط نظام مبارك بإعلانه التخلى والتنحى عن منصب رئيس الجمهورية من تعليقات ساخرة وهزلية كعادتنا فى مصر ونكت وتعليقات طريفة لم تختفى أبداً من على لسان المصريين حتى فى أحلك الظروف من هذه الطرائف التى انتشرت على المواقع الاجتماعية:

"مبارك قبل خلعه اتصل بعمر سليمان وقال له أبعت الفلوس على شرم الشيخ وأبعت المسلمين على السعودية والمسيحيين على أمريكا واقفل وهات المفتاح وتعالى".

"بعد ثورة مصر وتونس يوم الجمعة، القذافى قرر إلغاء صلاة الجمعة فى ليبيا"، " إبليس شاف ٣ ملايين بيصلوا فى ميدان

(٣٨٣) اعتمدنا فى هذا الفصل علي المشاهدات والمتابعات والمعايشة الخاصة للكاتب ليوميات الثورة وعلى العديد من مواقع الانترنت والمنتديات وشبكات التواصل الاجتماعى وعلى العديد من المراجع التى صدرت فى أعقاب الثورة فى مقدمتها: جلال أمين: مصر والمصريون فى عهد مبارك (دار الشروق، القاهرة ٢٠١١م)؛ محمد حافظ دياب: انتفاضات أم ثورات، (دار الشروق، القاهرة ٢٠١١م)، محمد فتحى: كان فيه مرة ثورة، (دار الكتب، القاهرة يونيو ٢٠١١م)؛ محمد سامى: ثورة- دوت كوم، (دار ليلي، القاهرة ٢٠١١م).

التحرير راح مصوت وقال : الله يخرب بيتك يا مبارك بقالى ٣٠ سنة أضلل فيهم وأنت بعماليك السودا دى تخليهم يتجمعوا ويصلوا؟ وهتف مع المتظاهرين "يسقط يسقط حسنى مبارك"، "واحد تحريراوى وواحد مصراوى عادى وواحد تبع الحكومة اتحبسوا فى أسانسير والعمارة بتتحرق، التحريراوى قال أنا افتح الباب واخرج وأموت محروق ولا أموت مع واحد تبع الحكومة قتل اخواتى فى التحرير وداس عليهم بعربياته، والحكوماوى قال إحنا نتصل بأمريكا ونشوف آخر التعليمات، سألوا المصراوى إيه رأيك؟: قالهم مش عارف اتصرفوا بسرعة عشان أنا هاموت وادخل الحمام".

"زين العابدين لما عرف بعت رسالة لمبارك يقوله له فيها : متنساش تجيب دراع البليستيشن معاك، رد مبارك قائلا : لا تعايرنى ولا أعايرك الشعب خالعنى وخالعك".

"مبارك قال أنا خسارة فى المصريين وتنحى وقرر إنه يرشح نفسه لرئاسة تونس، مما دفع ملايين التونسيين إلى المطالبة بعودة زين العابدين بن على".

شهود عيان فى أروقة وزارة التربية والتعليم أفادوا أنه تم تأجيل امتحانات الدور التانى إلى أجل غير مسمى، معللين هذا بأن النظام سقط وعاوز وقت عشان يلحق يذاكر"

"وعن شاشة التلفزيون الثابتة التى ثبتت الكاميرا لأيام طويلة على النيل ظهرت تعليقات : واضح انهم فاكرين أن السمك هيطلع يقول نعم".

بهذه العبارات والنكات الساخرة والكلمات والشعارات كانت هى الانطلاق من فرحة كبرى، حيث يتفرّج النيل وحيداً بمياهه الهادئة،

متأملاً بصمت غريب ومدهش (ميدان التحرير) بأمواجه البشرية الهادرة، والطافحة بزخم الشباب، وعنفوان الصبا، وجماله الذى حرّر فى لحظات تاريخية مفاجئة، أذهلت العالم، منطلقاً، زاحفاً مهرولاً، ممتطياً صهوة (التغيير)، وإسقاط "الزمن الحاضر"، لا تقف أمامه الحدود ولا السدود. لقد سجّل الشباب الغاضب فى كل من تونس ومصر، وسيستمر فى التسجيل فى ساحات كثيرة، هذا الشباب، وكل من رافقه من شرائح المجتمع فى الأقطار العربية سفر الخروج من جحيم الحياة، والواقع الزاخر بالآلام والمعاناة، الواقع اليومى المبتذل الذى غمرته قشور الصدأ والعفونة، وقد ران عليه الفساد وطفح كيله، حيث غرق هذا الواقع الذى عايشه هؤلاء الشباب فى الذل والقهر والمهانة والتهميش المتعمّد والاتهام المبتذل، لهذا الشباب بالطيش والتغرير والتهوّر وقصور الوعى.

ما جرى فى ميدان التحرير.. لا يقف على أعتاب (إزالة ظالم).. بل يمتدُّ إلى ما هو أكبر وأهم.. إلى إعادة إنتاج الإرادة.. إلى تدشين صرح الحُريَّة بالعرق والدم.. إلى بناء متاريس، وحَفر خنادق، تقف دون اغتصاب القرار، ومُصادرة حق الأمة فى الاختيار.

ولم تكن حروب الرغيف هى التى أخرجت الحشود.. ولا وأد الجوع هو ما ألهب نار الغضب فى أرواحهم.. ولا ارتباكاتُ الجيوبِ الخاوية هى التى جعلت حناجرهم تهتفُ وتُنادى.. بل هو الأمل.. والكرامةُ التى قد تذوى لكنها لا تموت.. ووجع الظلم الذى يُشعل الثورة من تحت الرماد.

دوى الحشود يرجُّ ميدان التحرير صباح مساء.. فيتداعى ذلك الصوت إلى كُلِ العالم.. ليصل إلى تخوم المُحيط وشواطئ الخليج

لحناً جميلاً وعـــــذباً يُخبِرنا: أن مُكعّباتِ الدومينو بدأت تتهاوى.(٣٨٤)

عتبة خروج

كثيرون هم من ادعوا أنهم الأبطال الحقيقيين للثورة، تعددت الآباء بالنسب والتبنى والإلحاق والإدعاء، حتى أصبح من قاموا فعلاً بالثورة يتشككون فى أنهم شاركوا فيها فعلاً.

ولأن التاريخ المصرى يكرر نفسه - حتى الأخطاء- فيرد على خاطرى الآن ذلك الجدل الذى شهدته الحياة السياسية المصرية عام ١٩٥٢ مع ظهور مقالات أنور السادات فى صحيفة الجمهورية وهو يحكى قصة الثورة، بدأ بسرد تاريخ اجتماعات الضباط الأحرار وأساليب العمل السرى إلى أن اقترب شيئاً فشيئاً من إعلان أسماء الضباط الذين قادوا الثورة، وهنا توقفت الحلقات المسلسلة التى كان يكتبها فجأة ودون مبرر! لقد أصدر جمال عبد الناصر قراره بمنع النشر تحاشياً للبلبلة التى سيحدثها إعلان هذه الأسماء واستبعاد أسماء أخرى.

والآن وللأسف الشديد نتعامل بذات المنطق مع الثورة، فالكل شارك والكل يريد أن يسجل اسمه فى التاريخ بصفته بطلاً من أبطالها، ولكن التاريخ لا يتسع لملايين الأبطال، فلنحاول إذن تقسيم دائرة الأبطال هذه إلى دوائر متتالية فتكون لدينا مساحة مشتركة للإجماع الوطنى نتفق عليها ونكرم عناصرها ونختلف على ما عداها إذا ما كانت هناك ضرورة للاختلاف بعد ذلك؛ وفى رأيى

(٣٨٤) نواف القديمي : يوميات التحرير، الجزيرة نت.

المتواضع أن النواة الصلبة لدائرة الأبطال هم شهداء ومصابى موقعة الجمل؛ فهم الأحق بالتكريم من أى أحد آخر، هم الصامدون وقتما خلد أغلب الناس إلى الراحة فى بيوتهم إما تسليماً بأن الهدف قد تحقق، أو استعداداً لجولة جديدة لم يتوقعوا أن تأتى سريعا هكذا.

وفى الدائرة التالية نجد هذه الكوكبة من شباب مصر الذين بدأوا المظاهرات، مستضعفين فى الأرض، يعلمون أنهم لن يبيتوا ليلتهم فى بيوتهم، فإما إلى المشرحة أو المستشفى، أو فى مقرات أمن الدولة يتعرضون لأحط أنواع الإهانات التى لا يمكن أن تصدر من بشر أو تمارس فى حق بشر. هؤلاء يستحقون منا الاعتراف بفضلهم والحيلولة دون سرقة بطولاتهم لصالح هذا الفصيل أو ذاك.

وفى الدائرة التالية، جموع الشعب كله، من ثابروا وصبروا حتى كتب لهم النصر، إن تضحيات هؤلاء جميعاً تفرض علينا الارتفاع عن الصغائر والارتقاء إلى مستوى المرحلة التاريخية التى نعيشها الآن.(٣٨٥)

والآن.. وبعد مرور أكثر من عام على الثورة نتطلع إلى إعادة البناء من جديد.. بناء متماسك صلب يكون مفتاحًا إلى مصر الجديدة التى تجمع بين تاريخ قديم زاخر، وحاضر ثائر فائر ومستقبل يملؤه الأمل. وختاماً.. . فما من خاتمة فنحن لم نبدأ بعد.. فلنبدأ.

---

(٣٨٥) محمد عبدالعزيز منير: آباء الثورة، الشروق ٢٦ /٩ /٢٠١١م.